من مشاهير أعلام المسلمين

تأليف

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب :	من مشاهير أعلام المسلمين
المؤلــــــف :	دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــة :	طبعة أولى / ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م
الناشـــــــر :	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـداع :	

مكتبـــة جزيرة الورد - القاهـــرة / ميدان حليـــم
خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٢/٩٩٦١٦٣٥
٠١٠/٠١٠٤١١٥ - ٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦



{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾}.

[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وصلاة الله وسلامه ورحمته على صفوة خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته أجمعين، ورحمة الله ومغفرته للتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أستفتح بالذي هو خير: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾} [الحج: ١].

أما بعد

فإن مما يلاحظ على أمة الإسلام في عصورها المتأخرة دنو الهمم والرضا بالدون والقعود عن معالي الأمور والاشتغال بالسفاسف والمحقرات.

وذلك على مستوى الأفراد والجماعات إلا من رحم ربك وقليل ما هم؛ ولهذا أصبحت الأمة غرضًا لأعدائها الذين تسلطوا عليها وجاسوا خلال ديارها، فساموها سوء العذاب من بعد كانت عزيزة مهيبة الجناب فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغاراً بعد شمم وذلاً بعد عزة وجهلاً بعد علم وبطالة بعد نشاط وتقاطعاً بعد ائتلاف وكادت أن تشرف على حضيض التلاشي والفناء.

وما أحوجنا - نحن المسلمين - أفرادًا وجماعات - أن نرجع إلى ديننا وأن نعلي هممنا حتى يعود لنا مجدنا السليب وعزتنا المسروقة.

وإن مما يعين على أن تُذكي معاني الهمة، وأن تحرك في النفوس قراءة ومتابعة سيرة نبينا محمد ﷺ فلا تعرف الأرض همة أعلى من همته، ولم تظل السماء رجلاً أشرف مقصدًا، وأنبل مرادًا من رسولنا عليه الصلاة والسلام، وكذلك سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وسيرة سلف الأمة الصالح رحمهم الله، وجمعنا الله وإياهم في الفردوس الأعلى من الجنة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إن صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه في طلبه ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

وإذا كانت النفوس كبارا ::: تعبت في مرادها الأجساد

قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفسًا تواقة ما نالت شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنها لما نالت هذه المنزلة يعني الخلافة

وليس في الدنيا منزلة أعلى منها تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا يعني الآخرة.

على قدر أهل العزم تأتي العـزائم ::: وتأتي على قدر الكـرام المكـارم
وتعظم في عين الصـغير صـغارها ::: وتصغر في عين العظيم العظـائم.

ومن دنو الهمة الرضا بالدون مع القدرة على ما هو أفضل وأحسن، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء.

ولم أر في عيـوب النـاس عيبًـا ::: كنقص القـادرين علـى التمـام

والله أيها الأحبة! إنني على ثقة أن في شباب أمتنا وفتياتها ورجالها ونسائها خيراً كثيراً، وأن في وسعهم وطاقاتهم الكثير الكثير، ولكن السلبية تلك الداء العضال - أعاذنا الله وإياكم منها - إن الله يربي المؤمنين على التطلع إلى أعلى المقامات، فيقول سبحانه على لسانهم:{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: ٧٤].

انظر{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: ٧٤] لم يقل سبحانه وتعالى: واجعلنا من المتقين! ولكنها تربية على الهمة العالية والعزيمة الصادقة{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: ٧٤].

إن الله عز وجل يريد منا أن نكون ذا همة عالية، لا أن نكون من المتقين فقط، بل أن نكون إماماً للمتقين هكذا يريد الله عز وجل أن يربي هذه النفوس، واسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول:«**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى**» لماذا هذا الأمر؟! (فاسألوه الفردوس الأعلى) لأن المسلم صاحب مبدأ، وهو على الحق فإن عاش عاش عزيزاً، وإن مات مات شهيداً، والله معه مؤيداً وحافظاً، والجنة مستقره وموعده.

اسمع لابن الجوزي وهو يقول رحمه الله تعالى: ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم

ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون، وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم، فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك، ومنهم من لا يرى ما عمل أصلاً؛ لأنه يرى عمله ونفسه لسيده.

واسمع لشعر هذا الكناس وعزته، قال الأصمعي: مررت بكناس - يكنس الشوارع - في البصرة ينشد يقول:

فإياك والسكنى بأرض مذلة تعد ::: مسيئاً فيها إن كنت محسنًا

ونفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ::: عليك بها فاطلب لنفسك مسكنًا

هذا الذي يقوله الكناس، فقلت - أي: الأصمعي: والله لن يبقى بعد هذا مذلة، وأي مذلة بعد الكنس؟ فقال الكناس: والله لكنس ألف مرة، أحسن من القيام على باب مثلك.

هكذا تكون عزة المسلم أيًّا كان ذلك العمل الذي يقوم به، ما دام أنه يقوم به لله عز وجل.

وإني لمشتاق إلى كل غاية من ::: المجد يكبو دونها المتطاول

بذول لمال حين يبخل ذو النهى ::: عفيف عن الفحشاء قرن حلاحل(١)

إذا كانت النفوس كبارا ::: تعبت في مرادها الأجسام

ولكل جسم في النحول بلية ::: وبلاء جسمي من تفاوت همتي

إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العوام ليس مرجعه إلى صفة، أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها هممهم وإلى التركيز الذي يسعهم أن يبلغوا هذه المنازل.

نحن مثلاً نرى من علماء الحديث من يقولون عنه: إنه كان يحفظ

(١) الحلاحل هو: السيد في عشيرته، الأمير في مجلسه.

كذا وكذا ألفاً من الحديث، أو يعرفون عن رجال الحديث ورواتهم كذا وكذا ألفاً وبعض الناس يقول: كيف هذا أي عقل يستوعب هذا؟

فنحن نقول: انظر إلى ما يحفظه كثيرٌ من الناس أو ما نحفظه نحن بمجموع ما عندنا كم يحفظ كثيرٌ من الناس من أسماء المغنين والمغنيات والفنانين والفنانات، واللاعبين واللاعبات، وأسماء المجلات وأسماء الأسطوانات، وكذا تجد أنه كمٌّ هائل ربما يعدل شيئاً من ذلك.

مثلٌ يسير.. الإمام البخاري - رحمه الله - كان جُل اهتمامه وتركيزه في الحديث، وبلغ فيه مبلغاً عظيماً حتى لُقّب بأمير المؤمنين في الحديث.

انظر إلى عظمة التركيز في قصة واحدة قالها بعض أصحابه قال: نمت مع البخاري ليلة وإذا بي أُحصي له ستة عشرة مرة يقوم فينظر في أوراقه فيدون شيئاً أو يُطالع شيئاً.

لماذا فكره مرّكز وهمه منحصر في ذلك إذا نام حتى إذا استيقظ تذكر شيئاً فقام.

أبو عبيد القاسم بن سلاّم - رحمه الله - له قصة طريفة أيضاً ذكرها مؤلف وفيات الأعيان يقول:كان يفكر في المسألة ولا يصل فيها إلى حل فجاء لينام وغلبته عيناه، ثم إذا به يستيقظ وظل طول ليله يفكر حتى الصبح ولكنه وصل فيها إلى نتيجة، قال: فما رأيت ليلة أبرك عندي منها.

إذا شغله شيء لا يلتفت إليه وحتى في مجال آخر.

زين العابدين - رحمه الله - كان يصلي في بيته واشتعلت النار في البيت، وجعل بعض الناس يصيح: يا بن رسول الله، النار.. النار! فما شعر إلا بعد أن أُطفئت النار وخلصت الصلاة، قالوا: أما شعرت؟! قال: ألهاني عن النار النار الأخرى.

وعروة بن الزبير نعرف قصته لما سرى الداء إلى رِجله قالوا:

نسقيك شيئاً من الخمر فنقطعها حتى لا تشعر! قال: لا! ما كنت لأستعين بمعصية الله، ولكن إذا دخلت في الصلاة فافعلوا ما شئتم، فقطعوها وغمسوها في الزيت المغلي حتى يلتئم جرحها.. وفي بعض الروايات التاريخية أن الوليد وهو الخليفة قال: وإني لأشم رائحة الشواء وهو في صلاته حتى أُغمي عليه رضي الله عنه ورحمه الله.

هكذا يكون الانشغال بالقضية، وهذه قضية بشرية انظر إلى الذين ينشغلون ببعض الأمور والأعمال، أو المهمات التي يلتفت إليها بعض الناس من العباقرة، حتى في العلم تجده لا يعرف كيف يلبس الملابس! ولا يعرف كيف يأكل الطعام! ينشغل بشيء حتى إن الإمام مسلم - رحمه الله - وقصة وفاته فيها عبرة كانت عنده مسألة من الحديث فدخل إلى بيته ورجع - بعد أن راجعه بعض الناس في الدرس - يبحث فقال لأهله: لا يدخل أحد عليَّ، فقالوا: أُهدينا تمراً، قال: قربوه لي، فجعل يأكل ويقرأ، يأكل ويطالع وهو لا ينتبه حتى أكل التمر كله، قالوا: فمرض بسبب ذلك فكان منه موته بقدر الله سبحانه وتعالى.

ذريني أنل ما لا ينال من العلا ::: فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ::: ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ::: الجود يفقر والإقدام قتّال
فكن رجلا رجله في الثرى ::: وهامة همته في الثريا

إن الهمم العالية كنوز غالية يمتن بها المنان على من يشاء من بني الإنسان، فطوبى لمن أولاه مولاه تلك الهمة العالية والعزيمة الوثابة والإرادة الماضية، فما آفة المحق إلا التردد والتذبذب، والتخاذل والفتور، والرضا بتوافه الأشياء ومحقرات الأمور!

فعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فأكرمه، فقال له: «ائتنا»، فأتاه، فقال له رسول الله ﷺ: «سل

حاجتك». قال: ناقة نركبها، وأعنز يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ : «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟!».

قالوا: يا رسول الله! وما عجوز بني إسرائيل؟ قال:«إنَّ موسى - عليه السلام - لما سارَ ببني إسرائيل من مصر؛ ضَلّوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إنَّ يوسفَ - عليه السلام - لَمّا حضره الموتُ؛ أخذ علينا موثقاً من الله، ألاَّ نخرجَ من مصر حتّى ننقلَ عظامَه معنا - أي بدنه، وهو من باب إطلاق الجزء ويراد به الكل، فالأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم كما صح بذلك الخبر عن خير البشر - قال: فمن يعلمُ موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فقال: دلِّيني على قبر يوسفَ، قالت: حتى تعطيني حُكمي. قال: وما حكمكِ؟ قالت: أكونُ معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى اللهُ إليه أن أعطها حكمَها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ما، فقالت: انضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احفروا، فحفروا، فاستخرِجوا عظامَ يوسف، فلما أقلّوه إلى الأرض؛ فإذا الطريقُ مثل ضوء النهار» [(١)].

أرأيت الفرق الواسع والبون الشاسع بين من يريد أعنزاً يحلبها وناقة يركبها، وبين من تريد مرافقة الرسول في الجنة؟!

إنها الهمة العالية، وفقط!

والأمة الآن بحاجة إلى مدارسة سيرة رجال يبعثون فيها الهمة العالية والقدوة الحسنة إلى رجال عاشوا يقتفون أثر الحبيب محمد ﷺ وساروا على دربه، إلى رجال تحيا القلوب بذكرهم، حتى تستيقظ الأمة من غفوتها، وتقوم من كبوتها، ولكن شتان ما بين رجال ورجال، شتان ما بين رجال خلد الله ذكرهم على مر القرون وهم أموات، ورجال لا وزن لهم ولا ذكر لهم وهم أحياء، أولئك تحيا القلوب بذكرهم، وهؤلاء تموت القلوب بمجالستهم.

---

(١) السلسلة الصحيحة - للألباني (٣١٣) وصحيح موارد الظمآن (٤٥٢/٢) (٢٠٦٤).

يقول بشر الحافي: بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم.

إنّ البنفسجَ ترتاحُ القلوبُ له ::: ويعجزُ الوصفُ عن تحديدِ معجبهِ
أوراقُه شُعل الكبريت منظرها ::: وريحه عنبرٌ تحيا القلوبُ بهِ

فالذكرى الحسنة لا تأتي من فراغ أو غثاء لذلك كان النداء من السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيوضع له القبول في الأرض.

ليس مَنْ ماتَ فاستراح بَميْتٍ ::: إنّما الميْتُ ميّتُ الأحياء
إنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلاً ::: كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاء
فَأُنَاسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَادًا ::: وَأُنَاسٌ حُلُوقُهُمْ فِي المَاء (١)

فهناك أناس أحياء الجسد لكنهم موتى القلوب{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾} [الأعراف: ١٧٩]، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام طَلَبَ الذكرى الطيبة لنفسه على جلالة قدره:{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾} [الشعراء: ٨٤] والمعنى: اجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير.

وليس الموت انقطاع النفس ::: ولكن الميت مَن يحيا بلا أثر

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا

(١) الثماد الماء القليل يبقى في الحفر. والأبيات للشاعر عدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. انظر: الأصمعيات: ٥، ومعجم الشعراء: ٢٥٢، وتهذيب الألفاظ: ٤٤٨، والخزانة ٤: ١٨٧، وشرح شواهد المغني: ١٣٨.

اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

صور من الأحلام تثلج خاطري ::: ولقد تسر العاشق الأحلام
صور رسمت أمام قلبي لوحة منها ::: لعل جراحه تلتام
صور وتنسفها وقائع أمتي ::: نسفا ويبتلع المكان ظلام
وعلي رصيف الليل طفل واهم ::: نظراته نحو القلوب سهام
وسؤاله الملهوف يحرق مهجتي ::: أو ليس ديني يا أبي الإسلام
أو ليس منهج أمتي قرآنها ::: فبه لها في العالمين مقام
أو ليس قدوتنا الرسول محمد ::: تهدي إليه صلاتنا وسلام
أو ما لنا في المجد ألف حكاية ::: تعبت على تدوينها الأقلام
أو ما جرت أنهارنا رقراقة ::: بالخير ترفع فوقها الأعلام
أو ما لدينا النبع يصفو ماؤه ::: وعليه من شفق القلوب زحام
أو لم نكن جسر النجاة لعالم ::: يشقي به الضعفاء والأيتام
أو لم تصغ بدر بداية مجدنا ::: لما تهاوت عندها الأرقام
ألف تقابل ثلث ألف إنها ::: لأدلة للواهمين تقام
أو يكن بالفتح صرف عقيدة ::: في صدرها للمكرمات وسام
أو ما تري في الكون صوت بلالنا ::: وعلي صداه تهاوت الأصنام
أو لم تكن ذات السلاسل لوحة ::: مرسومة وإباؤنا الرسام
أو ما رأي اليرموك كيف استبشرت ::: ببزوغ فجر المسلمين الشام
أو لم تكن للقادسية قصة ::: أدلي بوصف شموخها الصمصام
أو لم نعلق في المدائن شمعة ::: بيضاء فر أمامها الإظلام
أو لم نلقن قيصرا وحشوده ::: درسا تحار أمامه الأفهام
أو لم ندع كسري على إيوانه ::: يبكي وتأكل صدره الآلام

أو لم يسـلم جاذويـه سـلاحه ::: فرقـا ويـنـدب حظـه بهـرام
أو لم تخض بحـر البطولـة خيلنـا ::: وبقلـب أنـدلس لهـا إعظـام
أو لم تقل للصـين خيـل قتيبـة ::: جئنـا يـزف صـهيلنا الإقـدام
أو لم تفض حطـين لحنـا خالـدا ::: تهفـو إلى أنغامـه الأنغـام
أو لم تكن في عـين جـالوت لنـا ::: همـم لـردع المعتـدين عظـام
أو هكذا ننسـي المفـاخر مثلمـا ::: ينسي الصغير هوي الرضاع فطام
أو هكـذا أبتـاه تسـكر أمـتي ::: سـكرا يقـدم كأسـه الإعـلام
أو هكذا تطـوي عـزائم جيلنـا ::: قصص تصور فحشـها الأفـلام
قل لي أبي أنظـل نأكـل خبزنـا ::: وعليـه مـن دمنـا المـراق إدام
قل لي أبي أنظـل نشـرب ماءنـا ::: والقدس يهتك عرضـها وتضـام
قل لي أبي أيبيـت طفـل سـاهرا ::: في كفـه حجـر ونحـن ننـام
ورمـت عيـون المخـبرين وراءه ::: وعلي شـفاه الصـامتين خطـام
سكتوا لأن السـيف مسـلول إذا ::: نطقـوا بمـا لا يرغـب الأقـزام
سيفان يا أبتـاه سـيف عـدونا ::: صـلت وسـيف سـله الحكـام
وغرور أمريكـا أحـال رجالنـا ::: خشـبا تسـمر فوقـه الأحـلام
أو ما لنـا أبتـاه عـزم صـادق ::: أو لـيس بـين صـفوفنا مقـدام
أو ما لنا في السلم نهـج واضـح ::: أو ما لنا وقت الحـروب حسـام
أو ما لنا في عـالم اليـوم الـذي ::: يجـري طريـق واضـح ونظـام
أبتاه هـذا بيتنـا قـد هـدمت ::: جدرانـه وأمامنـا الهـدام
أبتاه هـذا جسـم أمتنـا تـري ::: يـه اللظـى واستشـرت الأورام
أبتاه هـذا درب أمتنـا شـكى ::: يه الثـري مـا تصـنع الألغـام
كفر وربك يـا أبي ينـوي بنـا ::: را ونحـن كأننـا الأنعـام
قل لي أبي أنظـل نعلـق صـمتنا ::: علـى الأنـوف مذلـة ورغـام
أنظل نخفض للصـليب رؤوسـنا ::: ينـام فـوق فراشـنا الحاخـام
أو هكـذا أبتـاه ننسـي ديننـا ::: ويزيحنـا عـن مجـدنا استسـلام
كان الأب المسكين يحـبس دمعـه ::: لحزنـه بـين الضـلوع ضـرام

أبني لا تنطق فقد ألجمتني ::: واه كم يؤذي الكريم لجام
هذه هي الأمراض قد فتكت بنا ::: عصرنا ودواءها الإسلام

إن أمتنا بحاجة ماسة إلى القدوة الفعلية المهتدية بالكتاب والسنة وهدي سلف الأمة التي تقف الألفاظ البليغة والعبارات القوية أمام فعلها عاجزة عن التعبير والوصف.

والقدوة الحسنة هي وسيلة عملية في البناء الخلقي، ولن تصلح التربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة [١]، والتاريخ الإسلامي حافل بنماذج حية للشخصيات الأخلاقية الكريمة، للترغيب في أخلاقهم، ومحاكاة الحسن منها، قال تعالى:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ} [الأنعام: ٩٠]، كما حفل بنماذج أخرى ضدها للتنفير من محاكاتها، قال ابن حزم: ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل، لينفر سامعها من القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف [٢].

وقد سيق في القرآن الكريم تجارب الأنبياء الأخيار لينتفع منها النبي محمد ﷺ فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل، فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم [٣]

والقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٦.
(٢) الأخلاق والسير ١٩٥.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي ٢٩ / ٨٠.

وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:«**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**»، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا غمًّا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر

بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًّا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ.

يا أمة الإسلام لن تتسنمي ::: رتب العلا بالْمال والأحساب
لن تسلكي درب الخلاص بمدفع ::: وبكثرة الأعوان والأصحاب
لن تبلغي إلا بنهج صادق ::: وتعلّق بالخالق الوهاب
تفنى الجيوش وتنتهي آثارها ::: وننال بالإيمان عز جناب
تفنَى القوى مهما تكاثر عددها ::: وتظل قوة ربنا الغلاب

ومطالعة السير، وأخبار أهل الصلاح وذويهم من أكثر الأسباب المعينة على الهمة العالية والمُفضية إليها والمؤدية إلى طريقها فإنها تشعل في القلب نار الحماسة وتذكي فيها العزيمة والجد بحيث لا يتوانى ولا يتكاسل ولا يتأخر وقد قال ابن الجوزي رحمه الله إن النظر في سير القوم حياة للقلوب وإعلاء للهمم.

ونعلم أن من سير الصحابة والتابعين والسلف الصالح - رضوان الله عليهم - ما لو تدبره وتعلق به المرء لكان خيراً له وسبباً من الأسباب التي تعينه بإذن الله عز وجل على فهم الواقع وتفسير الأحداث وما يحيط به.

والهدف من عرض النماذج الحسنة أن يقف المرء على حمد المتقين

الأخيار للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها؛ ويقرأ أخبار الصالحين فيجب أن يكون منهم وأخبار المفسدين فيمقت طرائقهم.

والحقيقة أن النظر في حياة الصالحين والمصلحين وتراجمهم حياة القلوب وتزكية النفوس وزيادة الإيمان ونور البصائر،وشفاء الصدور، ورياض العقول،ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

وفكرة هذا الكتاب قد قامت على جمع معظم التراجم التي قد عالجتها في أعمالي السابقة التي وفقني الله في إتمامها، ومن ثم قمت باختصارها وإعدادها لتناسب القاريء، ثم أضفت لها بعض المقالات والتراجم لبعض مشاهير الأمة الإسلامية في شتي المجالات حتى تعم الفائدة. على أمل أن يعينني الله عز وجل وأن يكتب لي القيام بإفراد مجلد خاص بأعلام الصحابة والتابعين والفقهاء والقضاة... كل على حدة.

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

عقبة بن نافع

من مشاهير أعلام المسلمين

عقبة بن نافع

يعتبر عقبة بن الفهري [١] من أكابر التابعين وأفاضلهم، فقد ولد قبل وفاة الرسول ﷺ بعام واحد، وكان من أعرف الناس بأحوال المغرب العربي، وكان قوي الإيمان بدينه، شديد الحماس لنشره، فكان يتخذ من من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام، وكان بالإضافة إلى ذلك قائدا قديرا، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى في إفريقية، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد [٢].

كان والده من المسلمين الأوائل الذين جاهدوا في سبيل الله، فلم يكن غريبًا أن يشب (عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري) وحب الجهاد يجري في عروقه، وتمنى أن يكون أحد أبطال مكة وفرسانها، تعلم المبارزة، وتدرب مع الشباب المسلم على حمل السلاح، وازداد عقبة حبًّا واشتياقًا للجهاد من سماعه لقصص البطولة التي قام بها المسلمون أثناء حروبهم ضد أعداء الإسلام، حكاها له ابن خالته (عمرو بن العاص).

(١) هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقيا لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها (١)، فقد أسند معاوية بن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٣.

ولما بلغ عقبة مبلغ الشباب أصبح يجيد المبارزة وكل فنون الحرب والقتال، منتظرًا اللحظة المواتية ليدافع عن دين الله، وجاءت الفرصة عندما أسند الخليفة العادل (عمر بن الخطاب) فتح بعض بلاد الشام إلى عمرو بن العاص، وجعل عمرو (عقبة بن نافع) في مقدمة الجيش وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، وكان عقبة عند حسن ظن عمرو بن العاص، فقد أظهر مقدرة بطولية على اختراق صفوف الأعداء، ونجح نجاحًا كبيرًا في أول امتحان له في الجهاد في سبيل الله.

وفي أثناء فتح عمرو بن العاص لمصر أظهر عقبة تفوقًا ملحوظًا، واستطاع بمهارته الحربية أن يساعد عمرو بن العاص في هزيمة الروم، وكان كل يوم يمر على عقبة يزداد حبًّا للجهاد في سبيل الله، وشغفًا بنشر دين الإسلام في كل بقاع الأرض؛ حتى ينعم الناس بالأمن والعدل والرخاء، وظل عقبة بن نافع جنديًّا في صفوف المجاهدين دون تميز عن بقية الجنود، على الرغم من براعته في القتال وشجاعته التي ليس لها حدود في مقاتلة أعدائه، إلى أن كلفه عمرو بن العاص ذات يوم أن يتولى قيادة مجموعة محدودة من الجنود يسير بهم لفتح فزان (مجموعة الواحات الواقعة في الصحراء الكبرى شمال إفريقيا).

وانطلق عقبة إلى (فزان) وكله أمل ورجاء في النصر على أعدائه، وعندما وصل عقبة إليها دارت معارك عنيفة بين البربر والمسلمين أظهر فيها عقبة شجاعة نادرة حتى فرَّ البربر من أمامه ورفعوا راية الاستسلام، وأراد عمرو بن العاص فتح إفريقية كلها، لكنه كان في حاجة إلى عدد كبير من الجنود، فبعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستأذنه في فتحها، لكن الخليفة عمر - رضي الله عنه - كان من رأيه الانتظار عدة سنوات حتى يرسخ المسلمون في مصر وتثبت إمارتهم ويزداد جيش المسلمين ويقوى

عدةً وعتادًا.

انتقل عقبة - رضي الله عنه - إلى برقة (منطقة في ليبيا) بأمر من عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ لِيُعَلِّمَ المسلمين فيها أمور دينهم، وينشر الإسلام في هذه المنطقة، ومكث - رضي الله عنه - مخلصًا في نشر نور الإسلام، وتدعيم شعائره في نفوس الذين أقبلوا على تعلم لغة القرآن.. فأسلم على يديه كثير منهم، وأحبوه حتى استطاع عقبة أن يكتسب خبرة واسعة بكل أحوال البربر.

وتمر الأيام والسنون وعقبة يواصل جهاده في سبيل الله، حتى كانت سنة (٤٠هـ) وهي السنة التي تولي فيها معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وعاد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وحين أراد عمرو بن العاص أن يستكمل الفتوحات الإسلامية التي كان قد بدأها في برقة رأى أن خير من يقوم بهذه الفتوحات عقبة بن نافع؛ لإقامته بين البربر لسنوات عديدة، فأصبح من أكثر الناس معرفة بحياة البربر وعاداتهم وتقاليدهم.

وبدأ عقبة الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام بين قبائل البربر، وكانت برقة آنذاك قد تغيرت معالمها بعد أن اعتنق أهلها الدين الإسلامي، وانتشرت المساجد في كل مكان فيها، وظل عقبة واليًا على برقة يدعو إلى الإسلام إلى أن جاءته رسالة من الخليفة يخبره فيها بأنه قد اختاره لفتح إفريقية.

وقد جاء إسناد قيادة الجيش الإسلامي إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة

آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[١]، وسار في جموعة حتى نزل بمغمداش من سرت، فبلغه أن أهل ودان[٢] قد نقضوا عهدهم مع بسر ابن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[٣]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[٤]

ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[٥]، وخاور[٦]، وغدامس[٧]، وغيرها، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[٨].

ومن أجل مآثر عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان،ففي سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٤٨٣)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٣.

(٢) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (٥/٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، الصلابي، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، صـ١٣٢.

(٥) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. ياقوت الحموي، معجم البلدان (٤/٤٨٦).

(٦) خاور: مدينة جنوب فزان.

(٧) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.

(٨) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٨٠، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).

ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها، وعن يحي بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[1]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[2]، وتم تخطيط مدينة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الصلابي، الدولة الأموية - ٢ / ٥٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٤/٢). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩.

القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يخططها المسلمون ويرتكزان في وسطها(١)، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي(٢).

وبينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م، ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال:... إن أبا المهجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخي كما يقول ابن عذارى حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية. وهناك نقطة في هذا

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٥، محمد سيد الوكيل، الأمويون ٧٢/١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص٣٥، الصلابي، الدولة الأموية، ٥٨/٢.

الموضوع، وهي الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟.

قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه.

ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[(١)]، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصيًّا كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد على دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد أضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة؛ لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر: ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين.

إن كان هذا الاستنتاج صحيحًا وهو على كل حال معقول، فقد

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته؛ لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه(١).

... على الرغم... من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظرة - أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة، وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال إفريقية ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاؤوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاؤوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها(١)، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد.

رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الإستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة (١٥٢/١)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٦).

الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة(١)، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانيًّا متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين،فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم(٢).

١ - معركة تلمسان: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١. الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٨).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية - ٢ / ٦٨.

أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار[١].

ظل أبو المهاجر على ولاية إفريقية حتى مات معاوية سنة ٦٠ هـ وأفضت الخلافة من بعده لابنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والي مصر، وعزل أبا المهاجر بن دينار، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية [٢].

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد[٣]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصًا وفيًّا شهمًا غيورًا فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضبًا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه؛ إذ إن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين، وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٧.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٧.
(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤ / ٤٥، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٠).

المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده، لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم.

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية(١).

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير ابن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علماً وفقهاً وأملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًّا لدينك وذلاًّ على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال:
- يا بني، أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلكم على

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٧١.

مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألاَّ تُداينوا، ولو لبستم العباء فإن الدَّيْن ذلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا - ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا - ثم قال: اللهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[١].

وهكذا ما أن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي:{إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾} [التوبة: ١١١].

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى:{وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ١/٢٣، الدولة الأموية، ٢ / ٧٢.

ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

بـ - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر؛ لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهَمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ - الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلمّ عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة.

سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية[١]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه، ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن منَّ عليهم بالصبر، فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم، فقاتلوهم إلى أبوابها، وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غربا قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له (أَرَبَه) وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٨٩/٢، الدولة الأموية، ٢ / ٧٤.

عـامرة، فـامتنع بهـا مـن كـان هنـاك مـن الـروم وأهـل المدينـة وهـرب بعضـهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلـك الـبلاد وقُتـل كثيـر مـن فرسـانهم ورحـل عقبـة إلـى (تـاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبـة بـن نـافع فـي الناس خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها النـاس، إن أشـرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعه الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامـة، وهـم أشـرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظـر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبـا لرضـاه وإعـزازاً لدينه، فأبشرو فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صـادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسـه الـذي لا يـرد عـن القـوم المجـرمين فقـاتلوا عـدوكم علـى بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين(١).

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنـه قد اعتمـد فـي حروبـه علـى السـلاح الأعظـم الـذي فيـه سـر انتصـارات المسـلمين البـاهرة.. ألا وهـو التوكـل علـى الله تعـالى، واستحضـار عظمتـه وجلالـه، ومعيتـه لأوليائـه المؤمنين بـالنصـر والتأييد، فهـو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم بـه أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضـمن ذلـك فإنـه يرحـب باجتمـاع جيـوش الأعـداء؛ ليكـون ذلـك أسـرع فـي هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصـالحين ومـا أعظـم شـبه عقبة بخالد بن الوليد رضي الله عنه، الـذي كـان يُسَـرٌّ ويداخلـه شـعور بـالقوة والتعـاظم - من غيـر غـرور ولا استهانة - كلمـا تضـخم جـيش

---

(١) ابـن عـذاري، البيـان المغـرب، ١/٢٣- ٢٧، السـيد عبـد العزيـز سـالم، المسـلمون فـي الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٥).

الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأس به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به. هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريق من الروم اسمه (جوليان) الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[1].. استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس، حيث

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٦).

حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (إيجلي) التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (إيفران) على البحر المحيط[١]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم اشهد أنني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً[٢].

وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، ابن عذاري، البيان المغرب (١/٢٣-٢٧). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد أذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس(١).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاكر، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام، وكي يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساءً لم يرى الناس مثلهن فقيل: إن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب، والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

هذا الوقت المبكر. يذكر السلاوي أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتان للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين(١).

ويبدو أن أخبارا مقلقة من إفريقية بلغت عقبة فعجل بالعودة إلى القيروان مارا بايغران يطوف، وتارنا، ومنها إلى رباط شاكر، ودخل إقليم دكالة، حتى دخل طنجة، ومنها اتجه إلى المغرب الأوسط، ولما بلغ مدينة طبنة، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر، ولم يستبق معه سوي خمسة آلاف، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولي عليها، ويجعل منها قاعدة حربية لقواته في منطكقة أوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم بجموع هائلة من بربر البرانس، يتجاوز عددهم خمسين ألفا، وقطع بهم على عقبة خط الرجعة، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر بنهاية أجله، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من اتبعه من المسلمين إلى القيروان، ويبقي هو لقتال البربر، فأبي أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل المسلمون عن دوابهم، وكسروا أغماد سيوفهم، ودارت المعركة عند تهودة سنة ٦٣ هـ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين، وأسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوي (٢).

وعلي ما يبدو أن عقبة كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٨).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٩.

الله عز وجل... إلى أن قال: ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله.. اللهم تقبل نفسي في رضاك[1]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة[2]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً وإن هذه التضحية

(١) البيان المغرب، ١/٢٣ - ٢٤، الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.
(٢) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم. الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قِبَلَ لهم به وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً[1]. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبي محن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا ::: وأُترك مشدوداً على وثاقيا

إذ قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت ::: مصارع من دوني تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة[2]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب.

ويَذكر المؤرخون: أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[3]. وهكذا تحقق أمل عقبة وأبي المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا

(١) البيان المغرب (٢٥/١)، الدولة الأموية - ٢ / ٨٠.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥٩١/٢، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.
(٣) البيان المغرب ٢٨/١، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وإنتهاء بالمغرب الأقصى[١].

* * *

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

موسي بن نصير
وطارق بن زياد

من مشاهير أعلام المسلمين

موسى بن نصير وطارق بن زياد

ولد (موسى بن نصير) سنة ١٩هـ/٦٤٠م في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين تسمي (كفر مترى) فتعلم الكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولما كان والده (نصير) قائدًا لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيأت الفرصة لـ(موسى) لأن يكون قريبًا من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة.

وشب موسى وهو يشاهد جيوش المسلمين تجاهد في سبيل الله، لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعد لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلد سيفه، فنظر إليه، وأطال النظر، وتمنى أن يكون مثل أبيه يجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لينال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو (قبرص) التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ؛ فنجح في غزوها، وبنى هناك حصونًا، ثم تولى إمارتها، وفي سنة ٥٣هـ (٦٧٣م)، كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة (رودس) التي انتصر المسلمون فيها.

وتمر الأيام والسنون ويتولى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحين موسى بن نصير الفرصة ليحقق أحلامه وطموحاته، ففي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه (عبد العزيز) وصديقه (موسى بن نصير)

ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عين ابنه (عبد العزيز) واليًا، وجعل موسى بن نصير وزيرًا له.

وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سره، ووزيره الأول، يساعده في حكم مصر، حتى ازدادت خبرة موسى في شؤون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولى الخلافة بدلاً منه ابنه (عبد الملك) وكان عبد العزيز بن مروان يشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة مما جعله يخص موسى بالحفاوة والتكريم.

وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يخبره فيها بأنه قد عين أخاه بشر بن مروان واليًا على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيرًا يساعده على إدارة الولاية ورئيسًا لديوان العراق، ومكن الله لموسى، وثبت أركان وزارته، فلم يمضِ وقت طويل، حتى عين الخليفة أخاه بشرًا على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة ليدير شؤونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عَيَّنَه صديقه عبد العزيز بن مروان واليًا على شمال إفريقية بدلاً من حسان بن النعمان الذي غضب عليه عبد العزيز.

لما عزل حسان بن النعمان، تولي موسى بن نصير على إفريقية بامر عبد العزيز بن مروان، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصا لها، وكان موسى بن نصير قائما في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفا لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسى مولي عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد

العزيز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقية [١]،... لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية وليَّ مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٥.

سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١ - عتق بعض السبايا:كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢ - تطبيق مبدأ المساواة:في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً، وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

٣ - التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤ - تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥ - سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو

موسى ابن نصير سنة ٩٥هـ.

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة[١]، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام.

وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية، بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

هذين القائدين العظيمين[1].

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب إسبانيا ليتحقّق بذلك من أمرين: أولهما أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في إسبانيا، وثانيهما: أن يعرف مِن المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب إسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال إسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف ابن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمائة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢هـ يوليو ٧١١م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل إسبانيا الجنوبية، حيث درس تحصيناتها وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦ - ٤٧، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

(١).

فقدّم تقريرا مفصّلا عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال إسبانيا، وقد أكّدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يوليان عن انهيار الأحوال في إسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعا من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوّة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب إسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لوذريق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد

هذا إلى أن يوليان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق، وأن المؤامرة التي دبّرها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظّم لإسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يوليان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لوذريق، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظّم لإسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢١٦.

من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتّى الجهات، وهو القيام أوّلا بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفّقة، وأكّد بُعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقا هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيرا بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى بن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكلّف موسى ابن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى إسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول

الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى ابن نصير، وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتّسع لنقل أفراد الحملة مرّة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢هـ (٧١١م)[١].

وبادر طارق بن زياد بتحصين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب إسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبتة قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

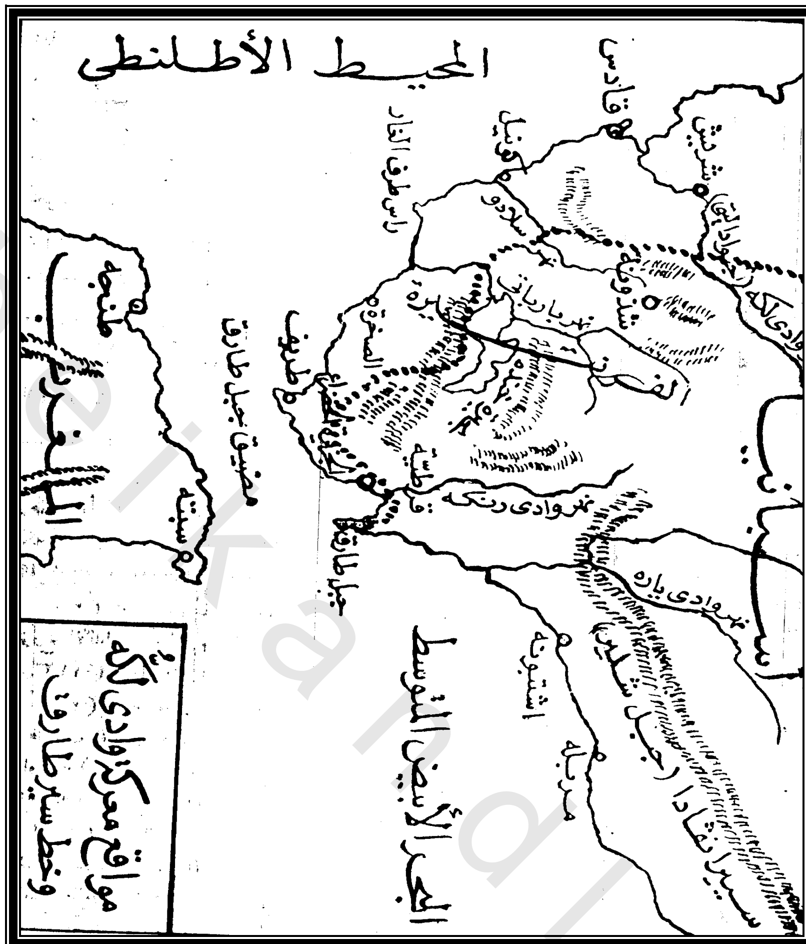
وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في إسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لوذريق وتتحيّن الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوذريق إلى أقصى شمال إسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لوذريق يأخذ معظم جيشه

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ - ٩٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

معه، وأصبح جنوب إسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها؛ ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرّت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوذريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوذريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لوذريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدّر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم كما راجت الإشاعات بذلك، ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا يدا واحدة، ولكن أعمال لوذريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّا للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوذريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوذريق، وزحف لوذريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد [١].

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٩.

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب إسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكة، وعند وادي بكة عرف طارق ابن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة



استطلاعية في أرض إسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرّة واحدة على سفن الأسطول العربي إلى إسبانيا، ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: (أيها الناس!، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصبر

والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفة الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله

معكم ومفيدكم - تبوؤا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وها أنا ذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحملتي " (١)
.

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيرا كبيرا في نفوس جنوده ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوذريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق، ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛ إذ جلس لوذريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثا بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثّوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوذريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوذريق.

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوذريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوذريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوذريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوذريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ (١).

وأحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكة دويا هائلا في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهالت عليه من المغرب،وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخري، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠.

الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في إسبانيا، وكان السبب في هذا التطوّر الجديد هو ما بلغ طارقا من أن أنصار لوذريق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدءوا يجمعون صفوفهم مرّة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لوذريق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحمي ممتلكاته بجنوب إسبانيا، على حين انطلق بنفسه سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكّن أتباع لوذريق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاؤوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط آثروا تجنّب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلى بأغلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقا اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فآثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها[1].

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٨، ٢٧٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٧، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٤، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨.

يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقّق، ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة، هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدّد المسلمين في إسبانيا هو القائد يوليان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين إسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغّلهم في البلاد، واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمّعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يوليان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقا آثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلّف يوليان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى إسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكوّن من ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوّة الشكيمة وشدّة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، وغادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسّم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رمضان عام ٩٣هـ (يونيه ٧١٢م)

كـان موسـى بـن نصـير قـد غـادر المغـرب ووصـل إلـى الجزيـرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجدا وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند واطمأنّ على سلامتهم وحسن ترتيبهم[١].

وفي تلك الأثناء أسرع يوليان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أوّلا على المعاقل التي تركها طارق والتي باتت خطرا يتهدد المسلمين، وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. وردّدت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسةً لطارق ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمّم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقا تصوير القائدين المختلفين، وأنّ كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمدّ طارقا بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يوليان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقا على ما تم على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص ١٢٤.

على مغانم؛ لأن توزيع الغنائم وغيرها من ممتلكات القوط كان هو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفزعه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقّق؛ بسبب تركه الكثير من المعاقل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أوّلا على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدّد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلا على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحّة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارقولو كان موسى بن نصير يقصد من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسى جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتتح مدن الغرب، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل على شيء فعلي أن موسى كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقا لخطة رسمها هو وطارق ويوليان، ولوكان موسى يضمر في نفسه شرا لطارق، مدفوعا في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من زول طارق إلى الأندلس، ولما سلك طريقا غير الطريق الذي سلكه من قبل، ولكان أسرع إلى لقائه كف يده، بدلا من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية وماردة، ولبلة، وباجة [١].

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٢.

القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيّدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوربا في العصور الوسطي، ومن ثم أخذت إسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوربا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهيّأ لسكان غرب أوربا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطي إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لإسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لإسبانيا في رجب عام ٩٢هـ وتم في ذي القعدة عام ٩٥هـ.

ويلاحظ أن العرب أطلقوا اسم الأندلس على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

وبعد أن تمكن موسى بن نصير وطارق بن زياد من توطيد أركان الدولة الإسلامية في الأندلس جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابلته شخصيا في

دمشق فاختار موسى بن نصير مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعيّن ولده عبد العزيز واليا على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبته طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام ٩٥هـ (٧١٤م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم، وابن قتيبة، وابن القوطية، والمراكشي، وابن عذارى، وابن خلكان، والمقري، وابن الأثير، ويقال: إن موكب موسى بن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم[١].

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطئ في الحضور إلى دمشق؛ لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر[٢].

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.
(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

وَدخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام ٧١٥م جمادى الأولى عام ٩٦هـ، أي: قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوما، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبى إلا أن يخرج إلى المسجد متحملا لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفّر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلا من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوافرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاؤوا يقدمون الولاء والطاعة لأمير المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدّمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في

صنعها فنسبها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

وكان مما قدّم للخليفة الدر والياقوت أكيالا والسيوف المحلاة بالجواهر والتيجان الذهبية المرصّعة بالحجارة الثمينة وآنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفا له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح [١].

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوربا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى ابن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

تكـن الظـروف مواتيـة لنجاحـه مثلمـا كانـت مواتيـة وقتهـا، فمملكـة الفرنجـة كانـت مشـغولة وقتهـا بصـراعاتها مـع الممالـك الأخـرى ولـم يكـن هنـاك كيـان سياسـي واحـد فـي أوربـا كلهـا يعـادل قـوة الدولـة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوربا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب(١).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى ابن نصير، فبعضهم قائل إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية (٢).

- **خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:**

... تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (٥٤/١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (٣ / ١٥٩).

(٢) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦١).

غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته، ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعيًا جليلاً كموسي بن نصير، أسس ملكًا من عدمه، وقضي سني حياته مجاهدا في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولو كان سليمان فعل ذلك لكان أولي به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن سليمان بن عبد الملك كان يصطحب موسى بن نصير معه في نزهاته [(١)]، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقُر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأَوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبة، فأُوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور [(٢)] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم

(١) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٧.

(٢) التور: الإناء.

المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة[١].

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العُلا، حاليا) أواخر سنة ٩٧هـ وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[٢].

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله على ابن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب (رياض النفوس) أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلي يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم على بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم،

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤٩٩/٤).

(٢) المقري، نفح الطيب، (١١/٤)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

وأمر بالكتاب فقرئ فهنئ بذلك، وكان على بن رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا على لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاًَ. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جواري عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين [١].

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦٤).

تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب[1]، كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطئتها قدماه وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوروبية جميعها بصيغها محرفة تحريفا بسيطا.

ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهّد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أميرا على سبتة نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانيا هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال: إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطرانا على طليطلة والأندلس،وتوفي إيفا عن ابنة تدعي سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلى دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك،

(١) المقري، نفح الطيب، ٣/١٣ - ١٤، فاتح الأندلس طارق بن زياد صـ٤٥، ٤٦. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٦٥.

فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسي ابن مزاحم، وعادت إلى الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية [١].

* * *

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ / ٢١٣، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٥.

عبد الرحمن الغافقي

من مشاهير أعلام المسلمين

عبد الرحمن الغافقي

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميرا، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلا، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي يعمل يذكر، حيث أقام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي (١).

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلي بلاءً حسنًا في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هذيمة المسلمين أثرا عميقا في نفسه، ولذلك كان تواقا لمواجهة الفرنجة، راغبا في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلى جانب

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

صفاته السابقة معروفا بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق على آخر، ولا يتعصب لعنصر على آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية [١].

عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي واليا على الأندلس مرتين، الأولى في عام ١٠٢ هـ - ٧٢١ م، لمدة عام، والثانية من قبل والي أفريقيا مؤيدا من الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر عام ١١٢ هـ وفي أوائل عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ هـ.

ولما تولي عبد الرحمن الأندلس الولاية الثانية رأي ضبط البلاد أولا ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضي عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ إن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية [٢]

ولعل أهم المعارك التي خاضها عبد الرحمن الغافقي في تاريخه الجهادي هي معركة بلاط الشهداء [٣] - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤١.
(٣) بلاط الشهداء.
هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و(بواتية) في الشمال الغربي من فرنسا قرب نهر (اللوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.

نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور [(١)] وبواتييه [(٢)] حوالي ٣٢٣ كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها.

فبعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلى مدينة بوردو[(٣)]، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيتانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان على نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيتانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتييه ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخري قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، وتتمتع

---

(١) تور tours.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(٢) بواتيه.poitiers

مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الوقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٣) بوردو bordeaux.

مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة قليم (جيروند) في فرانسا تقع عند مصب نهر (الجارون lajaranne) الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازيا فرانسا سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وإنسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد إستنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدته، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها (١).

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما إستطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلى حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء على ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ إن عبد الرحمن الغافقي فضل على إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو (٢).

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد استولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيء على الجيش الإسلامي ن وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسةو وشدد المسلمون حملتهم على جيش الفرنجة حتى كادوا يقطفوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلى الجيش تنظيمه، غير أن سهمًا أصابه من الأعداء فسقط شهيدًا في أرض المعركة، ولما رأي المسلمون قائدهم صريعا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الللیل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد بات الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين، لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كمين نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فآثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو

الشمال معتزا بما أحرزه من انتصار على المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي [١].

في الحقيقة أنه على الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصّلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطبا إياهم: ما جئنا من أجل هذه الغنائم، وما جئنا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغما عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كلّ ينظر إلى ما بيد الآخر، وكلّ يريد الأكثر، يقول العرب: إنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في= الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبدًا بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك،وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها، فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفا من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنينًا جديدة{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] فالمسلمون لم ينتصروا أبدًا بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصرا دقيقا لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفا.

وفي رواياتهم يقول: الأوروبيون متخوفون أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعا، ولدُرِّس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران إن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا

وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوروبيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتتبع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم، وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

وقفة مع بلاط الشهداء:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥} [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» (١).

فسنة لله تعالى في خلقه: أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم أيضا كما أهلكت هذه الأمم السابقة{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو العنصرية والعصبيّة القبليّة التي كانت بين العرب والبربر في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات، ودخلت فرنسا بلاد الجزائر، واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلاليّة منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا

(١) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر: حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق، فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيّرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذْكي الروح البربريّة في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقية وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية

ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي تجعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

عبد الرحمن الداخل

من مشاهير أعلام المسلمين

عبد الرحمن الداخل [صقر قريش]

بعد سقوط الدولية الأموية، وانتصار العباسيين على الأمويين في موقعة الزاب في ١١ من جمادي الآخرة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م، أخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيثما وجدوا وحلوا، وأعملوا السيف قتلا وتنكيلا لكل من كان مؤهلا من الأمويين لتولي الخلافة، فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء (الأحفاد) إلا قلة ممن لم تصل إليه سيوفهم، فقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) بتتبع بني أمية وقتلهم والقضاء عليهم، ولذلك تفرقوا في في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش بني العباس لهم.

ولكن هذه المطاردة الدموية لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من أيدي الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ في أرض أخري،وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتي من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك كان من القلة التي لم تصلهم سيوف العباسيين، وكان عمره وقت حدوث النكبة تسع عشرة سنة فقط، وكان يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها مولده في سنة ١١٣هـ / ٧٣١م، وقيل بل مولده بالعليا من أعمال تدمير، وتوفي أبوه معاوية شابًا فتيًّا أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة ١١٨هـ فكفله وإخوته جدهم هشام [١]، ولما انهار صرح الخلافة

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

الأموية، وأمعن الظافر في مطاردة بني أمية، فر عبد الرحمن وأخ صغير له لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، وكلاهما مطلوبي الرأس من قِبَل العباسيين.

في العراق كان عبد الرحمن بن معاوية يجلس في بيته إذ دخل عليه ابنه ابن الأربع سنين يبكي فزعًا، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضًا معتزلاً في الظلام في ركن من البيت من أثر رمد في عينه، فأخذ يسكن الطفل بما يسكن به الأطفال إلا أن الطفل ظل فزعًا مرعوبًا لم يسكن، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود (رايات الدولة العباسية) خارج البيت، وكانت تعم القرية جميعها، فعلم أنّه مطلوب، رجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه الوليد بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأن العباسيين لم يكونوا ليقتلوا النساء ولا الأطفال، ولكن كانوا يقتلون كل من بلغ وكان مؤهلاً للخلافة.

يقول المقري: "... إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجر وغياضٍ، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة [(١)]، فمما حكي عنه أنه قال: إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذٍ ابن

(١) نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمور من الحدثان والملاحم، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن بن معاوية وأنه محيي دولة بن أمية في الأندلس بعد زوالها في المشرق يقول ابن عذاري: ".. حدث عبد الرحمن قال: دخلت الأندلس وأنا أضبط جلية مسلمة بن عبد الملك، فإنه أتي جدي هشاما يوما، فوجدني صبيا عنده، فأمر جدي بتنحيتي عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية، ومحيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزل أعرف لي مزية من جدي بعد. البيان المغرب، ٢ / ٦١، وراجع أيضا: أخبار مجموعة: ص ٥١ ـ ٥٢ وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب.

أربع سنينٍ أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة [١]، فضربت بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن... " [٢].

ثم فرعبد الرحمن هاربا إلى ناحية الفرات، وحل هناك ببعض القري واختفي بها حينا يدبر أمره، ولكن دل عليه رجل، مما جعل جنود الدولة العباسية تستقصي خبره وتحاول القبض عليه، فبادر عبد الرحمن بالفرار هو وأخوه باتجاه نهر الفرات، وعند الفرات وجد عبد الرحمن بن معاوية وأخوه القوات العباسية تحاصر النهر، فألقيا بأنفسهما فيه وأخذا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون أن ارجعا ولكما الأمان، حينها كان الوليد بن معاوية أخو عبد الرحمن بن معاوية قد أجهد من السباحة، فأراد أن يعود، فناداه أخوه الأكبر ألاَّ تعد يا أخي وإلا فسيقتلوك، فرد عليه إنهم قد أعطونا الأمان، ثم عاد راجعا إليهم، فما أن أمسك به العباسيون إلا أن قتلوه أمام أعين أخيه، عَبَر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر من شدة الحزن على أخيه ابن الثالثة عشرة.

يقول المقري - على لسان عبد الرحمن بن معاوية -: "...، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعةً حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما

(١) الرايات السود شعار الدولة العباسية الجديدة.

(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

يصلح لسفري، فدلّ على عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخي، إليَّ إليَّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الإنقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافةً، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضةٍ أشبة، فتورايت فيها حتى انقطع الطلبُ... " (١)

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، أنفذتهما إليه أخته أم الأضبع بشيء من المال والجوهر، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعي راح، وأقام لديهم طويلاً يرقب الأحداث، وقد كانت إفريقية في ذلك الوقت مطمح الخوارج والمغامرين، وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد انتزعها لنفسه سنة ١٢٧هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس ودخل في طاعتهم، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشي على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية فطارد اللاجئين منهم إليها، وقتل ولدينن للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، واعتقل آخرين وصادر أموالهم، خوفا من نبوءة يهودي قد تنبأ بظهور دولة أموية في الأندلس،وكان في بلاط عبد الرحمن بن حبيب يهودي عالم بالحدثان،

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

قد صحب مسلمة بن عبد الملك، قد ذكر لابن حبيب أنه يغلب على الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له: عبد الرحمن له ضفيرتان، ولما ظهر عبد الرحمن حاول القبض عليه وقتله حتى لا تتحقق النبوءة (١)، لا سيما وأن عبد الرحمن بن معاوية من أمراء بني أمية أصحاب الحسب والنسب وسادة العرب وأشرافهم، الذين أخذوا يفدون على إلى إفريقية لتطرفها وبعدها عن الخلافة العباسية وهو يخاف على 'مارة إفريقية والأندلس من أمراء بني أمية، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصي، وتجول حينا في تلك الأنحاء، ولقي كثيرا من الصعاب والخطوب، وكان يري الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة. وأقام حينا مختفيا عندد شيخ من شيوخ البربر يدعي وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناته على شاطيء البحر، ولحق حينا بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها (٢).

يقول المقري - على لسان عبد الرحمن بن معاوية -: "... ثم خرجت أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية... وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدراً، ومولاه سالماً، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة ابن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن،وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويورثها

(١) أغلب الظن أن أمثال هذه القصص ملفقة، وأن الغرض الأساسي منها هو تمجيد البطل، ونسب قصص ونبوءات خارقة له لتمجيده وإعلاء شأنه. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٠.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٠ - ١٥١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٧٧ - ١٧٨.

عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غلبت عن تركه إنه لهو. وثقل فل بني أمية على بن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع اسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى،...

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قومٍ من زنانة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بنيٍ أمية وشيعتهم بها (١)

وظل عبد الرحمن بن معاوية يتحين الفرص للعبور إلى الأندلس والسيطرة عليها، حتى واتته الفرصة بالصراع الذي دب بين اليمنية والمضرية، فبعث بدرا مولاه إلى الأندلس لسبر غور شئونها ودراسة أحوالها وكيفية الولوج إليها والسيطرة على مقاليد الأمور بها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة من كور غرناطة) وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بني أمية، وكانت رياسة الأمويين (او المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه، فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧.

الصميل مودة وصداقة، فكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزما عن سرقسطة وفي نفسه مراره من يوسف لأنه قصر عن غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصميل أبدي فتورا وترددا، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من إبنة يوسف، وأن ينزل آمنا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة، وكان الصميل في الواقع يحرص على أن تبقي السلطة ليوسف، لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا في بث دعوتهمتا فيها، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر، وبث دعاتهما في أنحاء الأندلس، يدعوتن إلى تأييد عبد الرحمن بن معاوية. وعاد بدر إلى عبد الرحمن الأموي على مركب خاصة جهزها له أبوعثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضي إليه بنتائج الرحلة، فاستبشر عبد الرحمن وعبر البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب (١)، وذلك في ربيع الأخر سنة ١٣٨هـ / سبتمبر ٧٥٥م فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرش (٢)، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه. وقد أعد للأمير مايصلحه من المركب والملبس والمنزل فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس منكل مكان إليه (٣).

يقول المقري عن تلك الأحداث: "... كانت الموالي المروانية

(١) المنكب ALMEUNECAR.
ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس، نزل فيها الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) عند دخوله الأندلس، وهي الآن مصيف مدينة غرناطة.

(٢) وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٦، المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦٥، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٢.

المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيقٌ بوارثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبليي عذراً في الظهور عليها، ويعده بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من التراث، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهزإلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقةٍ في أنه لايظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فنمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا. فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقدٌ على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيفنا، وصرفنا الأمر عنه إليه،

فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة، وقد كانا لقيا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس... وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردهما، وقال: إني روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجلٌ نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلاّ أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسلّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانصرفا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصميم في أمره، ويئسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهييج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات مادبّ به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام، قال: وما كنيتك؟ قال: أبو

غالب، فقال: الله أكبر! الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن. وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صِلاتٌ على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم، حتى حلوا بساحل إلبيرة في جهة المنكب، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه قرية طرش (١) منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره، وانثال عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمده الله تعالى بقوة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر... (٢).

وفي تلك الأثناء كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في سرقسطة عامر العبدري، والحباب الزهري، فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما، وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولذريته من بعده، ولكنه فوجئ بقدوم عبد الرحمن بن معاوية الأموي إلى الأندلس وتأييد موالي الأمويين والقبائل اليمنية له، يقول المقري: "... وكان خبر دخوله للأندلس قد

(١) طرش (Torrox) على الساحل الشرقي، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.
(٢) نفح الطيب، ٢ / ٦٥.

صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقة رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشين عامراً وابنه، وختره بعدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابلٍ لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه... " (١)

لهذا بدأ يضع يوسف الفهري الخطط للتخلص منه، وقد شاور الصميل في أمره فأشار عليه بالمكر والخديعة ومخادعته وهون عليه أمره، لحداثة سنه، وقال: " هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه والذين سعوا له بما تحب " (٢) وأشار عليه بإغرائه وأن يعرض عليه مصاهرته، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش يعرض عليه أن يزوجه بابنته ويقطعه كورة البيرة (غرناطة) أو كورة رية أو يقطعه ما بينهما، وبعث إليه هدية وشيئا من المال وكتابا طويلا يرغبه فيه بمحالفته. يقول فيه: "... أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا! وبه - جل وعلا! - نستعين عليهم! ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية غبش، حتى عصموا

---

(١) نفح الطيب، ٢ / ٦٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٥، المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦٥.

ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النقض! والله من ورائهم محيط! فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه! أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد! ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدر بك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره![1]

ولكن من حول عبد الرحمن الأموي نصحوه بعدم الاغترار بتلك الوعود الزائفة، قال ابن عذاري: "... قال ابن عيسى: فحدثني تمام بن علقمة أن عبد الرحمن، لما أتاه كتاب الفهري بما فيه وبتزويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه، وإلا حاكمه إلى الله؛ وقالوا له: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون!... "[2].

وفي تلك الأثناء قوي ساعد عبد الرحمن الأموي بعد أن توافت عليه وفود القبائل اليمنة مؤيدة مبايعة له، من أرجاء الأندلس "... ثم انتقل من البيرة إلى كورة رية، إلى شذونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب... "[3].

وفي الوقت الذي كانت دائرة التأييد تزداد اتساعا في بقاع الأندلس لعبد الرحمن الأموي، وبدأت جموع المؤيدين والمتطوعين تلتف حوله، كانت القبائل العربية والبربرية تنفض من حول يوسف الفهري والصميل،وقد وهن جيشه وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقا وضعفا، وبدأ عبد الرحمن الأموي يتحرك بقواته باتجاه قرطبة،

(١) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.
(٣) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.

وخرج يوسف بقواته إلى المصارة [١] في ظاهر قرطبة من الغرب على ضفة نهر الوادي الكبير، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية، في قرية مقابلة تسمي " بلة نوبة " ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة، فلم يأت الضحي حتى مزقت خيل يوسف، وهزم جيشه هزيمة شديدة ونهبت أسلابه، وقتل كثير م وجوه القيسية والفهرية، وفر يوسف صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفر الصميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة، وحمي أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العبث، وصلى الجمعة في الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/ ١٣ مايو سنة ٧٥٦م [٢].

بدأ عبد الرحمن الداخل ينظم الأمور في بلاد الأندلس، كانت هناك ثورات كثيرة جدًّا في كل مكان من أرض الأندلس، وبصبر شديد وأناة عجيبة أخذ عبد الرحمن الداخل يراوض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وبحسب ما يتوافق معها أخذ يستميل بعضها ويحارب الأخرى.

وفي فترة حكمه التي امتدت أربعة وثلاثين عاما متصلة، من سنة ثمان وثلاثين ومائة وحتى سنة اثنتين وسبعين ومائة كانت قد قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيب

(١) المصارة: تنطق في المصادر الأوربية alameda ألاميدة وأصل هذه الكلمة لاتيني وهو almeo أي شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق، والمكان الذي يكثر فيه يسمى (ألاميدية) وهذا الاسم منتشر في إسبانيا ويطلق على المكان الممتد في جنوب غرب قرطبة على الوادي الكبير، وتسميه المصادر العربية المصارة أو المسارة وفيه حدثت الوقعة الفاصلة التي انتصر فيها عبدالرحمن الداخل الأموي على يوسف الفهري وأسس على أثرها الدولة الأموية الأندلسية.

(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٨ - ٤٩، نفح الطيب، ٢ / ٦٥ - ٦٦.

الواحدة تلو الأخرى، ثم تركها وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

وقد حاولت الدولة العباسية جاهدة أن تصل إلى الأندلس وتقضي على عبد الرحمن الداخل ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل. وقيل: إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلاء بن مغيث بولاية الأندلس. فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فانحشر إليه الناس. ولما ظفر به عبد الرحمن بن معاوية، أخذ رأسه، وفرغ وحشي ملحًا وصبرًا، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سفط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السفط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجًّا في تلك السنة؛ فجعل السفط عند باب سرادقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال: (إنا لله! عرضنا بهذا المسكين للقتل! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان!) يعني عبد الرحمن... "[١].

لم يحاول المنصور العباسى أن يُعيِّن على الأندلس أحدًا بعد هذا الذى قُتل، ولم يحاول أن يرسل جيشًا لحربه، بل فَضَّل أن يقر بالأمر الواقع ويعترف له بلقب: " صقر قريش "، فقد أطلق عليه أبوجعفر المنصور هذا اللقب لاعترافه بشجاعته وقوته، فيروى أن أبا جعفر قال يومًا لبعض جلسائه: " أخبرونى من صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذلك أمير المؤمنين الذى راضى الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء (يقصدون أبا جعفر المنصور). قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمعاوية؟قال: لا. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال ما قلتم شيئًا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميّا منفردًا بنفسه فمصَّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودَوَّن الدواوين، ونال ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب

(١) البيان المغرب، ٢ / ٥٢.

حمله عمر وعثمان عليه وذلّلا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بأمره مستصحب لعزمه، فمد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين " [(١)].

وَكَانَ المَنْصُوْرُ يَقُوْلُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُعَاوِيَةَ: ذَاكَ صَقْرُ قُرَيْشٍ، دَخَلَ المَغْرِبَ وَقَدْ قُتِلَ قَوْمُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَضرِبُ العَدْنَانِيَّةَ بِالقَحْطَانِيَّةِ حَتَّى مَلَكَ. لرقي همته وبعد مطمحه [(٢)].

والحقيقة التي لا يمكن إغفالها أنه لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرخون عن عبد الرحمن بن معاوية، وإنا لتعلونا الدهشة ويتملكنا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، أي في سن خريج جامعة في العصر الحديث.

ملَك من السماء، أم ماذا هو؟! لن نذهب بعيدًا، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيّان الأندلسي، ولنعي ما يقوله عنه، يقول ابن حيان مستعرضًا بعضًا من صفات عبد الرحمن الداخل: " ألفى الداخل - عبد الرحمن - الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، فأرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحنّكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرط الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العاد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته،وأخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها.

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مكان النشر بيروت /لبنان، ٤ / ٤٤٨، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ٣ / ٣٣.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥ / ٢٥٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١١ / ٢٤١.

فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور - بصدق حسّه، وبعد غوره، وسعة إحاطته - يسترجح عبد الرحمن كثيراً، ويعد لـه بنفسه، ويكثر ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتـى قريش الأحـوذيّ الفذ فـي جميع شؤونه، وعدمه لأهلـه ونشبه، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقـى همّتـه، ومضاء عزيمتـه، حتـى قذف نفسـه فـي لجج المهالك لا بتناء مجده، فـاقتحم جزيـرةً شاسـعة المحـل، نائيـة المطمـع، عصـبية الجنـد، ضـرب بـين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد لـه عصيّهم، وذلّـه أبيّهم، فاستولى فيها علـى أريكتـه، ملكاً علـى قطعتـه، قاهراً لأعدائـه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتـى كلّ الفتى لا يكذب مادحه. وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الـرحمن هـذا لأبـي جعفـر المنصـور فـي الرجوليـة والاسـتيلاء والصّـرامة، والاجتـراء... علـى الكبـائر والقسـاوة، وأنّ أم كـل واحد منهما بربرية. وكان الداخل يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من النـاس، فيصـل الضـعيف منهم إلى رفـع ظلامتـه إليـه دون مشقة،وكان من عادتـه أن يأكل معـه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلـك من طـلاب الحـوائج أكل معه.

وفـي كتـاب ابـن زيـدون أنّـه كـان أصـهب، خفيـف العارضـين، بوجهه خالٌ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشم، وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرّب وقطع البر والبحر، وأقام ملكاً قد أدبر وحده.

ولمّا ذكر الحجاري أنّه أعور قال: ما أنشد فيه إلاّ قول امرئ القيس:

لكـــن عـــوير وفى بذمّتــــه ::: لا عـــورٌ شـــانه ولا قصـــر

وقال ابن خلدون: وفي " سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أيّاماً، ثمّ انهزم العلاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكّة، فألقيت في أسواقها سرًّا، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه، وقد مرّ ذكر ذلك... وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم، ورجع بالظّفر، وكان في نسته أن يجدّد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنا من أرض دمشق، وقيل: بالعلياء من تدمر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدّهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إيّاها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، وأبو شجاع، وزياد، وعمرو، وقيل: إن بدراً لحقه ولم يخرج معه، فالله أعلم، وخلف من الولد عشرين، ومنهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس،

ويكنى أبا قرّة، فاستتر عنده وقتاً، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهبٍ أنفذته أخته إليه، فلمّا دخل الأندلس واستتبّ أمره به سار إليه أبو قرة وانسوس البربري، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظلّه في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح... " (١).

كان عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئا من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغًا مفوّهًا، شاعرًا محسنًا، سمحًا سخيًّا، طلق اللسان، وكان قد أعطي هيبة من وليّه وعدوّه، وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها، ويصلي بالناس الجمع والأعياد إذا كان حاضرًا، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى.

شخصية تُشخِص الأبصار وتبهر العقول، فمع رجاحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه رحمه الله، ومع شدته وحزمه وجهاده وقوته كان رحمه الله شاعرًا محسنًا رقيقًا مرهف المشاعر.

ومع هيبته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويصلي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينة، فلم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم ودون حراس، حتى خاطبه المقربون في ذلك وأشاروا عليه ألا يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسطوا معه،

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٣١.

ولكن كيف يمتنع عن شعبه وهو المحبوب بينهم والمقرّب إلى قلوبهم؟! ولقد صدق من قال حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ومن شعره قوله، وقد نظر إلى نخلة بمنية الرصافة، مفردة، هاجت شجنه إلى تذكر بلاد المشرق:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ::: تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ::: وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ::: فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ::: يسح ويستمرئ السماكين بالوبل
وغمر الهول كقطع الليل ::: بفتنة الفهري والصميل
وجلت الفتنة في أندلس ::: فأصبحت فريسة المفترس
فأسرع السير إليها وابتدر ::: وكل شيء بقضاء وقدر
صقر قريش عابد الرحمن ::: باني المعالي لبني مروان
جدد عهد الخلفاء فيها ::: وأسس الملك لمترفيها
ثم أجاب داعي الحمام ::: وخلف الأمر إلى هشام
وقام بالأمر الحفيد الناصر ::: والناس محصور بها وحاصر
فأقبل السعد وجاء النصر ::: وأشرق الأمن وضاءت القصر
وعادت الأيام في شباب ::: وأصبح العدو في تباب
سطى وأعطى وتغاضى ووفا ::: وكلما أقدره الله عفا
فعاد من خالف فيها وانتزا ::: وحارب الكفار دأبًا وغزا
وأوقع الروم به في الخندق ::: فانقلب الملك بسعي مخفق
واتصلت من بعد ذا فتوح ::: تغدو على مشواه أو تروح
فاغتنموا السلم لهذا الحين ::: ووصلت إرسال قسطنطين
وساعد السعد فنال واقتنا ::: ثم بني الزهرا فيما قد بنا
حتى إذا ما كملت أيامه ::: سبحان من لا ينقضي دوامه[1]

(١) أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار

فكان له حقًّا أن يأتي إلى هذه البلاد وحيدًا مطاردًا مطلوب الرأس، تجري وراءه قوى الأرض جميعًا، فعباسيون في المشرق، وخوارج في المغرب، ومن بعدهم نصارى في الشمال، وثورات في الداخل، ثم هو يقوم وسط هذه الأجواء بتأسيس هذا البنيان القوي، وهذه الدولة الإسلامية ذات المجد التليد.

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد قال الرازي: "... قام بين يديه رجل من جند قنسرين، يستنجد به، وقال له: يا بن الخلايف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فررنا، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وذهب الحال، وصير إلى بذاك المنال، فأنت ولي الحمد، وربي المجد، والمرجو للرفد. فقال له ابن معاوية مسرعاً: قد سمعنا مقالتك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة وجهك، بتصريح المسألة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم بك خطب أو دهاك أمر، أو أحرقتك حاجة فارفعه إلينا في رقعة لا تعدو ذكيًّا، تستر عليك خلتك، وتكف شماتة العدو بك، بعد رفعها إلى مالكنا ومالكها، عن وجهه، بإخلاص الدعاء، وحسن النية. وأمر له بجائزة حسنة. وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه، وبراعة أدبه... "[(١)].

إنها لتربية ربانية لشعبه، كل شعبه، فهو يريد رحمه الله أن يربط الناس بخالقهم، يريد أن يعلمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه أولاً سبحانه وتعالى، يريد أن يعلمهم أنه سبحانه وتعالى يملكه ويملكهم جميعًا، ثم مراعاة لعواصف النفس الداخلية، وحفظًا لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستر عليك ولا يشمت أحد فيك.

* * *

غرناطة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ، تحقيق: د. يوسف على طويل، ٣ / ٣٥٧ - ٣٥٨.

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣ / ٣٥٧.

المعتمد بن عباد

من مشاهير أعلام المسلمين

المعتمد بن عباد

هو محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي يلقب بأبي القاسم المعتمد على الله حكم إشبيلية وقرطبة وما حولهما، وهو وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور. ولد في باجة بالأندلس وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١هـ وامتلك قرطبة وكثيراً من المملكة الأندلسية.

واتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية، وأصبح محط الرجال يقصده العلماء والشعراء والأمراء، وما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما اجتمع في بابه من أعيان الأدب.

وكان فصيحاً شاعراً وكاتِباً مترسلاً بديع التوقيع له ديوان شعر.

وقيل: هو من ذرية النعمان بن المنذر صاحب الحيرة.

وأصله من الشام من بلدة العريش المصرية، فقد دخل أبوه القاضي أبو الوليد إسماعيل بن قريش إلى الأندلس، ثم برع القاضي في الفقه، وولي القضاء، ثم تملك مدة، وقام من بعده ابنه المعتضد، فساس المملكة بإشبيلية، وبايعوه بالملك في سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة، وكان المعتضد شهمًا، صارمًا، داهية، ذبح جماعة من أعوان أبيه، وصادرهم، وعلا شأنه، ودانت له الامم.

وبلغ من شدة قسوته وجبروته أنه نصب خشبًا في قصره، وعممها برؤوس كبار وملوك، ولذا كانوا يشبهونه بالمنصور العباسي.

وقد حاول ابنه إسماعيل اغتياله، فأخذه، وضرب عنقه، وعهد إلى ابنه المعتمد.

ومن جبروته وعتوه أنه أخذ مالاً لأعمى، فهج وجاور بمكة، فبلغ المعتضد أنه يدعو عليه، فندب رجلا أعطاه جملة دنانير مطلية بسُم، فسار إلى مكة، وأوصله الذهب، فقال: يظلمني بإشبيلية، ويصلني هنا؟! ثم وضع منها دينارًا في فمه كعادة الأضراء، فمات من الغد. وهرب منه مؤذن إلى طليطلة، فبقي يدعو عليه في السحر، فنفذ من جاءه برأسه.

لما توفي المعتضد بن عباد خلفه يوم وفاته ولده محمد بن عباد، الملقب بالظافر، والمؤيد بالله، والمعتمد على الله، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به طوال حياته.

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية فتيًّا في الثلاثين من عمره (١).

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في عهد المعتمد بن عباد، ما كان من وزيره، أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري، وكان هذا الوزير من المعروفين بالأدب والشعر، وكثيرًا ما مدح الوزراء والخلفاء لا سيما بني عباد، وقد لازم المعتمد بن عباد في شبابه، لا سيما عندما عهد إليه أبوه المعتضد بحكم مدينة شلب، ثم لما توفي المعتضد وآل الأمر للمعتمد بن عباد، جعل هذا الوزير في ركابه، وجعل منه ليس وزيره فقط بل ساعده الأيمن في جميع أموره ولم يكن يقدر على فراق طويل، ونال ابن عمار الحظوة والمكانة لدى المعتمد لسنوات طويلة، وأنجز له الكثير من الأعمال المهمة، إلى أن فسد الجو بينهما بسبب تدخل الرميكية زوجة المعتمد، فكان ذلك إيذانًا بنكبته.

وكانت البداية نجاح الوزير ابن عمار والقائد عبد الرحمن بن رشيق، في الاستيلاء على مدينة مرسية من قائدها أبو عبد الرحمن

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٥٩.

بن طاهر، سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م [١] وهنا بدأ النكبة إذ طمع الوزير ابن عمار في حكم المدينة حكمًا فرديًّا بعيدًا عن سلطة المعتمد بن عباد، وبدأ يستقل بالمدينة بعيدًا عن كل سلطة لابن عباد، كما أنه أهمل جانب ابن رشيق الفاتح الحقيقي للمدينة، الذي بدأ يتربص بابن عمار، ويتحين فرصة الوثوب إلى سدة المدينة، واستغل خروج ابن عمار عن مرسية لزيارة بعض الحصون الخارجية، فوثب ابن رشيق واستولي على المدينة، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانته.

ففر ابن عمار إلى بلاط ألفونسو السادس يطلب المساعدة ولكن ألفونسو رفض ذلك الطلب، فرحل إلى سرقسطة وكان أميرها ابن هود الذي توفي فخلفه ابنه المؤتمن سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨١ م الذي أغرى ابن عمار بمهاجمة حصن شقورة مع جماعة من أصحابه، وكان صاحب الحصن رجلاً داهية يدعى ابن مبارك فدعا ابن عمار مع صحبه إلى دخول لحصن، انخدع لحفاوة الاستقبال، فما كان من ابن المبارك إلا أن ألقى القبض عليه في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م.

لما علم المعتمد بن عباد بذلك طلب من ابن المبارك تسليمه ابن عمار لقاء هدية كبيرة من الأموال والخيل، فسلمه لرسل المعتمد وزج به في غياهب السجن، وأخذ ابن عمار يرسل إلى القصائد الوجدانية مستعطفا. وكاد المعتمد أن يطلق سراحه لولا وشاية أعدئه في البلاط وعلى رأسهم الوزير أبو بكر بن زيدون، وأخرجوا للمعتمد قصيدة يعرض فيها باعتماد الرميكية زوجة المعتمد، عندها أقدم المعتمد على قتل وزيره بيده سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٥ م [٢].

وفي تلك الأثناء كانت قوة ألفونسو السادس في ازدياد وغدا

(١) أعمال الأعلام، ص ١٦٠.
(٢) المقري، نفح الطيب، ١، ٤٥١ - ٤٥٢.

ملوك الطوائف يستنصرونه على بعضهم البعض، وكان يخطط للاستيلاء على أملاك ملوك الطوائف الواحدة تلو الأخرى، وكان ألفونسو قد استولى على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، ثم وضع خطته القاضية بالاستيلاء على ملوك الطوائف ويلتهم المدينة تلو الأخرى، ومن ثم بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف وأقواها فوجه رسالة إلى المعتمد بن عباد ملؤها التهديد والوعيد ويطالبه بتسليم أعماله ويحذره من مثل مصير طليطلة ومحنتها، فقد قال ألفونسو في رسالته: "... من الإمبراطور ذي الملّتين الملك أدفونش بن شانجة، إلى المعتمد بالله، سدّد الله آراءه، وبصّره مقاصد الرشاد. قد أبصرت تزلزل أقطار طليطلة، وحصارها في سالف هذه السّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتم بالدَّعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحبالة. ولولا عهدٍ سلف بيننا نحفظ ذمامه نهض العزم، ولكن الإنذار يقطع الإعذار، ولا يعجل إلاّ من يخاف الفوت فيما يرومه، وقد حمّلنا الرّسالة إليك السّيد البرهانس، وعنده من التّسديد الّذي يلقى به أمثالك، والعقل الّذي يدبّر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجلّ.

ولما ورد الكتاب على المعتمد بن عباد استشار وزراءه وخاصته فكان منهم من أرجف وارتعدت فرائصه، خوفًا من ألفونسو السادس ومنهم من رأى ضرورة إعلان الجهاد في سبيل الله ضد ألفونسو السادس، في حين كان رأي المعتمد بن عباد هو محاربة ألفونسو والاستنجاد بالمرابطين في المغرب والاستعانة بهم في قتاله. يقول الذهبي: " فلمّا قدم الرسول أحضر المعتمد الأكابر، وقرئ الكتاب، فبكى أبو عبد الله بن عبد البرّ وقال: قد أبصرنا ببصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة الّعين قوّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذلّ الخلاف، وما بقي إلاّ الرجوع إلى الله والجهاد. وأما ابن زيدون وابن لبون فقالا: الرأي مهادنته ومسالمته. فجنح

المعتمد إلى الحرب، وإلى استمداد ملك البربر، فقال جماعة: نخاف عليك من استمداده. فقال: رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير.

ثمّ أخذ وكتب جواب أدفونش بخطّه، ونصّه:

الــذّلّ تأبــاه الكــرام وديننــا ::: لك ما نــدين بــه مــن البأســاء
سمناك سلماً مــا أردت وبعــد ذا ::: نغزوك في الإصــباح والإمســاء
الله أعلى مــن صــليبك فــادرع ::: لكتيبــة خطبتــك في الهيجــاء
سوداء غابت شمســها في غيمهــا ::: فجرت مــدامعها بفــيض دمــاء
مــا بيننــا إلاَ النّــزال وفتنــة ::: قدحت زنــاد الصّــبر في الغمــاء

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطّاغية الباغية أدفونش الّذي لقَّب نفسه ملك الملوك، وتسمّى بذي الملَّتين. سلام على من اتَّبع الهدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملّتين والمسلمون أحقّ بهذا الاسم لأنّ الّذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملّتكم. وإنّما كانت سنة سعدٍ اتَّعظ منها مناديك، وأغفل عن النّظر السّديد جميل مناديك، فركبنا مركب عجز يشحذ الكيس، وعاطيناك كؤوس دعةٍ، قلت في أثنائها: ليس. ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بصنعٍ وافقك فيه القدر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعد بحربٍ، وكذا وكذا.. إلى أن قال: فالحمد لله الّذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك. ثمّ كتب إلى يوسف ابن تاشفين يستنجده... "(١).

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨هـ - الخامس

(١) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٣٢ / ٢٦.

والعشرين من آيار " مايو " سنة ١٠٨٥م استطاع ألفونسو السادس أن يدخل طُلَيْطِلَة " عاصمة القوط القديمة " ودخلت طُلَيْطِلَة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المُسْلِمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون في طُلَيْطِلَة لتستمرَّ في بلنسية.

وقد أحدث سقوطها دويًّا هائلاً في العالم الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام، حتى وصل الحد ببعض ملوك الطوائف أن أرسل وفودًا لتهنئة ألفونسو بسيطرته على طليطلة، حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بأن أعطاه قردًا احتقارًا له، بينما اعتبر ابن رزين ذلك مفخرة (١). وشعر مسلمو الأندلس بأنهم أيتام على موائد اللئام، وبدأوا بمغادرة الأندلس والمناطق القريبة من سيطرة ألفونسو، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم ::: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ::: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ::: كيف الحياة مع الحيات في سفط (٢)

وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هربًا من الاضطهاد وحفاظًا على دينهم، وشعر بقية مسلمو الأندلس أن الدور عليهم، وأحس ألفونسو بالزهو والافتخار وبدأ يتقدم صوب مدن الأندلس، فشن الغارات على جميع البلاد، ونجح في

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

(٢) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

الاستيلاء على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها [١]، ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصرًا بنصر، فبدأ الضغط على الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية له، ويتوعد بشر العواقب إذا رفض، وبمثل ذلك للمعتمد بن عباد. ومارس ألفونسو مع المُعْتَمِد أنواعًا من الإذلال والتجنى لتخرج المُعْتَمِد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرِّر أفعاله الانتقامية والوحشية [٢].

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأى لم يجد هوى في نفس المُعْتَمِد الذى خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: أنا في هذه الأَنْدَلُس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأَنْدَلُس ليس فيهم نفع، ولا يُرجَى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُلَيْطِلَة

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٨٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طُلَيْطِلَة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصَّة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أَنْدَلُسنا مَن يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى، والله لا يسمع عنى أبدًا أنى أعدت الأَنْدَلُس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المُسْلِمِين مثلما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير[1].

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: "... لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنَّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلُّطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلِّ جهة نارهم، ورويت من دماء المُسْلِمِين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمُسْلِمِين أيسطو هكذا بالحق الإفكُ، ويغلب التوحيدَ الشركُ، ويظهر على الإيمان

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ٦٨.

الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصرُ، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزيَّة التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزَّك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنَّها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومَن فيها من المُسْلِمِين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلَّصت القضية وتضاعفت البلية وتحصَّلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهى من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركبانًا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنَّكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصِّلها ويشرُحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضِّحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابًا، وتكلف المشقة إليك طالبًا ثوابًا، عوَّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسَّلام ".

ثم وجه ألفونسو اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوي ملوك الطوائف، وكان منتظرا منه أن يقوم بحماية الأندلس، ولكن المعتمد لم يفعل ودخل في صراعات داخلية مع ملوك الطوائف الآخرين، أضعفت المسلمين، ثم إنه كان يعتمد في تعامله مع نصارى إسبانيا على مهارته الدبلوماسية - كسائر ملوك الطوائف - أو دفع أذاهم بالجزية، ولما أراد ألفونسو ضرب المعتمد فإنه أراد أن يضرب القوة الرئيسية في صفوف المسلمين فإذا استطاع القضاء عليها يسهل عليه السيطرة على بقية ملوك الطوائف،

ولما بدأ في تنفيذ خطته القاضية بالسيطرة على الأندلس من أيدي المسلمين، فقد راعى شروط المعاهدة المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه امورا مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلى له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها [١] وإمعانًا في الإذلال والتجني طلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربى كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودى ابن شالب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقلَّ أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمُعْتَمِد وقال: " لا تعتقدونى بسيطًا لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدنًا ". فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلاميَّة وصلب اليهودي، وقتل البعثة[٢].

وقد أثار هذا حفيظة ألفونسو ويكون قد تحصل على ما يريده، وكان ألفونسو متجهًا لحصار قرطبة فلمَّا وصل خبر البعثة أقسم بآلهته ليغزون المُعْتَمِد في إشبيلية، وحرَّك جيوشه نحو غرب الأَنْدَلُس فدمَّر كل القرى والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر يدمِّر ويخرِّب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأَنْدَلُس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: هذا آخر بلاد الأَنْدَلُس قد وطئته [٣].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٥.
(٣) الاستقصا، ١ / ١١٠، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٧.

ومِن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: أمَّا بعد.. فلا خفاء على ذى عينين أنَّك أمير المُسْلِمِين بل الملة الإسلاميَّة، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأَنْدَلُس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الدِّيار وأهتك الأستار، وأقتل الشبَّان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله - تعالى - فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا، وبلغنا عنك وأنَّك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلى ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتنى فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لى اليد العليا عليك، واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة.

ولما قرئ الكتاب على الأمير يوسف بان له غروره وعدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراها ألفونسو في ساحة المعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة، ثم أمر بالجواب على ظهر الكتاب ذاته: " ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله - تعالى - " وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ::: ولا رسل إلا الخميس العرمرم (١)

وعاد ألفونسو إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المُعْتَمِد بن عَبَّاد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعْتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعْتَمِد

(١) الحلل، ص ٢٧، أعمال الأعلام، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٩١، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٠٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

هذه الإهانة فردَّ: " قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك " (١).

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سَرَقُسْطَة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طُلَيْطِلَة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأَنْدَلُس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًّا هزموا أربعمائة من المرية. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر، الخضوع للنصارى أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هو المرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون (٢).

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِين، وبالرغم من أن هذا الرأي قد وجد معارضة كبيرة من كثير من ملوك الطوائف وكثير من وزراء المعتمد بن عباد وخاصته وحتي من ابنه وولي عهده الرشيد، ولكن المعتمد بن عباد كان ذو عزيمة كبيرة وبصيرة بأحوال الأندلس. ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: " بسم

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠، الحلة السيراء، ص ٣٥١، الاستقصا، ١ / ١١٣، المقري، نفح الطيب، ٦ / ٩١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، الاستقصا، ١/ ١١٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٩.

الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدِّين ومحيى دعوة الخليفة، الإمام أبى يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشَّاكر لأجلالها المعظِّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وإنَّه أيَّد الله أمير المُسْلِمِين ونصر به الدِّين، فإنَّا - نحن العرب - في هذه الأَنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوبًا لا قبائل، وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا، وكثر شُمَّاتُنا، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلَة ووطئها بقدمه، وأسر المُسْلِمِين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتى إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم " (١).

وإلى جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثُ الأمير على

(١) الصلابي، دولة المرابطين ص (٧١).

إنقاذ الأَنْدَلُس.. [(١)].

أطلع الأمير يوسف حاشيته وخاصته ووزراءه على المحادثات لاستشارتهم بالأمر وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصارى، فأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أَنْدَلُسى الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِد بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكى تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له. واقتنع الأمير يوسف برأى وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتنى على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الكتاب التالى نصُّه: " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلِّم.

من أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِد على الله أبى القاسم مُحَمَّد بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشَّرع، وفى كتاب الله تعالى، وإنَّه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلِّم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكى يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك، وابعث إلينا بعقودها

(١) انظر: الحلل، ص ٣٠.

ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى " [١].

ثم جمع المُعْتَمِد القاضى والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضى بن المُعْتَمِد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهناً بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِد تجهَّز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغبًا في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أمانًا لأهل الأَنْدَلُس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: " أنا أول مُنتَدَبٍ لنصرة هذا الدِّين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي " وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحى المغرب يتوافدون على قيادتهم الربَّانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفَّذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأَنْدَلُسيين، لأنَّهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثَّر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى ألفونسو وهو محاصر سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز هذه الفرصة، وطلب من المستعين بن هود حاكم سَرْقُسْطَة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، معتقدًا أن المستعين لا علم له بالعبور، ولكن الخبر السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها،وكأنه رحمة نزلت من السماء على المستعين، الذي رفض إعطائه درهما واحدا خشية أن يتقوي بها على قتال المسلمين [٢].

توجه ألفونسو إلى بطحاء الزِّلاقَة وخيم على بعد ثلاثة أميال من

(١) الحلل، ص ٣٢ - ٣٣.
(٢) روض القرطاس، ص ٩٣، الاستقصا، ١ / ١١١.

الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون[١].

كانت ألأحوال تنذر بأن المعركة سوف تكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت قوى النصرانية ذروة قوتها، تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، في المقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيي موات الآمال فيهم.

وقبل بدء المعركة الفاصلة وجريًا على سنة الإسلام في القتال، أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهذا من مقتضيات الشريعة الإسلامية في قتال أهل الكتاب، ومما جاء في كتاب الأمير: بلغنا يا أذفونش أنَّك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيَّت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك{وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ} [غافر: ٥٠] [٢].

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: " أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟ " [٣] وقال لرسول الأمير يوسف: " قُل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك " [٤]، وإنَّنا سنلتقي في ساحة المعركة، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب[٥] والحرب خدعة فقد حاول ألفونسو حامى حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المُسْلِمِين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: " إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنَّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون

(١) روض القرطاس، ص ٩٤، ابن الكردبوس، ص ٩٣.
(٢) الحلل، ص ٣٥، الروض المعطار، ص ٩٠، الحلة السيراء، ص ٣٥٤، نفح الطيب، ٦ / ٩٧، الاستقصا، ١ / ١١٦ ابن خلكان، وفيات الأعيان (١١٦/٧).
(٣) الحلل، ص، ٣٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٧٨.
(٤) روض القرطاس، ص٩٤.
(٥) الأندلس في عصر المرابطين، ص (٨٢).

اللقاء يوم الاثنين " فكان جواب الأمير يوسف: " اتركوا اللعين وما أحب " [١].

ولكن المعتمد تنبه لهذه الخدعة وقال للأمير يوسف: " إنها حيلة منه وخديعة إنَّما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النَّهار " [٢].

واستعد المُسْلِمُون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المُعْتَمِد صائبًا صحيحًا، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذى يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المُسْلِمِين من الأَنْدَلُسيين فتصدَّى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف ابن تاشفين على عجل لدعم الأَنْدَلُسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأَنْدَلُسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأَنْدَلُسيين وقومه " المُعْتَمِد بن عَبَّاد وأهل إشبيلية " وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المُعْتَمِد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المُسْلِمُون في المعركة صبرًا عظيمًا سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المُسْلِمِين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى

(١) الحلل الموشية، ص ٣٦.
(٢) الحلة السيراء، ص ٣٥٤، الروض المعطار، ص ٩٠، نفح الطيب، ٦ / ٩٨ الاستقصا ١ / ١١٦، أعلام الأعلام، تحقيق العبادي، ص (٢٤٣).

الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعتَقِدًا إن هذه هى قوة المُسْلِمِين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبى بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلاميَّة، فتقوَّت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم. وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارِّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنَّه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل، ووجد ألفونسو نفسه محاصرًا من المُسْلِمِين فاضطر للقتال متقهقرًا نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المُسْلِمِين قائلاً: " يا معشر المُسْلِمِين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزِق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة "، وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه[(١)]، وكان فقهاء المُسْلِمِين وصالحوهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدِّين، وفى هذا الجو الرهيب من القتال الذى دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى

(١) الحلل الموشية، ص ٤٢، روض القرطاس، ص٩٥، ابن الكردبوس، ص ٩٣، نفح الطيب، ٦ / ١٠١، الأندلس في عهد المرابطين، ص ٨٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٠٩.

القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسَّرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المُسْلِمِين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذى تابع سيره مع الظلام إلى طُلَيْطِلَة، وصل إليها مغمومًا حزينًا كسيرًا جريحًا بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزِّلاقَة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى، فعمل المُسْلِمُون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العبَّاس بن رميلة القرطبي. وجمع المُسْلِمُون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأَنْدَلُس، وقد عرَّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام (١).

وأرسل المُعْتَمِد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحرِّ من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهى مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: " اعلم أنه التقت جموع المُسْلِمِين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمُسْلِمِين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب

(١) ابن الكردبوس، ص ٩٤، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١١٨، نفح الطيب، ٦ / ١٠٢، الروض المعطار، ص ٩٢ - ٩٥، ملوك الطوائف، ص ٣١٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١١١.

العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المُسْلِمِين والسلام "، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمرى وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين [١].

وفي نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلى الأقل استرجاع مدينة طليطلة.

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذى أربك مُدُن شرق الأَنْدَلُس، متخذين من حِصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزًا لشنِّ الغارات على أراضى المُسْلِمِين.

فعبر المُعْتَمِد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، وتمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأَنْدَلُس يدعوهم إلى الجهاد ولكن ظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف فأيقن أن أمراء الأَنْدَلُس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، فعرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأَنْدَلُس للمغرب.

فعبر الأمير يوسف بقوة ضخمة، عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طُلَيْطِلَة وأرسل فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتحَ غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجى الذى تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيرًا إلى المغرب، واستقرَّ في أغمات

(١) الحلل، ص ٤٤ - ٤٦.

بالقرب من مراكش[١].

وبعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الأفطس لتهنئته بالنصر، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه كذلك، وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، فاستقبل الأمير يوسف هذا الوفد بفتور مظهرا تغيره عليهم، كما اعتقل ابن المنعتصم بن صمادح.

وهنا أخذ الندم المعتمد وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء المرابطين، وقال للمتوكل: " والله لابد له من أن يسقينا من الكأس التي أسقي بها عبد الله بن بلكين " [٢] وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول: انج سعد فقد هلك سعيد.

وحاول المُعْتَمِد بن عَبَّاد والأفطس أن يقيما حلفا من ملكوك الطوائف لمواجهةالمرابطين ولكنهم فشلوا في إقامة هذا التحالف، ولعبت الوشاية دورها في توتر العلاقة بين الأمير يوسف وبين المعتمد ابن عباد، فدعا الأمير يوسف المعتمد للقاء والتشاور فامتنع المعتمد، فطلب الأمير يوسف منه أن يطبق أحكام الشرع، وألا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الأسلام، وأن يرابط في الثغور للذود عن حياض المسلمين، فامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب[٣].

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد مقاومة عنيفة من ابنى المُعْتَمِد اللذين قتلا " المأمون ويزيد الراضي " ووصل المرابطون إلى ضواحى طُلَيْطِلَة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة،

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٥٠ - ١٦٠، الكامل، ١٠ / ١٥٥، نفح الطيب، ٦ / ١٠٧، الاستقصا، ١ / ١٢٠.
(٢) الحلل، ص ٥١ - ٥٣.
(٣) الحلل، ص ٥٢، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٦٩.

واشتدَّ الخوف بالمُعْتَمِد بن عَبَّاد الذى أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم [١].

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ١٠٩١/٤٨٤م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدَّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصرًا كبيرًا مبينًا، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبى أبكر يقود الجيش المحاصِر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م، واستسلم المعتمد بن عباد للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه هو وأهله، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة [٢].

ولكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد في مارتلة، والراضي في رندة، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما، وكان وضع الراضي جيدًا فرندة محصنة ولم يجرؤ المرابطون على التقدم نحوها، أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لإجباره على مخاطبة ولديه بالاستسلام وإلا كان الموت نصيب الأسرة، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية " وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما " ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذي، وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما، ولكن

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٦٩.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧، المعجب، ص ١٤١، روض القرطاس، ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٥ / ٣٠.

القواد المرابطين تنكروا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه، فقد قبض القائد جرور على الراضي وقتله غيله وأحضر جسده، أما المعتمد فقد استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقي عليه حيا بعد مصادرة جميع أملاكه (١).

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثا ابنيه - اللذين قتلا بين يديه صبرا - بقصائد رقيقة حزينة:

يقولون صبراً! لا سبيل إلى الصبر ::: سأبكي، وأبكي ما تطاول من عمري
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة، ::: كما بيزيد، الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدار عني، ولم أمت ::: فأدعى وفيًّا، قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى ::: إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
أبا خالد أورثتني البث خالداً ::: أبا نصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرةً ::: تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو (٢)

قال أيضاً فيهما يندبهما بما يوقد الضلوع، ويسكب الدموع:

يا عين عيني أقوى منك هتانا ::: أبكي لحزن وما حملت أحزانا
ونار برقك تخبو إثر وقدها ::: ونار قلبي تلفى الدهر بركانا
نار وماء صميم القلب أصلهما ::: متى حوى القلب نيراناً وطوفانا
ضدان ألف صرف الدهر بينهما ::: لقد تلون في الدهر ألوانا

(١) المعجب، ص ١٤٣، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) المعجب، ص ٤٣. وعني ابنه سراج الدولة أبا عمرو عباد بن محمد قتيل بن عكاشة بقرطبة. وأبو خالد هو ابنه يزيد الملقب بالراضي، وهو الذي قتله قرور اللّمتوني غدراً برندة. وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون، وقتل أيضاً بقرطبة في آخر دولتهم. وإخوتهم أبو الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد، حمل مع أبيه إلى العدوة، وأبو بكر عبد الله الملقب بالمعتدّ، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة، وأبو هاشم المعلّى زين الدولة، وكلهم لجاريته هذه الحظية عنده الغالبة عليه " اعتماد "؛ وهي أم الربيع، وتعرف بالسيدة الكبرى، وتلقب بالرّميكيّة نسبة لمولاها رميك ابن حجاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد.

بكيت فتحاً فإذ ناديت سلوته ::: لقد تلون في الدهر ألوانا
يا فلذتي كبدي يأبى تقطعها ::: عن وجدها بكما ما عشت سلوانا
لقد هوى بكما نجمان ما رميا ::: إلا من العلو بالألحاظ كيوانا
مخفف عن فؤادي أن ثكلكما ::: مثقل لي يوم الحشر ميزانا
يا فتح قد فتحت تلك الشهادة لي ::: باب الطماعة في لقياك جذلانا
ويا يزيد لقد زاد الرجا بكما ::: أن يشفع الله بالإحسان إحسانا
كما شفعت أخاك الفتح تتبعه ::: لقاكما الله غفراناً ورضوانا
مني السلام ومن أم مفجعة ::: عليكما أبداً مثنى ووحدانا
أبكي وتبكي ونبكي غيرنا أسفاً ::: لدى التذكر نسواناً وولدانا (١)

وكانت خاتمة المُعْتَمِد بن عَبَّاد مأساة حزينة، وكأن قتل أبنائه لم يكف، فكبله المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته على ظهر سفينة، وخرج الناس على ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات حيث ألقي بهم في السجن، وسيم المعتمد بأشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس.

وفى طريقه إلى منفاه تألم المُعْتَمِد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبدَّلت من ظل عزِّ البنودِ ::: بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سنانًا ذليقًا ::: وعضبًا رقيقًا صقيل الحديد
وقد صار ذلك وذا أدهما ::: يعض بساقى عض الأسود

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وأسرته قاسية جدا لم يسلكها أحد قبله ولا بعده، فلم يجر عليهم من الطعام إلا ما يقيم أودهم، مما دفع بنات المعتمد الأميرات إلى خدمة الناس، فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها على الأهل. وحز ذلك في

(١) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٧١.

نفس المعتمد وتألم من حالته الحاضرة فكان عزاؤه الوحيد الشعر، وبقي المعتمد سجينا في أغمات إلى أن وافته المنية فيها في ١١ شوال ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م [(١)].

ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذا الأخير واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة ألفونسو ضد المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، إضافة إلى ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية كان يمكن استخدامها في الحرب مع الأسبان، بدل استنزافها داخليًّا مما أوغر صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية، التي أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف [(٢)].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي، أما تعلمنى مُسلمًا ::: أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شرابٌ، واللحم قد ::: أكلته ولا تهشم الأعظُما
يُبصرنى فيك أبو هاشم ::: فينثني، والقلب قد هُشما
ارحم أخياتٍ له مثله ::: جرَّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لما تماسكت الدموع ::: وتَنْهنه القلبُ الصديع
قالوا الخضوعُ سياسة ::: فليبدُ منك لهم خُضوع
وألذ من طعم الخُضَوع ::: على فمى السّمُّ النقيع
أتسلبْ عنى الدُّنا ::: ملاكى وتُسلْم القلبَ الضُّلوع

(١) المعجب، ص ١٤٥، روض القرطاس، ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٣، ١ / ١٢٠، الكامل، ١٠ /٠ ١٩٠، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٨٠.

قـــد رُمـــتُ يـــوم نـــزالهم ::: أن لا تحصِّـــنُنى الـــدروع
وبرزت لـيس سـوى القميـــ ::: ـــص عن الحشى شـيء دَفُـوع
أجلـــى تـــأخَّر، لم يكـــنْ ::: بهـــواى ذلى والخُضـــوع
مـــا ســـرتُ قـــطُّ إلى القتـــال ::: وكـــان في أملـــى الرجـــوع
شـــيم الأولى أنـــا منـــهم ::: والأصـــل تتبعـــه الفُـــروعْ [(١)]

لقد كانت محنة المُعْتَمِد بن عَبَّاد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنَّه صحراوى بدوى نزعت الرحمة من قلبه، واستدلُّوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأَنْدَلُس وتخلَّص منهم.

* * *

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤٠.

سيف الدين قطز

من مشاهير أعلام المسلمين

سيف الدين قطز

كان مقتل تورانشاه آخر الملوك الأيوبيين في مصر فاتحًا لشهية كل طامع في سلطنة البلاد المصرية بعد قطع دابر آخر الملوك الأيوبيين، وطفت على سطح الأحداث السياسية في مصر أطماع كثيرة تتنازع فيما بينها حول السلطة، فقد كان هناك الملوك الأيوبيون بالشام والذين لم يقبلوا بأن تؤول البلاد المصرية لغيرهم وطالبوا بحقهم الشرعي في حكمها، وكان من الصعب عليهم أن يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد مقتل سلطانها الشرعي وكان على رأس هذا الحزب الناصر يوسف ابن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وكان قد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧ م /٦٣٤ هـ، والذي أخذ دمشق وأخذ يطالب بمصر ويستعد لغزوها [١].

كما أنه كان يوجد عدد من كبار المماليك الترك أو طائفة البحرية، كان كل منهم يطمع في حكم مصر ويرى أنه الأفضل لهذا المنصب، وهم: بيبرس قائد الجيش، وفارس الدين أقطاي مقدم المماليك [٢]، وعز الدين أيبك الجاشنكير [٣]، هذا إضافة إلى شجرة الدر الزوجة السابقة للصالح نجم الدين أيوب، وكل واحد من هؤلاء كانت له أطماحه وأطماعه التي لم يقدر على البوح بها خوفًا من بأس الآخرين.

(١) المقريزي، الخط، ٣٨٦/٣.
(٢) الذي يشرف على تعليم المماليك.
(٣) الذي يتصدى لتذوق الطعام والشراب قبل السلطان.

وعلى ما يبدو أن أمراء المماليك قد قرروا حل هذه العقدة التي نجمت عن شغور العرش المصري فجأة بالحل الوسط، فاتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح نجم الدين أيوب في السلطنة وحلفوا لها، حرصًا منهم على عدم الظهور بمظهر المغتصب للسلطة لما كان لشجرة الدر بعض الشرعية كونها كانت زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب واعتاد المصريون أن يروها إلى جانبه، ومبالغة منهم في احترام الأسرة المالكة الذاهبة، وحرصًا على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها. ثم عرضوا الأتابكية على عدد من الأمراء، ثم وقع الاختيار على أيبك التركماني أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الأتابكية [١].

أخذت السلطانة " شجرة الدر " تتقرب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية، بيد أن الرأي العام المصري، بتراثه السياسي والاجتماعي الذي تشكل في إطار الحضارة العربية الإسلامية، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجه شؤون الحكم علنًا بصورة رسمية وهو الأمر الذي يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية والنظرية الإسلامية من ناحية أخرى، وعبر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التي استشرت في جميع أنحاء العاصمة مما أضطر السلطات الي اغلاق بوابات القاهرة منعا لامتداد مشاعر السخط والغضب الي المناطق الريفية [٢]. وكان من الطبيعي أن يعارض المتعلمون والمثقفون الذين كانت ثقافتهم قد تكونت داخل الإطار المعرفي للحضارة العربية الإسلامية، اعتلاء شجرة الدر عرش البلاد في مصر. وألقيت الخطب في المجالس والمحافل ومن فوق المنابر في المساجد، حتى إن الشيخ

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٩٦، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١١٨.

(٢) عبد الله بن أيبك، كنز الدرر، القسم الأول من الجزء الثاني، ص ١٢، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٢.

العز بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في ذلك الوقت كتب كتابا حول المصائب والكوارث التي وما قد يبتلي به المسلمون بولاية امرأة [1].

وكانت الضربة القاصمة التي تلقتها ولاية شجرة الدر هي رفض الخليفة العباسي المستعصم بالله المساندة الشرعية لها، ورد على طلب التفويض الذي وصله منها ردا يحمل من السخرية والحسم ما أنهي حكم السلطانة شجرة الدر بسرعة، إذ جاء في رد الخليفة "... إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا حتى نسير اليكم رجلا... " [2].

ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة اقتنع المماليك بخطأ تصرفهم وأدركوا أنهم لايستطيعون السباحة ضد التيار الجارف الذي لابد وأن يغرقهم وقالوا فيما بينهم: " لايمكننا حفظ البلاد والملك

(١) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٣٤. والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي. الإمام الحبر شيخ الإسلام سلطان العلماء عز الدين السلمي القاهري الشافعي. صاحب الشهرة الحسنة، والمؤلفات المتقنة كالقواعد ومجاز القرآن، والفتاوى المصرية والموصلية، ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره من أمثال ابن عساكر، وولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بدمشق، وتتلمذ له أبو شامة، وظل بدمشق إلى أن استعان صاحبها الملك الصالح إسماعيل بالفرنج، فأنكر عليه الشيخ العز ابن عبد السلام هذا الفعل وعندما أنكر الشيخ أبو محمد العز بن عبد السلام على ملك دمشق ما عزم عليه من الصلح مع الصليبيين، أخذ وسجن، ثم حمله الملك معه عندما ذهب لتوقيع هذا الصلح، ووضعه في خيمة انفرادية، وكأنه أراد أن يدلل على (حسن النوايا) فقال للمفاوضين: هذا الشيخ أنكر عليَّ الصلح معكم فكان جوابهم:لو عندنا مثل هذا الشيخ لغسلنا قدميه وشربنا غسالتهما. وتوجه إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص. ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة فوض إليه تدريس المذهب الشافعي بها، وظل متمتعا بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة ٦٦٠ هـ. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٨٠/٥ - ١٠٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ص٣٤، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ٣٦٨/١ - ٣٦٩.

لامرأة، ولابد من إقامة رجل في المملكة تجتمع عليه الكلمة "[١]. فأشاروا على السلطانة شجرة الدر أن تتزوج أحد أمراء المماليك الصالحية وتتنازل له عن العرش ووقع الاختيار على الأتابك أيبك التركماني، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة في يوليو سنة ١٢٥٠ م بعد أن حكمت ثمانين يوما [٢].

وتولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني " الملك المعز ". ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سنا، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذا، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس. وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابه " النجوم الزاهرة "، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاؤوا [٣]. كذلك يذهب المستشرق بلوشيه الي أن أيبك ظل يحكم - رغم اعتزال شجرة الدر - بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطانا يحكم عن نفسه[٤]. غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين. ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ إنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر " المنهل الصافي " فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق [٥].

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٧٦/٢.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٧/ ٣، ١٤.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤/٧.
(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٤.
(٥) أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٢/١، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٤.

وعلى ما يبدو أن سلطنة أيبك التركماني لم تكن محل اتفاق جميع الأطراف؛ إذ إنه بمجرد توليه مهام منصبه بدأت المعارضة الشديدة لتوليه المنصب تطفو على سطح الأحداث، وبدا بريق المنصب يسيل له لعاب الكثير من طلابه.

وكان من أشد الناس معارضة لتولية السلطان أيبك الحزب الأيوبي المتمثل في الأمراء الأيوبيين في الشام وعلي رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، وطمع في المنصب لنفسه ورأى في أيبك الشخص المغتصب لعرش أبائه، وحاول بشتى الطرق الوقوف في وجه أيبك وانتزاع مصر منه، فأخذ يحشد البيت الأيوبي لمواجهته، ويستعد لمنازلته حربيا.

ولم يكن الأيوبيون وحدهم الذين نقموا على السلطان أيبك بل كان ألأعراب أشد سخطًا عليه؛ إذ تجمعت لديهم عدد من الأسباب التي جعلتهم يقومون بحركة تمرد وثورة كبيرة أقلقت مضجع أيبك وكادت تودي بملكه.

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول أبي المحاسن: " إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلي أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر في الطرقات، ويقولون: لا نريد إلا سلطانًا رئيسًا مولودًا على الفطرة [(١)].

وعلى ما يبدو أن زعماء المماليك من زملاء أيبك التركماني قد ساءهم كثيرًا توليه الحكم في مصر، وأخذوا يدبرون المكائد للخلاص منه قبل أن تدور عليهم دائرته.

ولذلك سعى أيبك حثيثًا للخلاص من منافسيه أمراء المماليك

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٣/٧، العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٣١.

وعلى رأسهم أقطاي، ودبر مكيدة لقتله، وفي يوم الأربعاء الثالث من شعبان سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٤ م، طلب أيبك الي أقطاي الحضور إلى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور، وكان قد اتفق مع بعض مماليكه المعزية على تفاصيل مؤامرة الاغتيال. وركب أقطاي إلى القلعة في عدة من مماليكه، فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدي إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى، حتى أغلق بعده ومنع مماليكه من اللحاق به، ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم، وأشيع خبر مقتله في القاهرة الكبرى، فهرع إلى إنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم أمير بيبرس البندقداري، والأمير قلاوون الألفي، وفي ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها إليهم من سور القلعة (١).

ثم كانت الخطوة التي جرت على أيبك عداوة زوجته شجرة الدر وأودت في نهاية الأمر بحياته، فقد عزم على الزواج من غيرها، فأرسل سنة ١٢٥٦ م إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفا زواجيا (٢).

شروع أيبك في هذه الزيجة جر عليه عداوة زوجته شجرة الدر حيث تلاقت عندها خيوط العداوة والمؤامرة، وبدأت تعد العدة للخلاص من أيبك، وبرغم شعوره بما يبيت له بليل وبالرغم من أن كلا الزوجين تسابقا في الخلاص من الآخر إلا أن شجرة الدر كانت أسرع في تنفيذ خطتها والخلاص من أيبك وتمكن غلمانها بقتل أيبك في الحمام في إبريل ١٢٥٧ م / ٦٥٥ هـ (٣).

ولم يتأخر كثيرًا رد فعل المماليك المعزية، فبمجرد وصول نبأ

(١) المقريزي، السلوك، ٣٩٠/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ٩١/١، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٣٤.
(٢) المقريزي، السلوك، ٤٠١/١.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣٧٥/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ٩١/١ - ٩٢، المقريزي، السلوك، ٤٠٣/١.

مقتل أيبك إليهم هرعوا الي القلعة وقبضوا على الخدم والحريم وعذبوهم حتى اعترفوا بحقيقة ما حدث، فحاولوا الفتك بشجرة الدر انتقاما وأخذا بثأر سيدهم أيبك، ولكن المماليك البحرية حالوا بينهم وبين ما يشتهون، ولكن رغبة المماليك المعزية في الانتقام من شجرة الدر كانت أكبر من تقف أمامها المماليك البحرية، وفي نهاية الأمر وصلت أيديهم إلى شجرة الدر حيث دفعوها إلى امرأة أيبك [1] حيث نكلت بها وقتلتها شر قتلة حيث دفعتها الي الجواري فضربوها بالقباقيب الي أن ماتت، فألقوها من سور القلعة الي الخندق، وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أيامًا، وأخذ بعض أراذل العامة سراويلها، وتركت ملقاة إلى أن أنتنت ثم حملت في قفة ودفنت بتربتها قرب المشهد النفيسي [2].

وبعد مقتل أيبك وشجرة الدر تعصبت فرقة المعزية لابن سيدهم (أيبك) المدعو نور الدين على وأقاموه في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م سلطانا على البلاد ولقبوه بالملك المنصور، وهو الذي لم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وأقاموا المملوك سيف الدين قطز وصيا عليه ونائباً السلطنة [3].

وبتولي هذا الطفل الصغير مقاليد السلطنة، تكون الفرصة قد سنحت لبزوغ نجم سيف الدين قطز حيث سيكون له دور مهم في التاريخ.

تقول المصادر التاريخية أن قطز [4] كان مملوكاً في دمشق ضمن

---

(١) كانت هذه المرأة تحمل حقدا وكراهية شديدة لشجرة الدر التي كانت قد منعت زوجها (أيبك) من زيارتها وأرغمته على طلاقها ولذلك ظلت تضغط على المماليك المعزية وتستعطفهم تستنصرهم حتى مكنوها من شجرة الدر. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣٨٨/١.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٠٤.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤٤/٧، المقريزي، السلوك، ٣٠٦/١.

(٤) المظفر سيف الدين قطز المعزي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه وابن عمه، أسرا عند غلبة التتار، فبيع بدمشق، ثم (انتقل بالبيع إلى) مصر، كان من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان

مماليك ابن الزعيم، والتحق بخدمة المماليك في مصر، وترقى في الخدمة حتى صار من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، ولعل أول ظهور لقطز على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر التاريخية من اشتراكه في قتل فارس الدين أقطاي بناء على طلب من أستاذه المعز أيبك التركماني، الذي كان قد جهز هذه المؤامرة للخلاص من أقطاي ثم بدأ نجمه يبزغ مع تصاعد الأحداث داخل الدولة المملوكية الوليدة.

كانت تولية المعز أيبك السلطنة في مصر هي البداية الحقيقية

بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار.

حكى شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، وحدث أن ضربه أستاذه فبكى قطز بكاءً ولم يأكل يومه شيئاً، ثم ركب أستاذه وأمر الفراش - أحد أتباعه - أن يترضاه ويطعمه، قال الحاج على الفراش: جئته فقلت له: ما هذا البكاء؟ من ضربه؟ فقال: إنما بكائي من لعنته أبي وجدي وهما خير منه، فقلت: ومن أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك؛ فترضيته. ولما تملك أحسن إلى الفراش وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتباً.

وحكى الجزري أيضاً في تاريخه قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعردي والزكي إبراهيم الجبيلي أستاذ الفارس أقطاي قال: كنا عند قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك، وعنده منجم مغربي، فصرف أكثر مماليكه، فأردنا القيام فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل وقال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؛ فضرب وبقي زماناً يحسب وقال: يا خوند يطلع معي خمس حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول محمود بن مودود؟ فقال؟ يا خوند لا يقع إلى هذا الاسم، فقال: " أنا " هو، وأنا أكسرهم وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فقلنا: يا خوند إن شاء الله تعالى، فقال: اكتموا هذا، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم. وكان مدبر دولة ابن أستاذه المنصور على بن المعز أيبك، فلما دهم التتار الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب، فعزل الصبي وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سنة سبع وخمسين، فلم يبلغ ريقه ولا تهنأ بالسلطنة حتى امتلأ الشام تتارًا، فتجهز للجهاد وأخذ أهبة الغزو، والتف إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان وعمل المصاف مع التتار على عين جالوت، وعليهم كتبغا، فنصره الله عليهم وقتل مقدمهم. وكان قطز شاباً أشقر كبير اللحية. المؤلف: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت، (ج ١ / ص ١٥٣)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨٥/٧ - ٨٦.

لظهور قطز على مسرح الأحداث، فيبدو أن أيبك قد اعتمد عليه كثيرًا ووثق به لدرجة اسناد المهام الجسام إليه بدليل اشتراكه في مؤامرة اغتيال أقطاي ثم توليته نائبا عنه في السلطنة.

وعلى ما يبدو أن النهاية المأساوية المفاجئة والسريعة لكل من شجرة الدر والمعز أيبك قد وضعت قطز في واجهة الأحداث وأعطته الفرصة الكاملة لتولي زمام الأمور وتوجيهها بالشكل الذي يضمن له السلطنة ويفرض عليه قيادة المعركة - معركة الوجود - ضد التتار.

فبعد مقتل أيبك صمم المماليك المعزية وعلي رأسهم سيف الدين قطز على أن يقيموا العرش - الذي بات شاغرا بمقتل أيبك – وملكوا صبيا في الخامسة عشرة من عمره هو " نور الدين على " ابن سيدهم أيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ولقبوه بالملك المنصور على، وقد رفض المماليك البحرية هذا الاختيار، وأعلنوا معارضتهم إلا أن قطز كان له الدور البارز في تثبيت أركان ملك هذا الصبي الصغير - إلى حين - ووقف في وجه محاولات المماليك البحرية وملوك الأيوبيين[١].

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، فقد كانت مصر أنذاك تحت حكم الملك المنصور على بن أيبك التركماني، وكان صغير السن ضعيف الشخصية، وكان قطز نائبه هو المشار إليه بديار مصر وله مكانه كبري وبلغ شأوا عظيما، وصار الشخصية البارزة في البلاد، نتيجة لصغر سن السلطان الملك المنصور على من ناحية، ولكثرة أنصار وأتباع قطز من ناحية أخري.

وفي تلك الأثناء حدثت مأساة اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد في إيديهم سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م، ثم الإنذار المرسل من

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤٤/٧، المقريزي، السلوك، ٣٠٦/١.

هولاكو الي الملك الناصر صلاح يوسف، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام، كما أن الملك الناصر يوسف قد أفاق من غفوته وأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم يستنجد بمصر وبعساكرها [(١)].

فلما قدم ابن العديم الي القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضرة السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين على، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري [(٢)]، والشيخ عز الدين بن عبد السلام [(٣)]، وكان سيف الدين قطز من بين الحاضرين، وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم، وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لا بد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور على بن المعز أيبك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير

(١) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١.

(٢) بدر الدين حسن السنجاري قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزرادي، كان صدراً معظما جواداً ممدحاً، ولي قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولي قضاء القضاة بعد شرف الدين ابن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والمماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٢٠٢/٢.

(٣) ستأتي - إن شاء الله - ترجمة مفصلة عنه.

يوسف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمي البندق - وكان يوم السبت رابع عشري ذي القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. وجلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة (١).

وشرع قطز في ممارسة مهام عمله وكان عليه سرعة مجابهة الخطر المغولي، وكان أول خطوة في هذا الاتجاه أنه أجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته، حيث عاد ابن العديم يحمل الرسالة بذلك المعني، وبصحبته برهان الدين الخضر حاملا جواب الملك المظفر قطز إلى الملك الناصر، إذ أخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكًا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه - أي قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة، إذا كان يرتاب في صدق نواياه (٢).

ثم إن المظفر قطز قد أقال عثرة المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا إلى الشام ودخلوا في خدمة الملك الناصر صاحب الشام ثم انفضوا من حوله بعد محاولته التحالف مع التتار ضد المسلمين، حيث توجه الظاهر بيبرس إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٧، ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ٧/ ٥٥.

(٢) المقريزي، السلوك، ٤١٨/١، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٨/٣.

قطز، الذي حلف له... ووعده الوعود الجميلة،... ووصل مصر فعلاً، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة وأحسن معاملته، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها (١).

وتتابعت الأحداث حيث بدأ هولاكو يعد العدة للهجوم على بيت المقدس وغزو البلاد المصرية، ولم يعد قانعا بما استولي عليه في الشام، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور لسلطان مصر المملوكي إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول، جاء فيها:... باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكي، ولا نرق لمن شكي، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعدددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغي الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم

(١) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١ - ٤٢٠.

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلي من أطاع الهدي، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاوون (١) قد أتى ::: بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ::: ويلحق أطفالا لهم بالأكابر (٢)

أخذ السلطان يجمع الرجال والأموال والسلاح ويستعد لصد المغول وأدرك أن مهمته على جانب كبير من الخطورة، فالشعب الذي سيواجه به المغول قد استولت عليه الرهبة واستبد به الخوف من هول ما سمعه عن فظائع المغول ووحشيتهم وسفكهم للدماء وتخريبهم للديار فضعفت روحه المعنوية عن الجرأة على الوقوف في مهب هذا الإعصار المهلك.

ولم يوهن من عزم قطز أو يضعف من تصميمه على الخروج لمنازلة المغول ما سمعه من أقوال المرجفين ولم يأبه بما احتج به الداعون إلى الانتظار داخل الحدود المصرية حتى يدخل إليها المغول ونادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ودرب المتطوعين

(١) صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرًا في كتب المؤرخين المعاصرين.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٧ - ٤٢٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ /٦٣ - ٦٤.

على فنون القتال في وقت قصير جدا ولم يكد ينتهي من مهمته حتى اقترب المغول بقيادة كتبوغا من حدود مصر.

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة (الإنذار) جمع الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

يقول المقريزي:

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن أنضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها [(١)].

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ وكانت الخطة التي رسمها هي أن يقابل المغول في أرض الشام وألا ينتظر قدومهم إلى مصر وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧.

الأول: انتهاز فرصة البدء بالقتال التي كان المغول يحرصون على انتهازها أولا ليضعفوا الروح المعنوية في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميدانا للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة ركن الدين بيبرس وعند بلدة الصالحية [١] انضمت الكتائب الشامية التي كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلي عنها ودخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل المصريون إليهم بهذه السرعة فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول والأودية اضطروا إلى إخلاء جنوب الشام وأشار بعض ضباطهم على قائدهم كتبغا نوين بطلب النجدة من السلطان هولاكو ولكنه اغتر بقوته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من غزة متجهة إلى الشمال ومحاذية ساحل البحر الأبيض ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوب حيفا وعند قرية (عين جالوت) الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامي وجيش المغول في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ.

بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت مَيْسَرَة الجيش الإسلامي وإذا بنداء يدوّي في ساحة المعركة (وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه) فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا المنادي هو السلطان نفسه فالتهب حماس الجيش وعادت الميسرة إلى مكانها الأول وحمل الجيش الإسلامي حملة صادقة على جيش المغول حتى

(١) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية بالوجه البحري بمصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤هـ.

هزمهم هزيمة ساحقة ومزقهم شرّ ممزق وخرّ قائدهم كتبغا نوين صريعا في الميدان واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة فأحدقت بهم العساكر المسلمة وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم وفرّ الباقون لا يلوون على شيء وقتل الأهالي الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين [1].

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق فقوبل بحفاوة بالغة من أهلها لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التي اجتاحت بلادهم وأنزلت بهم صنوف البلايا وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكما على دمشق من قبله [2] يقول العيني:

ولما فرغ السلطان، وصفا باله، واستقام حاله، عاد إلى دمشق، والأسرى تساق قدامه في الكبول، وقد حمل ما نهب لهم من القسيّ والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخلها ونزل في القلعة مؤيدًا، منصورًا، وكان أعظم الأيام قدرًا، وأطرها عند الأنام نشرا، وأظهرها في وجه الزمان بشرًا، بهذه النصرة العظيمة، والنظرة الوسيمة، والكسرة التي لم يرى مثلها في الأزمان القديمة، فإن جيش التتار لم يجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار، ولا قصدها قبل هذه المدة في بعض هذه العدّة [3].

وأمر السلطان المظفر قطز بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهي قلعة دمشق، وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبة، وقلعة شميميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد وحملت كثيرة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٩، ٨٠.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٢٠٦ - ٢٠٧.
(٣) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٢/١.

إلى دمشق، وفرقت في البلاد لتصير تقاوي الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهداً في عين جالوت عرف بمشهد النصر.

أما بيبرس فإنه تعقب المنهزمين من المغول حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافا حتى لا يلحق بهم فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر.

وبالرغم من أن الخطر المغولي قد وحد صفوف المسلمين لمواجهته حينًا من الدهر، إلا أن زوال هذا الخطر قد أعاد الخلافات إلى صفوف المسلمين إلى سابق عهدها، وعلي ما يبدو أن المماليك البحرية لم يغفروا للمظفر قطز قتله أستاذهم أقطاي فبدأوا - بعد زوال خطر المغول - يفكرون جديًّا في الأخذ بالثأر من المظفر قطز يقول ابن خلدون: " إن البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاى الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الذى تولى قتله فكان مستريبًا بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله نأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ بيبرس البندقدارى وأنز الأصبهاني وبليان الرشيدى وبكتون الجوكندارى وبندوغار التركي فلما انهزم التتر من الشأم واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاى... "[١].

وكان بيبرس البندقداري قد أبدي شجاعة نادرة في قتال التتار في عين جالوت، لاتقل عن شجاعة السلطان المظفر قطز نفسه،وكان يطمع في نيابة حلب، وطلبها بالفعل من المظفر قطز، الذي وعده بها، ولكنه عاد وحنث بوعده وضن عليه بها يقول الذهبي: " ودخل

(١) تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٨٠.

السلطان الملك المظفّر القلعة مؤيداً منصوراً، وأحبّه الخلْق غاية المحبَّة. وعبر قبله البُنْدُقْداري على دمشق، وسار وراء التّتر إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد. ووعده السّلطان بحلب، ثمّ رجع عن ذلك فتأثّر رُكْن الدّين البُنْدُقْداريّ من ذلك. وكان مبدأ الوحشة [(١)].

هذا الأمر جعل بيبرس يتنكر له، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه، ثم وافته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية.

وبالرغم من أن قطز قد شعر بما يحاك ضده إلا أن سيف القدر كان أسرع من أن يأخذ حذره، يقول الذهبي: ونقل الصّاحب عزّ الدّين ابن شدّاد أنّ المظفَّر لمّا ملك دمشق عَزَم على التَّوجُّه إلى حلب لينظّف آثار التّتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أنّ رُكْن الدّين البندُقْداري قد تنكّر له وتغيّر عليه: وأنّه عاملٌ عليك. فصرف وجهه عن قصْده، وعَزَم على التَّوجُّه إلى مصر وقد أضمر الشّرّ للبُنْدُقْداريّ. وأسرَّ ذلك إلى بعض خواصه، فاطَّلع على ذلك البندُقْداري... ثم ساروا والحُقُود ظاهرة في العيون والخُدود، وكلّ منهما متحِّرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدّين البُنْدُقْداريّ على قتل المظفَّر... [(٢)].

قال أبو المحاسن:

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستناب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائدا إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطاني بها وبقي المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير بيبرس البندقداري على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧٠/١.
(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧١/١ - ٤٧٣.

الدين الرومي الصالحي، وعلم الدين سنجر، وسيف الدين بلبان، الهاروني وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس بيبرس، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري وشفع عنده شفاعة في إنسان فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل بيبرس يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال: من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان.

أما قطز فإنه دفن في موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه (١).

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفًا له في مكان الاغتيال، وعلى ما يبدو أن سيف الدين قطز قد كانت له مهمة محددة في التاريخ، فما أن أنجزها حتى توارى عن الأعين والأحداث، بعد أن أتم دوره على أكمل وجه، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وتقبله الله في الشهداء.

* * *

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٣).

الظاهر بيبرس

من مشاهير أعلام المسلمين

الظاهر بيبرس

لم يكن بيبرس[١] هو أول سلاطين الدولة المملوكية، بل سبقه إلى

(١) الملك الظاهر بيبرس البندقداري هو: بيبرس بن عبد الله، ولد في حدود العشرين وستمائة بصحراء أجبقلاق، وأخذ من بلاده صغيراً وبيع بدمشق؛ فنشأ بها عند العماد الصائغ - على ما قيل - ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، وبقي في ملكه إلى أن قبض الملك الصالح على أيدكين المذكور وصادره، وأخذ بيبرس هذا فيما أخذه منه، وذلك في شهر شوال سنة أربع وأربعين وستمائة. وأعتقه الملك الصالح نجم الدين، وقدمه على طائفة من الجمدارية؛ لما رأى من فطنته وذكائه واستمر بيبرس على ذلك إلى أن مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه في سنة سبع وأربعين وستمائة. ثم قتل توران شاه في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وأجمع الأمراء على إقامة الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وولوه السلطنة بعد شجر الدر - أم خليل الصالحية - ولما قتل المعز الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، ركب بيبرس هذا بالبحرية، وقصدوا قلعة الجبل. فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة مجاهرين بالعداوة للملك المعز أيبك التركماني، قاصدين الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق، وهم: بيبرس هذا، وبلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمر السيفي، وسنقر الرومي، وسنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وسيف الدين قلاوون الألفي وبلبان السنقري وغيرهم.

فلما شارفوا دمشق سير إليهم الملك الناصر صاحب دمشق يطيب قلوبهم ويستدعيهم إليه؛ فأرسلوا إليه الأمير فخر الدين المقرئ يستحلفه لهم؛ فحلف؛ فاطمأنوا ودخلوا دمشق؛ فأكرمهم الملك الناصر، وأطلق لبيبرس هذا بثلاثين ألف درهم، وثلاثة قطر بغال، وثلاثة قطر جمال، وخيل، وملبوساً. وفرق أيضاً في بقية الجماعة الأموال والخلع - على قدر مراتبهم. فلما بلغ الملك المعز ذلك كتب إلى الملك الناصر يحذره منهم، ويغريه بهم؛ فلم يصغ الملك الناصر لذلك، إلى أن استشعر بيبرس من الملك الناصر بالغدر، توجه بمن معه إلى الكرك؛ فجهز صاحبها الملك المغيث عسكره معه؛ فقدم إلى مصر، وعدة من معه ستمائة فارس. وخرج عسكر الديار المصرية؛ فتلقاه، وأراد الملك الظاهر كبسهم؛ فوجدهم على أهبة؛ فالتفت العسكر المصري عليهم وقاتلهم

فانكسر عسكر بيبرس، ولم ينج إلا هو بنفسه وقلاوون وبيسرى وبيليك الخازندار.
وعاد بيبرس إلى جهة الكرك؛ فجاءه جماعة من أمراء مصر، واجتمعوا بيبرس والملك المغيث صاحب الكرك بظاهر غزة؛ فقويت شوكتهما، وعادوا إلى الصالحية، ولقوا عسكر مصر ثانياً؛ فاستظهر عسكرهما أولاً، ثم عادت الكرة عليهما، وهرب الملك المغيث، ولحقه بيبرس، وأسر أولئك الأمراء الذين كانوا حضروا إليه؛ فقتلوا جميعاً صبراً - ما خلا الأمير بيليك الخازندار؛ فإن جمال الدين الجوكندر شفع فيه؛ فخير بين المقام والذهاب؛ فاختار الذهاب إلى أستاذه.
ثم إلى الملك المغيث حصلت بينه وبين بيبرس وحشة أوجبت مفارقته إياه، وعوده إلى الملك الناصر صاحب دمشق بعد أن استحلفه على أن يقطعه خبز مائة فارس؛ فأجاب الملك الناصر لذلك.
وكان قدوم بيبرس في هذه المرة على الملك الناصر، في شهر رجب سنة سبع وخمسين وستمائة، ومعهم الجماعة الذين حلف لهم الناصر وهم: أيتمش السعدي، بيسرى الشمسي، وطيبرس الوزيري، وبلبان الرومي، وآقوش الرومي، وكشتغدي الشمسي، وأيدغميش الحلبي، ولاجين الدرفيل، وكشتغدي الشرقي، وأيبك الشيخي، وبيبرس خاس ترك الصغير، وبلبان المهراني، وسنجر الهمامي، وسنجر الباشقردي، وأيبك العلائي، ولاجين الشقيري، وبلبان الأقسيسي، وعلم الدين سلطان الألد كزى؛ فأكرمهم الملك الناصر، ووفى لهم بما حلف.
فلما ورد الخبر بأن الملك المظفر قطز وثب على ابن أستاذه، حرض الملك الناصر بيبرس على قصد الديار المصرية، فلم يجبه الناصر، فقال بيبرس: فقد منى على أربعة آلاف فارس أقوم بها إلى شط الفرات أمنع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح صاحب حمص؛ لباطن كان له مع التتار. ثم إن بيبرس أرسل فاستحلف الملك المظفر قطز، وفارق الملك الناصر صاحب دمشق، ودخل إلى القاهرة في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة؛ فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب لخاصته، وصار عنده خصيصاً إلى أن خرج الملك المظفر قطز لملتقى التتار، سير بيبرس هذا في عسكر؛ ليتجسس أخبارهم؛ فأول من وقعت عينه عليهم ناوشهم القتال؛ فلما كسر التتر تبعهم يقتص آثارهم، ويقتل من وجد منهم إلى حمص. ثم عاد بيبرس؛ فوافى المظفر قطز بدمشق؛ فلما توجه المظفر إلى نحو الديار المصرية، عاد بيبرس هذا صحبته بعد أن اتفق مع جماعة ممن وافقه على قتل الملك المظفر قطز؛ فقتلوه في سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.
فدخل القاهرة؛ وملك قلعة الجبل، وتلقب بالملك القاهر أولاً؛ فأشار الوزير زين الدين على السلطان بتغيير لقبه - وكان فاضلاً - وقال: ما لقب أحد بالقاهر فأفلح، لقب به: القاهر بن المعتضد، فلم تطل أيامه وخمل وهمل، ولقب به القاهر ابن صاحب

ذلك المنصب آخرين قد مهدوا لقيام دولة قوية لا سيما عندما تغلبوا على معظم أبناء البيت الأيوبي بالشام، ثم بينوا للعالم مقدرتهم الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت، وأحاطوا أنفسهم منذ قيام دولتهم في مصر والشام بآيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافًا تامًّا، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسي يفكر في انتزاع السلطة منهم[1]، وبالرغم من ذلك فيعد بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك التي ظلت تقوم بدور المدافع عن الإسلام وحضارته على امتداد ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان، فقد كان بيبرس أول من أرسى قواعد وأسس الملك المملوكية، أضف إلى ذلك مشاريعه العملاقة خارجيًّا مثل: محاولة القضاء على الوجود الصليبي في الشام، ومحاولة توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة أخطار الخارجية، وداخليا مثل: الإصلاحات الكبيرة التي أدخلها على البلاد، ومحاولات التقرب إلى المصريين وغيرها من الأعمال التي جعلت منه بطلاً في عيون عامة الناس وخاصتهم فانطلقوا ينسجون حوله هالة من البطولة والشجاعة في قصصهم الشعبي، وجعلوا منه رمزًا للإسلام والمسلمين.

بعد أن تمت البيعة السلطانية لبيبرس في المعسكر السلطاني بالصالحية دخل بيبرس - والأمراء الذين شاركوه قتل المظفر قطز قلعة الجبل - وكان دخوله القلعة وجلوسه على كرسي السلطنة في التاسع عشر من ذي القعدة.

فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس " ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس، فدخل على الناس من

الموصل؛ فسم؛ فأبطل السلطان اللقب الأول ولقب بالملك الظاهر، وكتب بذلك إلى جميع الأعمال، أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١ / ٢٩١ - ٢٩٤.

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٧٧.

ذلك غمّ شديد ووجل عظيم، خوفاً من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس [١] وكان الناس قد خرجوا لاستقبال قطز الذي كان من مماليك المعز أيبك التركماني، ولم يكن من المماليك البحرية أي مماليك الصالح أيوب [٢].

واستهل بيبرس عهده بالتقرب إلى المصريين بأن ألغي كافة الضرائب والمكوس التي كان قطز قد افترضها على الناس من أجل تمويل الحرب ضد المغول، وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد في مصر، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة، وثلث قيمة التركات التي مات عنها أصحابها من غير المماليك، وكان وقع هذه الإجراءات على نفس المصريين مبهجًا؛ إذ زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجًا بذلك [٣].

وكان على بيبرس أن يواجه المتاعب والقلاقل الداخلية والخارجية في سبيل تدعيم مركزه في سدة الحكم.

والحقيقة أنه لم تكن جميع الأطراف راضية عن حكم الظاهر بيبرس ولذلك نجد أنه قد قامت ضده معارضة قوية مناوئة لحكمه متمثلة في ثورتين تكادا أن تكونان متزامنتين، كانت إحداهما في القاهرة والأخرى في دمشق، وهذه المعارضة وإن كانت تهديدًا مباشرًا لسلطة بيبرس؛ فإن نجاحه في القضاء عليها يعد تثبيتًا وتدعيمًا ليس لسلطته فقط بل لدولة المماليك جميعًا.

الثورة الأولى: وكان سبب هذه الثورة هو الاعتراض على قتل قطز، والأنفة مما فعله بيبرس دون أن يستشير من تنبغي استشارته، وكان قائد هذه الثورة هو نائب دمشق سنجر الحلبي[٤] أحد أمراء

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١ /١٤١.
(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٤٣٧.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٣٨ - ٤٣٩، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٦.
(٤) سنجر الحلبيّ: أحد المماليك الصالحية، ترقّى في الخدم إلى أن ولاّه الملك المظفر سيف

المماليك - في أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، والذي ساءه كثيرًا اغتيال قطز، ورفض الاعتراف بسلطة قاتله بيبرس، ولم يكتف بذلك بل بادر بإعلان نفسه ملكاً على دمشق في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، وضرب السكة باسمه.

ولم تستطع رسل بيبرس وكتبه من إقناع الثائر بلزوم الطاعة، فقرر بيبرس أن يجرد جيشًا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل، حيث عاد الجيش بنائب دمشق مقرنًا في الأصفاد في يناير ١٢٦١ م / ١٦ صفر ٦٥٩ هـ، حيث أعتقل في قلعة الجبل بعد شهر واحد من إعلان ثورته، وولي بيبرس أستاذه علاء الدين البندقداري [(١)] نيابة دمشق التي انضوت منذ ذلك التاريخ تحت لوائه [(١)] وبذا

الدين قطز نيابة دمشق، فلما قتل قطز على عين جالوت وقام من بعده في السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس، ثار سنجر بدمشق في سنة ثمان وخمسين وستمائة ودعا إلى نفسه، وتلقب بالملك المجاهد، وكان طويل القامة، مخلا بعينه اليسرى، ذكروا عنه أنه أصيب بسهم، وكان ذا بأس وشهامة، وقوة وشجاعة، وإقدام شديد.

وقيل: إنه كان في الدولة الظاهرية إذا نزل من الخدمة إلى بيته لا ينزل عن فرسه حتى يقدم له قنطارته محشوة برصاص فيلعب بها وهو راكب، ثم يأتي إلى فردة تبن فيطعنها ويشيلها من الأرض، ثم ينزل ويأخذ عمود حديد زنته قنطار فيلف به يمينًا ويسارًا، ثم يجلس على سماطه فيأكل خروفًا، مات في عاشر ذي القعدة وكان قد مرض بعد حصار قلعة الروم، فحمل في محفة إلى مصر، فمات بعد حضوره بسبعة أيام وهو في عشر التسعين وقد انحنى وبان عليه الكبر، وقيل: مات وعمره اثنان وتسعون سنة.

المواعظ المقريزي، والاعتبار، ١٨٦/٢، بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ /٢٤٥.

(١) أيدكين بن عبد الله البندقداري، الأمير علاء الدين. كان من أعيان الأمراء الصالحية، وكان الملك الظاهر بيبرس البندقداري مملوكه، اشتراه لما أن كان بحماة، ثم إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب صادر علاء الدين أيدكين هذا، وأخذ منه بيبرس في جملة ما أخذه منه، وتنقلت الأحوال بهما حتى صار بيبرس سلطاناً، والأمير علاء الدين أيدكين المذكور من جملة أمرائه، وبقي معظماً عند الملك الظاهر بيبرس؛ لحقوق سلفت، ويرعى له ما تقدم، وينعم عليه.

قضى السلطان في سرعة وعزم على إحدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء [٢].

ثم كانت هناك محاولة تمرد أخرى على سلطة بيبرس تمثلت في محاولة شمس الدين البرلي الاستقلال بحلب، ولكن الفشل كان حليفه، ولما أرسل يطلب العفو من السلطان الظاهر بيبرس كان كريمًا معه، وفي القاهرة حاول بعض الأمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م وعلي الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة في مهدها، فإنه كان كريمًا معهم أيضا [٣].

أما الثورة الثانية الأكثر خطورة فكان زعيمها رجل شيعي يعرف بالكوراني، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بجبل المقطم، وتردد عليه الغلمان والركابدارية[٤] وجماعة من السودان، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام الحكم المملوكي السني واستبداله

وكان أصل أيدكين هذا مملوكاً للأمير جمال الدين موسى بن يغمور، ثم انتقل إلى ملك الصالح نجم الدين أيوب؛ فرقاه وجعله بندقداره، ثم أمره على عجلون، ثم عزله، وأمسكه وصادره، واستمر أيدكين هذا على حرمته وإمرته، إلى أن مات في شهر ربيع الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة، ودفن بتربته بالشارع الأعظم، تجاه حمام الفارقاني بظاهر القاهرة، وكان له معرفة، ورأي، وتدبير، وسياسة، رحمه الله تعالى. الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٢، ١٨، ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٣٣.

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٣٨ - ٤٣٩، ٤٤٥، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨/ ٦٣ - ٧٠.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٦٥ - ٤٦٦، ٤٧١ - ٤٧٦، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨ /٧٠، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٧.

(٤) الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في الموكب، وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه. انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ٤ / ٧ ن١٢. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٧٨.

بحكم شيعي وأقطعهم الإقطاعيات وكتب لهم الرقاع، وتمخضت تلك الدعوة والدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون: " يآل على " وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة، فأرسل من الجند ما يكفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم، حتى إذا خمدت الثورة، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة (١).

وهكذا قضى بيبرس قضاءً مبرمًا على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين، بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام، طوال العهد المملوكي، الأول والثاني سواء، وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ إمعان بيبرس في هدم الثورة، مما جعل توفيقه في إخمادها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك (٢).

وكان القضاء على المشكلات والأخطار التي أثارتها حركات التمرد الداخلية الخطوة الأولى والهامة في سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته في الداخل، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذي لم يكلفه من الجهد إلا قليلا. وبقي عليه أن يطفي على حكمه رداء الشرعية، ورأى الحل السديد في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم. وإذا كان إحياء الخلافة يأتي من جانب الدولة صاحب الفضل في وقف الخطر التتري، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبي؛ فإن تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود. وكانت تلك مناورة سياسية زكية من

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٤٠.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧٩.

بيبرس، إذ جعل الدولة المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامي بإحيائها الخلافة العباسية [١].

وبعد جلوس بيبرس على عرش السلطنة استدعي الأمير العباسي أبو القاسم أحمد، وخرج ليتلقاه خارج القاهرة في شهر رجب ٦٥٩ هـ / يونيو ١٢٦١ م "... ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل في يوم الخميس فدخل من باب النصر وشق القاهرة وكان يوماً مشهوداً، ولما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل وحضر الصاحب بهاء الدين وولده فخر الدين وقاضي القضاة تاج الدين والأمراء والناس على طبقاتهم وقرئ نسب الخليفة على القاضي وشهد عنده بصحته فأسجل عليه بذلك وحكم به وبويع وركب من يومه وشق القاهرة في وجوه الدولة أعيانها... ثم بويع بالخلافة في قلعة الجبل ظاهر القاهرة من الديار المصرية يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة وأول من بايعه قاضي الديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف الشافعي عند ما ثبت نسبه عنده ثم بايعه الملك الظاهر والشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والأمراء والأعيان من أولى الحل والعقد وكانت بيعته في الإيوان الكبير بالقلعة المذكورة وكان المسلمون بغير خليفة منذ قتل التتار ابن أخيه الإمام المستعصم بالله أبا أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد رحمه الله في أوائل سنة ست وخمسين مدة ثلاث سنين ونصف " [٢].

ولما تمت البيعة، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس على

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٨.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٩٤/١، وانظر أيضا: السيوطي، حسن المحاضرة، ١ /٤٤٨ - ٤٤٩، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨ /٧٢ - ٧٨، المقريزي، السلوك، ١/ ٤٤٨ - ٤٥٧.

البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم، ثم كتب السلطان بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة العباسي المستنصر بالله، وأن يدعي له على المنابر ثم يدعي للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما [١].

وعلى ما يبدو أن بيبرس كان عنده تصميم على إعادة الخلافة العباسية ليس إلى الوجود فقط - بعد سقوطها على يد هولاكو - بل وإعادتها إلى مقرها الأصلي في بغداد، وبدا ذلك جليًّا عندما أنفق الأموال الكثيرة في سبيل إعداد جيش الخلافة ليعود به إلى العراق واستخلاص بغداد من أيدي التتار، كما أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق فوصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، وكان ينوي أن يقوي جيش الخلافة العباسية بأن يضيف إليه أعدادًا أخرى من جند الشام، حتى غدا جيش الخلافة يزيد على عشرة آلاف فارس، ولكن وبصورة مفاجئة فتر حماس الظاهر بيبرس وتخلى عن مشروع إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى مقرها الدائم في بغداد وتخلى عن الخليفة العباسي[٢]، وتركه في جمع قليل من الجنود لا يزيد عن ثلاثمائة فارس، وتركه يصارع المجهول [٣].

وسار لمواجهة التتار بقيادة قرابغا وبهادر، حيث التقوا بهم

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٨٤.

(٢) ذكر المقريزي أن البعض أوشى إلى الظاهر بيبرس بألا يساعد الخليفة العباسي في العودة إلى بغداد وإعلان عودة الخلافة العباسية لأنه إن فعل ذلك فربما ينقلب عليه الخليفة العباسي وينازعه النفوذ والسلطة مما جعل حماس بيبرس يفتر ويتخلى عن الخليفة العباسي وعودة الخلافة العباسية إلى بغداد. انظر: المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣. وربما يكون بيبرس قد حصل على مبتغاه من الخليفة العباسي وهو الشرعية لدولته الناشئة ولم يعد لديه الحماس في استكمال مشروع الخلافة العباسية.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣، ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ١ / ٤٢٩ - ٤٣٠.

بالقرب من الأنبار في الثاني من محرم سنة ٦٦٠ هـ، ودارت بين الجانبين معركة غير متكافئة انتهت بمقتل معظم الجيش العباسي ولم ينج منهم غير الأمير أبو العباس أحمد في بضع قليل من الفرسان، أما الخليفة أبو القاسم فلم يستدل على مصيره، وإن كانت معظم الروايات ترجح موته جريحاً بعد المعركة [١].

كانت أحداث هزيمة جيش الخلافة العباسية ومقتل الخليفة المستنصر دافعاً لبيبرس أن يعيد التفكير في وضع الخلافة العباسية، إذ بدأ يفكر في جعل الخلافة والخليفة العباسي تحت عينه وسيطرته المباشرة بجعل مقرها الرئيسي في القاهرة، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة، وتتجنب خطر إقامتها بعيداً في بغداد. وحرص بيبرس أن تخرج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ فأرسل يستدعي أميرًا عباسيًّا آخر لتولي الخلافة، ووقع اختياره على أبي العباس أحمد [٢] حيث عقد له في ٨ محرم ٦٦١ هـ مجلسًا عامًّا بالإيوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وأخذت له البيعة من جميع طوائف الناس وخطب له على المنابر في مصر والشام [٣] ولضمان نجاح المحاولة وبقاء الخلافة العباسية في مصر إلى الأبد أرسل بيبرس فاستدعى

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣١٨، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ /٤٧، المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣.

(٢) الحاكم بأمر الله العباسي: هو أحمد بن الحسن، الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس ابن الأمير أبي على الحسن بن أبي بكر بن على بن أمير المؤمنين، المسترشد بالله العباسي البغدادي.

قدم مصر، ونهض ببيعته الملك الظاهر بيبرس الصالحي، وبويع له سنة إحدى وستين وستمائة، وخطب بالناس، وكان ملازماً لداره، فيه عقل وشجاعة وديانة، وله راتب يكفيه من غير سرف. امتدت أيامه، وعهد بالخلافة إلى ولده المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، وتوفي سنة إحدى وسبعمائة، وهو في عشر الثمانين وكانت خلافته أربعين سنة، ولم يكن له من الخلافة غير الخطبة والسكة. الكتبي، فوات الوفيات، ١ /٣٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٧ - ٤٧٩، ابن أيبك، كنز الدرر، ٨ / ٩٤ - ٩٥.

الكثير من مماليك الخليفة المستعصم (الذي قتله التتار) الذين فروا من وجه التتار إلى الحجاز، كما أحضر العديد من شيوخ عشائر العراق ليكونوا إلى جوار الخليفة العباسي الجديد، ويضفي على هذا العمل مزيدًا من الشرعية ويعطيه ترياق الاستمرارية في مصر [١].

كان إحياء بيبرس للخلافة العباسية أحد الخطوات الهامة التي دعمت مركز دولته الناشئة ليس دينيًّا فقط بل سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا وثقافيًّا، ولم يتوقف عند هذا النهج، بل نجده يتخذ عدداً من الخطوات الهامة في سبيل تأكيد زعامة دولته على أقطار الخلافة العباسية، وكانت الخطوة التالية هي الإشراف على الحجاز " أصل العرب والملة، ومقر الحرمين الشريفين ومهوى قلوب المسلمين ".

والحقيقة أن الإشراف على الحجاز يعد أحد أركان السياسة المصرية على مر العصور منذ قيام الدويلات المستقلة في مصر، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائماً إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته. فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا أنفسهم بلقب " خادم الحرمين "، وبقي هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم [٢].

وبدأت سياسة بيبرس الحجازية بعمل الإصلاحات اللازمة بالحرم النبوي الشريف وإرسال الكسوة إلى الكعبة [٣]، وإرسال

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ٤٠٠، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٦.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٩٦.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٠٢. يقول الطرسوسي: ".. ذلك أن العرب كانت في الجاهلية تكسو الكعبة. واستمرت كسوتها بعد الإسلام، وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب، وحين سقطت الدولة العباسية تولى كسوتها سلاطين المماليك واهتموا بذلك اهتماماً

الصدقات والزيت والشموع والطيب... [١]. وأخيراً أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩ م، فأظهر خشوعاً وكرما لاينتهي [٢]وانتهز الفرصة لكي يجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسي ثم سلطان مصر بعده [٣]. وهكذا ازداد البعد الديني وضوحا في دولة سلاطين المماليك[٤].

هذا ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة ١٢٦١ م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس، وجدد مسجد الخليل إبراهيم، عليه السلام. وأخرج ما كان في إقطاعيات الأمراء من أوقافه [٥]. كما أمر سنة ١٢٦١ م ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر [٦] تخليداً لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون هناك [٧].

كبيراً لحرصهم على الظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين. وأول من أدار المحمل بمصر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨ ه. ويسير جمل المحمل يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل مغطى بالحرير تعلوه قبة فضية، وأمام الموكب تركض كوكبة من فرسان المماليك بملابس الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم البراقة وهم يستعرضون مهاراتهم أمام المتفرجين من أفراد الشعب، ويقومون ببعض الألعاب البهلوانية، ودقات الطبول والموسيقى النحاسية تصم الآذان، ويخرج هذا الموكب في شهر شوال إلى طريق الحجاز على هذا الشكل يقوده أحد كبار أمراء المماليك وفيه عدد من الأطباء والمؤذنين، والقاضي والشهود، والأمناء ومغسلو الموتى، ويلتحق به من يريد الحج من الناس.. " انظر: نجم الدين إبراهيم بن على الحنفي الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، الطبعة: ٢، ١ / ٨٢.

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٥١٢.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٨١ - ٥٨٢.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٠٤.
(٤) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٢.
(٥) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٤٥ - ٥٠٢.
(٦) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٤٦.
(٧) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٩٨.

وفي سبيل تأكيد البعد الديني لدولته، قام الظاهر بيبرس بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأي آنذاك. فقد كان القرآن الكريم والحديث النبوي والعلوم المرتبطة بهما ركيزة التعليم والثقافة في ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التي عرفت باسم العلوم العقلية. ومن ثم كان " أهل العمامة " في ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ووجدانها. كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين، وقد أعاد بيبرس للجامع الأزهر - أول مساجد القاهرة - مكانته عندما نزل ليصلي فيه الجمعة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م بعدما أمر بترميمه وعمارته، وبذلك عادت الخطبة للجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة (١) وبنى مسجداً بالقاهرة حمل اسمه (٢).

وبالرغم من قيام دولة سلاطين المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية، وبالرغم من قيام التتار بتحطيم معظم الممالك الأيوبية إلا أنه كانت توجد لهم بعض البقايا المتناثرة من الممالك في الشام، وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة، والأشراف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر بيبرس، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة في شعبان ٦٥٩هـ، ولحق به أخوه المجاهد صاحب الجزيرة،ولقيهما الظاهر بيبرس بحفاوة بالغة، ثم كتب تقليداً للملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها، ثم ولي الملك المجاهد سيف الدين إسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها (٣)

(١) العيني، عقد الجمان، ٢ / ٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٣.
(٢) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٩٣ - ٩٤.
(٣) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٢٦ - ٢٧، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٤.

إلا أن العلاقة لم تكن على هذا النسق من المودة وحسن الجوار مع بقية أفراد الأسرة الأيوبية، ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك لم يقلع يوماً عن مناوأة سلطان المماليك منذ عهد أيبك التركماني، اعتقادا منه أنه أحق منهم بملك مصر والشام، فلما جلس بيبرس على السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر ولإزالته، وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع، لولا أن المغيث عمر بعث برسالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى الظاهر بيبرس يشفع فيه، فقبل الشفاعة، وأبقى على المغيث عمر والكرك معاً [١].

غير أنه يبدو أن المغيث عمر ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطنتهم، فكتب إلى هولاكو سرًّا يحضه على فتح الشام، ويطلب إليه أن يقيمه عليها ملكاً تابعاً، ولكن بيبرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر. ويقال أن هذه المكاتبات لم تحدث، وأن بيبرس اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي المناوئين لسلطانه [٢].

ومهما يكن من شيء، فقد عمد بيبرس إلى السياسة والمداراة، فأرسل إلى المغيث عمر رسالة أكد له فيها الإيمان والمواثيق، وأنه يرعى ذمته ولا يمسه بأذى، وطلب إليه الحضور إلى معسكره بفلسطين. وعلى الرغم من تشكك المغيث عمر في مواثيق بيبرس، فاضطر إلى الذهاب إلى حضرة بيبرس في معسكره عند بيسان حتى لا يبدو جاحدًا لحسن المعاملة، ناكراً لجميل الخليفة والسلطان. وفي جمادى الأولى سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣ م وصل المغيث عمر إلى الدهليز السلطاني عند بيسان، فقابله بيبرس وأكرم وفادته، وساق إلى

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ /٤٠٠، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٠.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٠.

جانبه حتى قارب الدهليز، وهناك قبض عليه واعتقله. ثم جمع بيبرس مجلساً حضره كبار الأمراء الشاميين وقاضي قضاة دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب، ثم أخرج بيبرس فتاوي الفقهاء بوجوب قتل المغيث عمر وأرسله مصفداً في الحديد القاهرة حيث قتل في إبريل سنة ١٢٦٣ م، واستولى بيبرس على الكرك في نفس السنة، وعين عليها واليًا من قبله(١). وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوئ لها من ناحية الأيوبيين (٢).

وأدرك بيبرس بحنكته السياسية وتمرسه في الحياة العسكرية أن وضع دولة المماليك الوليدة أصبح في مرمى نيران قوتين عظيمتين كانتا وما زالتا تناصبان الإسلام والمسلمين العداء، أولاهما المغول الذين مازالوا يلعقون جراحهم منذ هزيمتهم النكراء في عين جالوت، ولم يكن من اليسير عليهم نسيان هذه العثرة المريرة التي جعلتهم يغيرون وجهتهم الحربية، وثانيهما الصليبيين الذين ما زالوا يعيشون على وقع الهزيمة المذلة التي وقعت لهم على الأرض المصرية، وأدرك بيبرس أن كلا الفريقين سوف يحاولون رد اعتبارهم من المصريين، وأن تحرك أحدهما أو كلاهما للأخذ بثأره يعرض دولته للخطر، لذلك نجده يسعي لعقد التحالفات مع القوي القوية المحيطة به.

سارع بيبرس لعقد التحالف مع الدولة البيزنطية وإمبراطورها ميخائيل الثامن باليولوج سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢ م، وأرسل إليه - بناء على طلبه - بطريقا من الملكانيين، ليشرف على الملكانيين في دولته، وكان صحبه هذا البطريق - واسمه الرشيد الكحال - الأمير

(١) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ٥٥٠، المقريزي، السلوك، ٢ / ٤٨٢، ٤٩١ - ٤٩٢، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠١.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠١.

فارس الدين أقوش السعودي، وعدة من الأساقفة، فلما وصلوا القسطنطينية احتفي بهم الإمبراطور وأكرمهم، وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه في عاصمته [١] كي يصلي فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم من المقيمين أو المارين بلاده. ولما علم بيبرس بما قام به الإمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد... إلخ [٢].

ولم يكن اختيار بيبرس للإمبراطورية البيزنطية من قبيل المصادفة، بل كان عن دراية بالواقع المحيط بالدولة المملوكية، فقد بدت الإمبراطورية البيزنطية مؤهلة للتحالف مع بيبرس ضد الصليبيين، فقد صارت عدوًّا تقليديًّا للمستوطنات الصليبية في الشرق العربي، لا سيما بعد تجربة الأسر المريرة التي عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ م [٣].

كذلك حالف السلطان بيبرس إمبراطور الدولة الغربية وملك صقلية ونابلي منفرد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن، وأرسل له في أوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م هدية من جملتها عدد من الزراف وعدد من أسري عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم.

(١) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك في سنة ٧١٤ م / ٩٦ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص بناء مسجد بالقسطنطينية، وقد هدمه الصليبيون أثناء غارتهم على القسطنطينية، ويقال: إن صلاح الدين قد حاول تجديد بنائه ولكن لم يجبه البيزنطيون إلى ذلك. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ٤٠٢، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ /٤٠٢ - ٤٠٣، المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٣.

(٣) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٦.

وكـان علـى رأس السـفارة المصـرية المـؤرخ الحمـوي الكبيـر جمـال الـدين بـن واصـل الـذي أمـدنا بـبعض أخبـار تلـك السـفارة فـي كتابـه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " حيث يقول: " توجهت رسولاً إلى منفريد من السلطان الأعظم الملك الظـاهر ركـن الـدين بيبـرس - رحمـه الله - فـي شـهر رمضـان سـنة تسـع وخمسـين وسـتمائة، فأقمـت عنده مكرماً بمدينـة من مدائن أبنولية [١] يقال لها برلت، واجتمعت بـه فوجدتـه متميـزاً محبـاً للعلـوم العقليـة، يحفـظ عشـر مقـالات مـن كتـاب إقليـدس فـي الهندسـة. وبـالقرب مـن البلـد التـي كنـت نـازلاً بهـا مدينـة تسمى لوجارة، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيـرة صـقلية [٢] وتقـام الجمعة فيها ويعلن فيها بشـعائر الإسـلام، وهـي علـى هـذه الصـفة مـن عهد أبيه الإمبراطور [٣] وكان قد شرع في بناء دار علم بهـا ليشـتغل فيها بجميع أنـواع العلـوم النظريـة. وأكثـر أصـحابه الـذين يتولـون أمـوره الخـاصـة مسلمون، ويعلن في معسكره بـالأذان والصـلاة [٤].

كما كـان لبيبـرس علاقـات جيـدة ووديـة مـع ألفونسـو العاشـر ملـك قشتالة الأسبـاني، فتذكر المصـادر الأسبانية أن ألفونسـو العاشـر أرسـل إلـى السـلطـان الظـاهر بيبـرس البندقـداري هديـة مـن الخيـول العربيـة الأصيلة، وذلـك فـي سـنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م. وقـد رد بيبـرس بهديـة مماثلة من بينها زرافـة، وسن فيل، وتمسـاح محنط لا يـزال إلـى اليـوم

(١) يريد بذلك مقاطعة أبوليا في جنوب إيطاليا.

(٢) يروي المؤرخون: أن الإمبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلـى مدينة لوجارة في أبوليا جنوبي إيطاليا سنة ١٢٤٩ م، وكان ذلك على إثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية، فنقلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضي أغلب أوقاته متخذاً إياهم حرساً أميناً لـه. العبادي، قيام دولـة المماليك، ص ٢٠٤ حاشية ١.

(٣) يقصد الإمبراطور فردريك الثاني الذي كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين، وفضله في نشر الثقافة العربية في أوربا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٤ حاشية ٢.

(٤) نقلاً عن، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٤.

معلقاً في مدخل الباب الشرقي لكاتدرائية أشبيلية، وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك الأسباني ألفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق (١).

كانت تلك جهود بيبرس في الغرب؛ أما في الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى بركة خان، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول، الذي كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيزخان. وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقًا حتى شمال البحر الأسود غربا، وتعرف ببلاد القفجاق أو القبشاق، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين، وتبادلت الرسائل والسفارات بين بيبرس وبركة خان فيما بين سنتي ٦٥٩ و٦٦١ هـ / ١٢٦١ و١٢٦٣ م. كما تزوج بيبرس من ابنة بركة خان لكي يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولي بركة خان، وأمر له بالدعاء على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين مكة والمدينة (٢).

ولا شك أن هذا التحالف كان موجها بطبيعة الحال، ضد عدوهما المشترك الممثل في إيلخانات فارس التي يحكمها هولاكو وأولاده، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغة (٣)، فيروي المقريزي أن بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك (٤).

ولم يكتف بيبرس بذلك، بل حالف في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م

---

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ٤٠٩، مفضل بن أبي الفضائل النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص ٤٥٤ - ٤٦٢، ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٩٩، ١٦٧، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٤ - ٤٧٥، العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٧.

(٣) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٦.

(٤) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٦٥.

سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ووعده بالمساعدة ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى. وأرسل بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول [١].

ومن الواضح أن المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما قد يهد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وإن كان من المعروف أن خلو عهد بيبرس من حملة صليبية على مصر إنما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلى شؤونها ومشاكلها في الغرب، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده إنما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيزخان وهولاكو في البلاد الشرقية على الأقل [٢].

بعد أن اطمأن بيبرس إلى جبهته الخارجية انطلق يشرع في استكمال مؤسسات دولته الداخلية، وتأمين حدوده ضد الغزو الخارجي، وتنظيم جيوشه، وتقوية أسطوله البحري، فقام بتجنيد العشائر العربية سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، وهي العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة، وحثهم على قتال هولاكو بعد أن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال، ويقال: إن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت إغاراتهم أبواب مدينة بغداد التي كان المغول يحكمونها آنذاك[٣].

كما أعاد تحصين القلاع التي تحمي مناطق الحدود مع دولة مغول فارس،وشحنها بالذخيرة والأقوات، وتمركزت بها أعداد كافية

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٦.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٧.
(٣) المقريزي، السلوك، ٤٧٦/١.

من الجنود، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة المنائر [١] لرصد نشاط العدو في تلك المناطق الحدودية، وكان تبادل المعلومات بين نقاط المراقبة يتم عن طريق هذه الإشارات الضوئية بالنيران، أو إشارات الدخان [٢].

كما أمر بيبرس نوابه بحلب سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام [٣] فجهزت القداحات والصوفات والآت النار سراً، وأحرقت تلك المروج جميعها، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل

---

(١) وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار. فإذا كشفوا عدوًّا مقبلاً من البر كالمغول، أو من البحر كالصليبيين، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلا، أو أثاروا فيها دخاناً إذا كان الوقت نهاراً. ثم سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة. فهي تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر، وكثيرًا ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك. وإن كانت المصادر لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك أرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنبوها؛ وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً مخصبة، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرفق، والدفع عن مباغتة الأطراف ومهاجمة الثغور. وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأودية، ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في إثرها وقد جوعت، لتجد الثعالب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره انظر. القلقشندى، صبح الأعشى، ٥ /٤٨٤.

والطريق المؤدية إلى الشام [١].

ثم أمر بيبرس سنة ١٢٦٣ / بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران، وزودها بالمؤن والذخيرة، فأقام بذلك خطًّا حصيناً من شرق الأردن إلى نهر العاصي، فضلاً عن أبراج المراقبة التي أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج [٢].

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤ م بتجديد بناء القلاع التي على الحدود الفراتية لا سيما قلعة ألبيرة التي أرسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها من الحصار لمدة عشر سينين، كي تظل شوكة في جنب المغول [٣].

أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخور عظيمة ليجول دون مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجًا للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها [٤].

على أن بيبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة تلقي الأخبار ولإصدار الأوامر، ولهذا وضع للبريد نظامًا ربط به جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية. وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة، وإليها ترد الرسائل من الحكام، والتقارير من ولاة الأعمال، والنيابات في سرعة وانتظام، حتى صار البريد يصل من

(١) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٩.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٢٥، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢١١.
(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢١١.

دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبه [١].

ولم يقتصر الأمر على البريد البري، فهناك أيضا ما يمكن أن نسميه البريد الجوي، ونعني بذلك الحمام الزاجل، الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة. وكان لهذا الحمام أبراج خاصة، بالقلعة ومراكز معينة في سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد البري، ولكنها تزيد عنها في المسافة [٢].

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد، بل عمل على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر بيبرس مؤسس أسطول المماليك، إذ يشير المقريزي إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعة السفن في الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية ودمياط، لدرجة أنه كان يشرف على بنفسه على بناء

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٤٦ ـ ٤٤٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ١٠٨/١ يقول المقريزي عن تنظيم بيبرس للبريد: ".. فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، رتب البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام، ويعود في مثلها، فصارت أخبار الممالك تَرِد إليه في كل جمعة مرّتين، ويتحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية، وهو مقيم بالقلعة، وأنفق في ذلك مالاً عظيماً حتى تم ترتيبه، وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة، وما زال أمر البريد مستمرّاً فيما بين القاهرة ودمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، وتعرف بخيل البريد، وعندها عدّة سُوّاس، وللخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، وأحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، ويخدمه مدّة مسيره، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانيّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانيّ، وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زاداً ولا ماء. " المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١ /٢٨٦.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ١٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٤.

الشواني، وتجهيزها بآلالات[١].

ولما كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد، فقد حرص بيبرس على الإكثار من شراء المماليك من بني جنسه القفجاق، إذ "... مالت الجنسية إلى الجنسية.. " على حد تعبير المؤرخ أبي العباس القلقشندى، وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين بيبرس وبركة خان، حاكم القفجاق، هي التي يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت موردًا إضافيًّا من ناحية أخرى، كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطي تسهل مرور السفن التي تحمل أولئك المماليك، ولما كانت بلاد القفجاق بلادًا رعوية شحيحة الموارد، فقد كان أهلها من الرعاة الحل الذين يمضون الصيف في منطقة والشتاء في منطقة غيرها، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبنائهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال، ومن ناحية أخرى كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين، فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعدادًا منهم يبيعونهم في أسواق الرقيق العالمية.

على أية حال استطاع السلطان الظاهر بيبرس تكوين جيش قوي بلغت عدته أربعين ألف فارس، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان، لا سيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسي على المشاة في ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة في زماننا [٢].

في عهد بيبرس، استطاع أن يغير السياسة المصرية تمامًا نحو الصليبيين في الشام حيث أصبحت تتسم بطابع المبادأة والهجوم العنيف والقسوة. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك، ويعملون كأدلاء

(١) المقريزي، الخطط، ٢ / ١٨٠، ٢٩٧، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢١٣.
(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٩ - ١٠٠.

ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية، وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان. ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين. ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان، وصارت تملي عليهم إرادة الخان المغولي المقيم في تبريز أو مراغة أو بغداد.

هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقَبين من الفرنج لحساب المغول، فصمموا على طردهم من الشام [(١)].

وفي سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م بدأت عمليات الظاهر بيبرس العسكرية ضد الصليبيين، ففي ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة في الثامن جمادى الأولى، ثم استولى على أرسوف في رجب من السنة نفسها [(٢)].

وكانت تلك مجرد بداية لغارات بيبرس وحملاته على الصليبيين، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك على الصليبيين، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تماما بعد حوالي ثلاثين سنة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وكثيرًا ما لجأ بيبرس إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوي الصليبية كي يضمن النجاح لعملياته

---

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٠٧، العيني، عقد الجمان، ١ / ٣٩٦ - ٣٩٨.

العسكرية ضد البعض الآخر [١].

وفي السنة التالية ١٢٦٦ م، هاجم بيبرس قاعدة إستراتيجية صليبية خطيرة في الشام هي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية، وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها [٢] ويقال: إن بيبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لأسباب غامضة [٣]، مما جعل المصادر الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر. ولا مجال للكلام هنا عن الغدر والخيانة مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل، وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال [٤].

على ما يبدو أن سقوط قلعة صفد في أيدي المسلمين، وما جرى لفرسانها الداوية قد أصاب الصليبيين بضربة قاصمة، جعلتهم يهيمون على وجوههم إلى بيبرس يطلبون الأمان وعقد معاهدات الصلح معه، فقد أسرع أمير صور، وأمير بيروت، وفرسان الإسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن المرقب إلى طلب عقد الهدنة مع السلطان الظاهر بيبرس، كما أنه نجح في سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين، ثم استولي على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون بعد حصار دام شهرين [٥].

---

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠ - ٢٦٥.

(٣) لم تكن أسباب ودوافع بيبرس غامضة بالقدر الذي يجعلنا نجهلها، فقد كان هؤلاء الفرسان من الداوية أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين وارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع ليس في حق المحاربين فقط بل وفي حق الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء الأسرى.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٦٤ - ٥٦٦.

وفي نفس العام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م وجه بيبرس ضربة قاصمة للصليبيين عندما استولى على مدينة أنطاكية في أقصى الشمال، فيروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس، هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها في مايو سنة ١٢٦٨ م / رمضان سنة ٦٦٦هـ [١] واستولى المسلمون على المدينة التي ظلت رهن الأسر الصليبي منذ الحملة الصليبية الأولى، أي على مدي أكثر من مائة وخمسين سنة.

وقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون من أنطاكية ".. أن قسمت النقود بالطاسات " كما بلغ من كثرة الأسرى أنه "... لم يبق غلام إلا له غلام... وبيع الصغير باثني عشر درهمًا، والجارية بخمسة دراهم " [٢].

وعلى ما يبدو أن نجاحات بيبرس في الجهاد ضد الصليبيين قد شجعته لمواصلة حركة التحرير الكبرى التي بدأت منذ الدولة الأيوبية، وإن كانت تعطلت حينًا من الزمن بسبب المنازعات الأيوبية، ثم جاء الظاهر بيبرس ليعيد إحياء حركة الجهاد الكبرى التي بدأها صلاح الدين الأيوبي، وهي الحركة التي لم تنته إلا عندما نجحت القوات المصرية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في اجتثاث بقايا الصليبيين من عكا سنة ١٢٩٠م، وإلقاءها في البحر المتوسط لتعود من حيث أتت.

بدأ بيبرس مهاجمة إمارة طرابلس في العام ١٢٧٩ م / ٦٦٩ هـ حيث استولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٥٦٨، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ١١٤٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ى١ / ٥٦٨.

بها، ومن أهمها حصن الأكراد وحصن عكار، فأصبح بمقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها والاستيلاء عليها، ولكن الأنباء الواردة بخروج حملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع أنقذت طرابلس من السقوط مؤقتا، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس عاد مسرعا إلى القاهرة خوفا من أن يعيد الملك الفرنسي لويس التاسع الكرة ويهاجم مصر، واهتم بتحصينها وأعلن حالة الاستنفار في صفوف الجيش والأسطول، وأهمل أمر طرابلس (١).

ويبدو أن ملك فرنسا كان يريد فعلاً أن يكون اتجاه الحملة الصليبية نحو المعاقل الإسلامية في الشرق العربي، لولا أن أخاه شارل دي أنجو الذي كان ملكا على جزيرة صقلية، أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصي، فيقول أبو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار: " وسبب نزول الفرنسيين تونس، قيل: إنه ذكر اسمه يومًا بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي، فهضم من جانبه، وقال: هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه - يشير إلى المماليك -، فبلغت تلك المقالة الفرنسيس - أي لويس التاسع - فحقد لها وعزم على غزو تونس " (٢).

والواقع أن هذه الرواية - إن صحت - لا تعدو أن تكون سبباً مباشراً فقط، أما السبب الحقيقي فيرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة إلى صقلية التي كان يحكمها شارل أخو الملك الفرنسي كما هو معروف، ويكفي أن ننبه الأذهان في هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الأغالبة على القاضي

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣١ - ٣٣٣، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٢٦٩، أنور زقلمة، المماليك في مصر، ص ٣٧.

(٢) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٢٩، نقلا عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٧.

القيرواني أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م. وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية. ولهذا نجح شارل في إقناع أخيه لويس في تحويل تلك الحملة إلى تونس [١].

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطئ التونسية حتى أصيب الملك الفرنسي لويس التاسع بحمى شديدة مات على إثرها، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة، فأخذ يسير وفق أهوائه حتى أزال عنها صفتها الصليبية. وانتهى أمر هذه الحملة بإجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصي الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين. وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضعيفة التي أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها [٢].

كانت لدى الظاهر بيبرس جرأة وخبرة جعلته يدرك مدى خطورة موقع جزيرة قبرص والتي كان يعول عليها الصليبيون كثيراً في هجماتهم على المسلمين، لا سيما وأن هذه الجزيرة قد آل حكمها للملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر بأطماعه الصليبية في الشام، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك، ولذا فإن الظاهر بيبرس قد جرد أسطولاً ضخما لمهاجمة قبرص والاستيلاء عليها وحرمان الصليبيين من الاستفادة منها وتجنيب المسلمين خطرهم الآتي منها، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ تحطم هذا الأسطول عند شواطئ قبرص بسبب هبوب عاصفة شديدة [٣].

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة على بلاده ظن أن ذلك نصراً حققه على دولة المماليك، فأرسل إلى بيبرس رسالة يسخر فيها منه، فرد عليه بيبرس قائلاً: "... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٧.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٨.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٤، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

العجب،... وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح... ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطايع - سفن -، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة،... وما كل من أعطي مقذافاً قذف، وما كل من أعطي السيف أحسن الضرب به أو عرف... " [(١)].

ولم يلبث الظاهر بيبرس أن عاد مرة أخري إلى الشام أن تأكد لديه انتهاء الحملة الصليبية على تونس بالفشل الذريع، ففي العام ١٢٧١ م كانت قوات الظاهر بيبرس تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا قوامها ثلاثمائة فارس، وثلاثمائة سفينة، غير القوات التي كانت قد سبقته إلى الشام، وبالرغم من ذلك فقد شدد بيبرس من هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبي بوهيمند السادس عقد هدنه وصلحا مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سينين [(٢)].

وحاصل الأمر أن الإمارات الصليبية في الشام بدأت تشعر بخطورة الأمر بعد فشل الحملة الصليبية الفرنسية على تونس، وشعرت أن الغرب الأوربي بدأ يتخلى عنهم ليصارعوا دولة المماليك وحدهم فسارعوا إلى طلب الصلح وعقد الهدنة مع الظاهر بيبرس، الذي وافق على إبرام الصلح وعقد الهدنة، وتم الصلح بالفعل بين بيبرس والإمارات الصليبية بوجه عام سنة ١٢٧١ م [(٣)]

ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين بيبرس والإمارات الصليبية تلك الاتفاقية التي عقدتها معه إزابيلا، ملكة بيروت عام ٦٦٧ هـ (١٢٦٨م) ومدتها عشر سنوات، فقد ذكر القلقشندى أن هذه الملكة قد وثقت ببيبرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب حب السفر إلى

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٤.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٢ - ٥٩٣، النويري، نهاية الأرب، ٣ / ٣٣١ - ٣٣٢.
(٣) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٣٤٣ - ٣٤٤.

جهة ما، تذهب بنفسها إلى بيبرس وتستودعه بلادها، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص قام بيبرس بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو. لهذا اتخذت لنفسها حرسا من المماليك حتى ماتت عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٤م)، وقلدتها في هذه السياسة أختها وخليفتها حتى استولى المسلمون على بيروت (١).

ويجمل القلقشندى بعض منجزات الظاهر بيبرس الجهادية بقوله: "... وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البيرة في سنة تسع وخمسين وستمائة والكرك في سنة إحدى وستين، وحمص في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة، وقيسارية وأرسوف في سنة ثلاث وستين، وصفد في سنة أربع وستين، ويافا والشقيف، وأنطاكية في سنة ست وستين، وحصن الأكراد وعكا وصافيتا في سنة تسع وستين، وكسر التتار على ألبيرة بعد أن عدى الفرات خوضاً بعساكره في سنة إحدى وسبعين؛ وفتح قلاعاً من بلاد سيس في سنة ثلاث وسبعين ودخل بلاد الروم، وجلس على كرسي بني سلجوق بقيسارية الروم (٢).

وبعد حياة حافلة بالجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين والمغول توفي بيبرس بعد تولاه التعب سنة ١٢٧٧ م/ ٦٧٦ هـ (٣).

يقول أبو المحاسن ابن تغر بردي عن الظاهر بيبرس: " وقال الحافظ الذهبي في تاريخه: كان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليقاً للمملكة لولا ما كان فيه من الظلم، والله يرحمه ويغفر له؛ فإن له أياماً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة. انتهى كلام الذهبي، رحمه الله... قلت: وكان الملك الظاهر - رحمه الله - ملكاً شجاعاً،

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٣٥.
(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ١ / ٤٨٨.
(٣) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

مقداماً، خبيراً بالحروب، ذا رأي وتدبير وسياسة، ومعرفة تامة. وكان سريع الحركات، كثير الأسفار، نالته السعادة والظفر في غالب حروبه، وفتح عدة فتوحات من أيدي الفرنج... وله مآثر بالقاهرة ودمشق وغيرها. وبني عدة جوامع، ومدارس، وقناطر، وجسور مشهورة به بسائر الأقاليم " (١).

يقول بدر الدين العيني: " كان شهما، شجاعا، سخيّا، عالي الهمّة، بعيد الغور، مقداما، جسوراً، معتنياً بأمر السلطنة، متحلّيا بها، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعائر الملك.

وفي تاريخ النويريّ: وكان ملكًا جليلاً، شجاعًا، مهينًا، حسن السياسة، كثير النحيّل، وكان عسوفًا جباراً، كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصًا لأهل دمشق، وكان متنّبها، شهمًا، لا يفتر ليلا ولا نهارًا عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، وكذلك جيشه. " (٢)

ومما رثى به ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر يرثي به الملك الظاهر:

أبــدًا عليــك تحيّــة وســلام ::: يا قبر من فجعــت بــه الإســلام

يا تربة لولا الحيــاء مــن الحيــا ::: أمسى سجال الدمع فيك ســجام

يا دمع عبني مثل دمــع ســحابة ::: هيهــات بــين الــدمعتين زحــام

فســبقت كــل ســحابة هطالــةٍ ::: يــثني عليهــا منــدّلٌ وبشــام

تنهل منك نوال ســاكنك الــذي ::: من كفه فــوق الســماح يســام

الظاهر الســلطان مــن بمصــابه ::: هدّ الهدى وتضعضــع الإســلام

وغدت دمشــق بقــبره وحلولــه ::: فيها نتيه علــى الوجــود شــام

قبر به تتضــاعف الأقســام مــن ::: بركاتــه وتوكــد الأقســام

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨.
(٢) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ١/ ١٥٣.

قبربـــــه تتوســـــل الآمـــــال في ::: حاجاتهـــا وتصـــرف الأحكـــام
قبر الـــذي لـــو أنصـــفته قلوبنـــا ::: مـــا أصـــبحت لمســـرّة تســـتام
قـــبر الـــذي قلـــع القـــلاع ::: ســـكانها ولـــه الحصـــون خيـــام
قبر الذي قهر التتـــار فأصـــبحوا ::: ولهـــم إذا نـــاح الحمـــام حمـــام

وقال بيبرس: قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يرثيه أبياتًا أولها:

ما مثل هذا الرزء قلـــب يحمـــل ::: كـــلا ولا صـــبر جميـــل يجمـــل
الله أكـــــبر إنهـــــا لمصـــــيبةٌ ::: منها الرواســـي خيفـــةً تتقلقـــل
مـــا للرمـــاح تخولهـــا رعـــدة ::: ألتركها أن لـــيس تعقـــل تعقـــل
لهفى على الملك الذي كانت بـــه ::: الدنيا تطيب وكـــلّ قفـــر مـــترل
الظاهر السلطان من كانـــت لـــه ::: منن على كـــلّ الـــورى وتطـــول
لهفي علـــى آرائـــه تلـــك الـــتي ::: مثل السهام إلى المصـــالح ترســـل
لهفي على تلك العزائم كيف قـــد ::: غفلت وكانت قبـــل ذا لا تغفـــل
سهم أصاب وما رثى مـــن قبلـــة ::: سهم لـــه في كـــل قلـــب مقتـــل
أنا إن بكيت فإن عذري واضـــحٌ ::: ولـــئن صـــبرت فـــإنني أتمثـــل
خلـــف الســـعيد لنـــا الشـــهيد ::: فأدمعٌ منهلةٌ في أوجه تتـــهلل [(١)]

ولا شك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك، من دولة ناشئة إلى دولة قوية، مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتمموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين.

لهذا ذاع صيته، واشتهرت سيرته دونًا عن سائر السلاطين. لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ١٥٥.

الظاهرية، أو سيرة الظاهر بيبرس والتي تصور شخصية بيبرس، وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان، إذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام إلى دولة راسخة الأقدام [١].

* * *

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٤٠.

الأشرف خليل بن قلاوون

من مشاهير أعلام المسلمين

الأشرف خليل بـن قلاوون
[٦٦٦ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٦٨ ـ ١٢٩٣م]

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي رحمهما الله، أحد أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية المملوكية البحرية التي حكمت دولة المماليك العظمى أكثر من مائة قرن من الزمان.

ولد سنة ٦٦٦هـ في مصر، ونشأ في كنف والده الأمير ثم السلطان قلاوون، حيث أجواء الحرب والجهاد والقتال.

كان المنصور قلاوون قد ترك ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد، والأمير أحمد الذي مات في حياة أبيه، واستقر الرأي على أن يكون الأشرف خليل هو السلطان على البلاد فجلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد السابع من ذي القعدة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠ م [١].

ثم تولى السلطان الأشرف خليل السلطنة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، بعد وفاة أبيه قلاوون خلفاً لوالده، وذكر المؤرخون أنه في هذه السنة تصدق بصدقات كثيرة.

فجدد له الأمراء والجند البيعة، وأخذ في ترتيب أمور مصر، فأبقى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائباً للسلطنة في مصر،

(١) المقريزي، السلوك، ١ ٧٥٦ ـ ٧٥٧، ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٣ ـ ٤، أبو الفدا، المختصر، ٤ / ٢٤.

وخلع فيها بالوزارة على الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقي، وكان الأمير حسام الدين لاجين نائبه في دمشق ومن بعده علم الدين سنجر الشجاعي ثم عز الدين أيبك الحموي شمس الدين بن السلعوس، كما أطلق الأمير زين الدين كتبغا - السلطان فيما بعد - ورد عليه أقطاعه..

وقد سعى الأشرف خليل منذ توليه السلطة إلى فرض هيمنته الكاملة على شؤون الحكم والحد من تسلط أمراء المماليك، وتركت مساعيه هذه بصمات قوية على عهده القصير، فلم تكد قدم الأشرف خليل ترسخ في الملك حتى راح كبار الأمراء، الذين كان لهم باع طويل في عهد أبيه، يتآمرون عليه، فصادر أكثرهم وأقصاهم عن أعمالهم، وقتل بعضهم مثل حسام الدين طرنطاي، وسجن عدداً آخر منهم مثل شمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين بن جرمك الناصري، وحسام الدين لاجين، وبدر الدين بَيْسَرى، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوري وغيرهم، وأطلق جماعة منهم بعد أن سجنهم.

وكان رحمه الله كريماً حتى التبذير، واهتم بالعمران وبتحصين مدن بلاد الشام بعد خروج الصليبيين منها، وهدم الحصون التي كان الفرنج يلوذون بها، كما جدد قلعة حلب بعد الخراب الذي أصابها من هولاكو، ورمم قلعتي دمشق وبعلبك وزاد فيهما، وبنى المسجد الجامع في طرابلس، وعدداً من المدارس والدور في دمشق والقاهرة، ومنها المدرسة الأشرفية في القاهرة، وكان الملك الأشرف قد أنشأها سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م عندما كان وليًّا للعهد ثم أتم عمارتها وزخرفتها بعد أن تسلطن فنسبت إليه.

عزم السلطان الأشرف على تطهير الساحل المتوسطي الشامي من الصليبيين وتحرير بقية المدن التي يحتلونها امتدادًا لرحلة جهاد مقدسة طويلة قادها قبله عماد الدين زنكي ونور الدين محمود

وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وأبوه المنصور قلاوون.

فبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامي من مصر في ربيع الأول سنة ٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١ م، ووصل عند أسوار عكا بعد مسير شهر تقريبًا، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق، وكان عددها اثنين وتسعين منجنيقا استغرق نصبها أربعة أيام، وفي الوقت نفسه جاءت جموع الصليبيين إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة في مقاومة الحصار، وفي داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت، وأخذت المنظمات الرهبانية العسكرية تستدعي كل ما يمكن من فرسانها في أوربا، كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الإنجليز، وجاءت قوات من قبرص،... بيد أن هذا كله لم يجد نفعا أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاوون الذي اقتحم المدينة في يوم الجمعة ١٧ جمادي الأولى سنة ٦٩٠ هـ. وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا... وهرب الفرنج في البحر، وهلك منهم خلق كثير من شدة الازدحام والتدافع للنجاة والهرب، (١) وكانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوما، ثم سقطت بعد أن ظلت في أسر الفرنج الصليبيين على مدي تاريخ الوجود الصليبي تقريبا، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الصليبية الثالثة (٢).

بعد عكا، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية بالشام تباعا، وبذلك عادت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخري. ودالت دولة الفرنج بعد أن استمرت في الوجود مائتي سنة تقريبا. بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٧٦٢ - ٧٦٥، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ٨/ ٣٠٨ - ٣١٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١ / ١٣٧ - ١٣٨، العيني، عقد الجمان، ٣ / ٥٦ - ٦٥، النويري، نهاية الأرب، ١٣/ ١٩٧ - ١٩٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

الصليبية " فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص ورودس لمحاولة إعادة بث الحياة في الجسد الصليبي الميت على طوال القرنين التاليين، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات صليبية جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية، والتحكم في طرق التجارة العالمية ومحطاتها، ومن ناحية أخرى استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدي دورها التاريخي في المواجهة الطويلة والمضنية، على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها في صالح الجهد الحربي، كما كان طوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية (١).

تحول الأشرف بعد تحرير الشام من الفرنجة لقتال المغول في الجزيرة الفراتية والعراق، فقصد قلعة الروم على الفرات في رجب سنة ٦٩١هـ/ تموز ١٢٩٢م فاحتلها بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وأسر أميرها ورؤوس أصحابه، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، وزينت دمشق سبعة أيام احتفالاً بالنصر.

ولما شعر ملك أرمينية هيثوم الثاني بقوة موقف الملك الأشرف خليل، تخلى له بعد عام من ذلك التاريخ عن قلاع بَهَسْنا ومرعش وتل حمدون التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى حلب، وبعد أن رتب الأمور في الشام عاد الملك الأشرف خليل إلى مصر.

ودخل السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون دمشق في أبهة النصر ومكث بها حتى اطمأن على زوال الخطر نهائيًّا ثم قفل راجعًا إلى القاهرة في أواخر رجب فدخلها في تاسع شعبان ٦٩٠هـ في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهودا.

واستمرت رحلة جهاد ذلك السلطان المجيد، ففي التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٩١هـ أمر بتجهيز الجيوش لفتح قلعة الروم، ثم خرج من القاهرة في ثامن ربيع الثاني، ولحقت به

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

جيوش المظفر تقي الدين صاحب حماة، وخرج بالجيوش جميعاً قاصداً حلب ومنها إلى قلعة الروم وضرب عليها حصاراً عظيماً استخدم فيه نحو ثلاثين منجنيقاً، حتى افتتحها عنوة في حادي عشر رجب ٦٩١هـ، ودخل السلطان الأشرف دمشق منتصراً في الثلاثاء تاسع عشر شعبان، سائقاً الأسرى ومن بينهم ملك قلعة الروم، ورؤوس القتلى على رؤوس الرماح، واحتفل الناس بدخوله ودعوا له، وفي خضم ذلك النصر العظيم بعث السلطان بحملتين إلى كسروان والخزر لتأديبهم إثر ممالئتهم الفرنج على المسلمين.

ونظم الشعراء القصائد الحسان في ذلك الفتح، ومنها قصيدة شهاب الدين محمود:

لك الراية الصفراء يقدمها النصر ::: فمن كيقباذان رآها وكيخسرو
إذاخفقت في الأفق هدّت بنورها ::: هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وفتحٌ أتى في إثر فتح كأنما ::: سماء بدت تترى كواكبها الزهر
فما قلعة الروم التي قد فتحتها ::: وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
فيا أشرف الأملاك فزت بغزوة ::: تحصل منها الفتح والذكر والأجر
ليهنئك عند المصطفى أن دينه ::: توالى له في يمن دولتك النصر
فسر حيثما تختار فالأرض كلها ::: تطيعك والأمصار أجمعها مصر

وفي جمادى الأولى ٦٩٢هـ خرج السلطان بجيوشه من مصر إلى الشام قاصداً فتح قلعة سيس، فدخل دمشق في تاسع جمادى الآخرة، فلما تهيأ للغزو إذا بصاحب سيس يرسل رسله يطلبون الصلح، واتفق الطرفان على أن يتسلم رسل السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع هي بهسنا ومرعش وتل حمدون، ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً، إذ كانت هذه القلاع مصدر أذىً للمسلمين في الماضي.

وقفل السلطان عائداً إلى القاهرة في أواخر رجب سنة ٦٩٢هـ.

وبالرغم من أن الأشرف خليل نجح نجاحًا كبيرًا في السياسة الخارجية والأمور العسكرية لا سيما مع المغول والصليبيين، إلا أنه

لم يستطع ضبط الأمور داخل دولته بنفس الكفاءة التي أظهرها في السياسة الخارجية، فلم يستطع ترويض الأمراء الطامحين في منصب السلطنة، ولم يجد الوسيلة المثلي التي يتعامل بها مع طموحاتهم وأطماعهم، فلم يكد الأشرف يتولي السلطنة حتى بلغه أن حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة يعمل على التخلص منه، فقبض عليه وقتله وصادر أملاكه، ونقل ما تحويه خزائنه إلى بيت المال، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا وفوض إليه السلطنة، فأوغرت هذه التصرفات صدور كبار الأمراء (١).

ولم يكن حسام الدين طرنطاي وحده الذي نكل به الأشرف خليل بل لحقه علم الدين سنجر الذي عزل من منصب الوزارة سنة٦٩٠ هـ (٢).

وبعد قليل انقلب الأشرف خليل على نائب السلطنة الجديد بدر الدين بيدرا واستعاد بعض الأراضي التي كان قد استولي عليها وضمها إلى أملاكه (٣).

وعلي الرغم من أن السلطان الأشرف خليل كان ينقم على بيدرا ويأخذ عليه عبثه بأموال الدولة واستيلاء نوابه على متاجر الإسكندرية ووضع أيديهم على كثير من الجهات، فإنه ما لبث أن خشي بأيه فحاول استرضائه بألف دينار بعثها إليه، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح، واغتنم بيدرا فرصة ركوب السلطان للصيد وسار بصحبة حسام الدين لاجين المنصوري، وشمس الدين قرا سنقر وسيف الدين بهادر المنصوري وغيرهم لتنفيذ المؤامرة التي دبرها للخلاص من الأشرف خليل، وما لبث أن ضربه بالسيف وتبعه سائر الأمراء الذين أجهزوا عليه بالسيوف ومزقوا جسده شر ممزق، وكان ذلك في يوم الاثنين ١٢ من محرم سنة ٦٩٣ هـ،

---

(١) الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٩/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٧٦١، الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٩/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ /٧٨٢ - ٧٨٣.

وتركوا جثمانه ملقي في المكان الذي قتل فيه يومين كاملين حتى حمله الأمير عز الدين أيدمر العجمي ونقله إلى القاهرة حيث دفن بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وقد قتل الأشرف خليل وهو في الثلاثين من عمره بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات [١].

وعلى ما يبدو أن الأشرف خليل قد وقع تحت تأثير وشاية البعض من خاصته ووزرائه الذين زينوا له التنكيل والتقليل من شأن وزراء وأمراء وأهل الحل والعقد في دولة أبيه وخاصة وزيره شمس الدين محمد بن السلعوس [٢] الذي كان مسيطرا على فكر وعقل

(١) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦، المقريزي، السلوك، ١ / ٧٩٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤، ٣٠.

(٢) كان هذا الوزير يشتغل بالتجارة في دمشق، ثم أخذ يتنقل في بعض الوظائف حتى ولي الحسبة والنظر في ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام، فجمع أموالاً كثيرة من ضياع كان قد استأجرها لحسابه، وما أن قدم مصر في أيام السلطان قلاوون، وسعى لدى الأشرف خليل ولي عهد الدولة المملوكية إذ ذاك حتى عينه ناظرًا لديوانه بمصر، غير أنه سرعان ما أساء التصرف وابتز أموال بعض المقطعين مما حدا بالسلطان قلاوون إلى عزله وتعيين فخر الدين بن الخليل بدلا منه.
ولما حل موسم الحج توجه ابن السلعوس إلى الحجاز وظل فيها إلى أن آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل، الذي بعث في طلبه وكتب إليه بخطه: يا شقير، يا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية، ولما تولى الوزارة للأشرف زاد نفوذه في الدولة المملوكية بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد الأمور وجعل من اختصاصه الإشراف على شؤون الأمراء، وعلت مكانته حتى أصبح لا يسير إلا في موكب من الجند وأصحاب الدواوين، وبين يديه القاضيان الشافعي والمالكي يسير أمامهما القاضيان الحنفي والحنبلي، ثم نظار الدولة. يقول النويري: وكان شمس الدين بن السلعوس هذا، تاجراً من أهل دمشق، ولم يكن من التجار المياسير. ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة. حتى كان التجار فيما بينهم ينعتونه بالصاحب استهزاء به. ثم تعلق بالخدم، وانتمى إلى تقي الدين توبة التكريتي وزير دمشق، في الدولة المنصورية، فاستخدمه في بعض الجهات. وتنقل إلى أن ولي نظر الحسبة بدمشق، في شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم. ثم ولي نظر ديوان الملك الأشرف بالشام، فأظهر الاجتهاد، واستأجر للملك الأشرف ضياعاً بالشام، وعمل له متجراً، وحصل من ذلك أموالاً، فتقدم عند الملك الأشرف، ومال إليه.

الأشرف خليل بن قلاوون حتى أورده المهالك.

* * *

وحضر إلى باب الملك الأشرف، في صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة. واستناب عنه في نظر الحسبة بدمشق والديوان الأشرفي، القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن الشيرازي. ولما حضر إلى باب الملك الأشرف، نقله إلى نظر ديوانه نيابة، عوضاً عن تاج الدين بن الأعمى. وخلع عليه خلع الوزارة. واستمر في نظر ديوان الملك الأشرف ووكالته، إلى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة. فاتفق أن الملك الأشرف، خلع عليه خلعة سنية، تشبه خلع الوزراء. فرآه السلطان الملك المنصور، وعليه تلك الخلعة، فأنكر هيئته، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاي عنه. فقال: هذا وزير الملك الأشرف، وذكر مساويه للسلطان. فغضب السلطان الملك المنصور لذلك، وأنكره. وأمر بإحضاره، فأحضر بين يديه، فأنكر عليه كونه خدم ولده، بغير أمره، ولا أمر نائبه، ولا وزيره. وأمر السلطان بنزع تلك الخلعة، التي ألبسها، فنزعت. وسلمه إلى شاد الدواوين يومئذ، وهو الأمير زين الدين أحمد الصوابي، وأمر بمصادرته، والإخراق به، وضربه. وأرسل إليه الأمير حسام الدين طرنطاي، أن يوقع به الأهنة والإخراق، ويبادر بضربه. وأرسل إليه الملك الأشرف، إلى مشد الدواوين، يستوقفه عند ذلك، ويتوعده إن ناله منه سوء. فخاف للشد المذكور غائلة الملك الأشرف، وتوقف عن الإخراق به. ورسم عليه في قاعة، كان المشد يجلس فيها، في وقت استراحته. ثم تلطف الملك الأشرف في أمره، مع الأمير حسام الدين طرنطاي، وراسله بسببه. وتكررت رسائله إليه، وإلى غيره في معناه، حتى حصلت الشفاعة فيه عند السلطان، فأطلقه. وأمر السلطان بصرفه، فصرف، ولزم داره. وكانت هذه الواقعة من أضر شيء على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومن أكبر أسباب القبض عليه وقتله.

واستمر الصاحب شمس الدين بداره إلى زمن الحج، فتوجه إلى الحجاز الشريف. واتفقت وفاة السلطان الملك المنصور، وسلطنة الملك الأشرف، كما تقدم، فكتب إليه يعلمه بذلك. ويقال: إن السلطان كتب بخطه إليه، بين سطور الكتاب، يا شقير، يا وجه الخير، عجل بالسير، فقد ملكنا.

فلما وصل الأشرف خليل إلى السلطان، فوض إليه الوزارة، ومكّنه من الدولة تمكيناً عظيماً، ما تمكن وزير قبله مثله في دولة الترك. وجرّد في خدمته جماعة من المماليك السلطانية، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، ويقفون بين يديه، ويمتثلون أوامره. فعظم بذلك شأنه، وتعاظم في نفسه واستخف بالناس. وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر الأمراء يدخلون إلى مجلسه، فلا يستكمل لهم القيام. ومنهم من لا يلتفت إليه. نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ / ٣٤٦.

العز بن عبد السلام

من مشاهير أعلام المسلمين

سلطان العلماء العز بن عبد السلام

في تاريخنا الإسلامي الزاهر نماذج رائعة من العلماء العاملين الذين أدوا رسالتهم على أكمل وجه، فكانوا نبراساً يستضاء بهم في كل زمان، ونماذج يقتدى بها في وقت تُفتقد فيه القدوة الصالحة، والكلمة الجريئة، والمجابهة الصريحة في سبيل إعلاء كلمة الله...

وشيخنا العز بن عبد السلام هو من ذلك الطراز الفريد الذي يجب أن نستلهم سيرته في حياتنا المعاصرة، فقد كان هذا الرجل أنموذجاً رائعاً للسياسي البارع، والعالم المستنير، والاجتماعي المخلص، المتعبد على طريقة السلف الصالح، فكان أمة في عصره أحيا الله به موات المسلمين.

ولد عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (المعروف بالعز بن عبد السلام) عام ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) في دمشق ونشأ بها، وتفقه على أكابر علمائها، فبرع في الفقه والأصول والتفسير والعربية، حتى انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصد بالفتاوى من كل مكان.. فاستحق لقب " سلطان العلماء " بجدارة كما أطلقه عليه تلميذه ابن دقيق العيد.

اشتهر بعلمه وزهده، وتعلم على يد قاضي قضاة (دمشق) الشيخ (جمال الدين بن الحرستاني) وغيره من الأساتذة الكبار، حتى أصبح عالمًا له مكانته المرموقة بين أساتذته.

وكان منصب الخطابة في الجامع الأموي (بدمشق) منصبًا عظيمًا لا يتولاه إلا كبار العلماء، فتولاه (عز الدين بن عبد السلام)

فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصدع بكلمة الحق، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، فحارب كل بدعة، وأمات كل ضلالة، وكان يقول: (طوبى لمن تولى شيئًا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن)[1].

تفتحت عينا العز بن عبد السلام على أحداث جسام كان يموج بها العالم الإسلامي، وعاش ثلاثاً وثمانين سنة (ت ٦٦٠هـ) عاصر فيها أحداثاً سياسية مؤلمة.

فقد أدرك انتصارات صلاح الدين الأيوبي المجيدة، واسترداده بيت المقدس من أيدي الصليبيين (٥٨٣ هـ)، وشاهد دولة الأيوبيين في هرمها وآخر أيامها، وشاهد دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزّها، وشاهد بعض الحملات الصليبية على فلسطين ومصر، وشاهد الغزوة التترية المغولية الهمجية على الخلافة العباسية في بغداد، وتدميرها للمدن الإسلامية، وشاهد هزيمة التتار في عين جالوت بفلسطين بقيادة سيف الدين قطز سلطان مصر.

شاهد شيخنا كل هذه الأحداث، فأثرت في نفسه، وراعَه تفتت الدولة الأيوبية القوية - قاهرة الصليبيين - إلى دويلات عندما اقتسم أبناء صلاح الدين الدولة بعد وفاته: فدويلة في مصر، ودويلة في دمشق، ودويلة في حلب، ودويلة في حماة، وأخرى في حمص، ودويلة فيما بين النهرين. وبين حكام هذه الدويلات تعشش الأحقاد والدسائس، والصليبيون على الأبواب، والتتار يتحفزون للانقضاض على بلاد الشام ومصر.

إزاء هذه الأوضاع المتردية أخذ العز بن عبد السلام يدعو إلى أن يتحد سلطان الأيوبيين، وتتحد كلمة المسلمين لمواجهة الأخطار

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٠٩/٨، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٠٨/٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٠٣/٥.

المحدقة بهم. وكانت وسيلته في ذلك: الخطب على المنابر، والوعظ ونصح الأمراء، وقول كلمة الحق الجريئة التي ألزم الله بها العلماء..

وفي عام ٦٣٥هـ ولاه السلطان الكامل الأيوبي قضاء دمشق، لكنه لم يستمر فيه طويلا، بل تركه في العام نفسه عندما تولى الحكم (الصالح إسماعيل) الذي كان على خلاف مع الشيخ عز الدين؛ لأن الملك الصالح تحالف مع الصليبيين، وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وسمح لهم بدخول دمشق، وترك لهم حرية الحركة فيها، وشراء السلاح منها، وفوق ذلك وعد الصليبيين بجزء من مصر إذا هم نصروه على أخيه نجم الدين أيوب سلطان مصر، فلم يرضَ الشيخ عز الدين بهذا الوضع المهين، فهاجم السلطان في خطبه من فوق منبر المسجد الأموي هجومًا عنيفًا، وقطع الدعاء له في خطب الجمعة، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين أو التعاون معهم، ودعا المسلمين إلى الجهاد. ولكن أنّى يستجيب المتشبثون بكراسي الحكم إلى كلمة الحق، والتدبر في العواقب؟

ولما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق من الخلاف ما وقع، وعزله وألزمه داره - كما تقدم - فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.

فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم عندي بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه. فقيل: إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندي من العلم.

فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه منديلي وتلطف به واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فائتني به. وإن

خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانبي خيمتي.

فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت عليه وزيادة، أن تقبِّل يد السلطان. فقال له: والله ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده!! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال: افعلوا ما بدا لكم! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذي يقرأ؟ قالوا: نعم، قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم. فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها! ثم فارق الصالح القدس [(١)].

واعتقله جنود السلطان في نابلس، وظل في محبسه، حتى جاءت جنود مصر وخلصته، وتوجه الشيخ إلى مصر - وقد سبقته شهرته العلمية وغيرتُه الدينية وعظمته الخُلُقية - فاستقبله سلطانها نجم الدين أيوب، وأكرمه وولاه الخطابة في جامع عمرو بن العاص، وقلّده القضاء في مصر، والتف حوله علماء مصر وعرفوا قدره، وبالغوا في احترامه.. فامتنع عالم مصر الجليل الشيخ زكي الدين المنذري عن الإفتاء بحضوره احتراماً له وتقديراً لعلمه، فقال: " كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعيّن فيه " [(٢)].

ورغم المناصب الهامة التي تولاها الشيخ في مصر، فقد التزم بقول كلمة الحق، ومجاهرة الحكام بها في مصر، كما التزم بها من قبل في الشام، فهو لم يسعَ إلى المناصب الرفيعة، وإنما هي التي

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢١٠/٨، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١٦١/٢، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٣٠١/٥.
(٢) حسن المحاضرة ٣١٥/١.

سعت إليه لجدارته بها، ولم يكن يبالي بها إذا رأى أنها تحول دون الصدع بالحق وإزالة المنكرات، فقد تيقن من وجود حانة تبيع الخمور في القاهرة، فخرج إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد إلى القلعة فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته - على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون - قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة [١].

وعندما سأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان - وقد شاع هذا الخبر -: " يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردتُ أن أهينه لئلا تكبر نفسُه فتؤذيه. فقلتُ: يا سيدي، أما خفتَه؟ قال: والله يا بني استحضرتُ هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدّامي كالقط [٢].

ولم يتوقف الشيخ مرة عن مصارعة الباطل والصدع بكلمة الحق، مهما كلفه ذلك من المتاعب والتبعات، فقد ذكر أن جماعة من أمراء المماليك - في عهد السلطان أيوب - لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلّغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم فيه، واحتدم الأمر، والشيخ مصمم على أنه لا

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ٨/٢١٢.
(٢) المرجع السابق ٨/٢١٢.

يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلساً، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع عن قراره، فجرتْ من السلطان كلمة، فيها غلطة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمير أُخر، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة، قاصداً نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد (ستة أميال) إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم.

فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك! فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع واتفقوا معه أن ينادى على الأمراء؛ لبيعهم.

ثم حاول نائب السلطنة أن يلاطفه، فلم يفد معه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك، ولا تغير، وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله! ثم خرج كأنه قضاء الله، قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب، يبست يدُ النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله فبكى، وأخذ يسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خبّر، إيش (أي شيء) تعمل؟ قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتمّ له ما أراد،

ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير [١].

وحدث ذات مرة أن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فاشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله. وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه بعده.

وكانت لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام) مواقف إيمانية في ميدان الجهاد ضد التتار أعداء الإسلام والمسلمين، وكان له دور فعال في هذا الأمر، ولم يَرْضَ أن تتحمل جماهير الشعب وحدها نفقات الجهاد، وهو يعلم أن السلطان ورجاله لديهم أموال كثيرة فقال: إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحلي، ويبقى لكل الجند سلاحه، وما يركبه ليحارب عليه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ أموال الناس مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال، فلا.

وقد اشترك الشيخ (عز الدين) بنفسه في الجهاد المسلح ضد العدو، وكان دائمًا يحرض السلطان (قطز) على حرب التتار حتى كتب الله له النصر في (عين جالوت) عام ٦٥٨هـ(١٢٦٠م).

وهكذا تمضي حياة العز بن عبد السلام في كفاح متواصل،

(١) المرجع السابق ٢١٦/٨.

وتواضع جم، ونفس أبية مترفعة عن حطام الدنيا، فنال ثوابيْ الدنيا والآخرة...

ويختاره الله إلى جواره، وتمر جنازته تحت القلعة بالقاهرة، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها، فقال لبعض خواصه: " اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني " (١).

رحم الله سلطان العلماء، ورادع السلاطين، ونسأله تعالى أن يرزقنا من أمثاله.

* * *

(١) المرجع السابق، ٢١٥/٨، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٦/١، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٠١/١، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ /١١٨، على سالم النباهين، مجلة الأمة القطرية، العدد ٢٥، المحرم ١٤٠٣ هـ.

ابن تيمية

من مشاهير أعلام المسلمين

شيط الإسلام ابـن تيمية

لـم يقـيض الله لداعيـة إسـلامي، مـن الاهتمـام والدراسـة بمثـل مـا قـيض سبحانه لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة تعريفًـا وتأليفًـا ومتابعـة لمـا صـدر عنـه مـن كتـب ورسـائل، واهتمامًـا مـن خصـومه، حيـث يجـد المتـابع لترجمـة حياتـه التـي صـدرت فـي أكثـر مـن أربعين مصـدرًا قديمًا، علاوة على الدراسات الحديثة التي تـدافع عمـا تنـاولـه الخصـوم لهذا المجاهد بلسانه وقلمه، ونفسه وماله، هو وتلاميذه فـي كل زمـان ومكان، وحتى يومنا هذا.

فمـا زاده الله بتجريح الخصـوم إلا شـرفًا واتسـاع سـمعة؛ إذ بقيـت آراؤه المدعمة بالدليل العقلـي والنقلـي تـرد علـى كل قدح يوجـه إليـه، كما هيأ الله لهذا الشيخ من يعرف قدره، ويدرك سعة علمـه، ليذب عنـه، بين وقت وآخر؛ عرفانًا بمكانته، ومتابعة لآثاره، ونشـرًا لكتبـه، بعد الاسـتيعاب التـام لآرائـه التـي استمدها من معارفـه المتعددة، كمـا وصفه المترجمون لحياته.

وكـان مـن أوفـى مـن تـرجم لـه، الصـفدي فـي كتابـه: (الـوافي بالوفيات)، حيث نجتزئ من تلك الترجمـة قولـه: (هو أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبـي القاسم الحرانـي ابـن تيميـة، الشيخ الإمام، العالم العلامة، المفسر الفقيه، المجتهد الحافظ، المحدث شـيخ الإسـلام، نـادرة عصـره، ذو التصـانيف والـذكاء، والحافظـة المفرطة، تقي الدين أبو العباس ابـن العـالم المفتـي شـهاب الـدين، ابـن الإمام شيخ الإسلام، مجد الدين أبي البركات، مؤلف الأحكام، وتيميـة

لقب لجده الأعلى.

ولد بحران عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة، وتحول به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة، وتوفي عام ثمان وعشرين وسبعمائة. وسمع من ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير. وقرأ بنفسه على جماعة، وانتخب ونسخ عدة أجزاء، و(سنن أبي داود)، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين، والتأله، والذكر والصيانة، والنزاهة عن حطام هذه الدار، والكرم الزائد. ثم إنه أقبل على الفقه ودقائقه، وغاص على مباحثه، ونظر في أدلته وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف. وكان قوالا بالحق، نهاء عن المنكر، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة، ومسائله المفردة يحتج لها بالقرآن والحديث، أو بالقياس ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان أخطأ فله أجر واحد، وإن كان أصاب فله أجران. وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيح اللسان، سريع القراءة، تعتريه حدة، ثم يقهرها بحلم وصفح.

توفي محبوسًا في قلعة دمشق على مسألة الزيارة، وكانت جنازته عظيمة

إلى الغاية، دفن في دمشق، صلى عليه قاضي القضاة علاء الدين القونوي) [١].

وقد توسع ابن كثير - رحمه الله - في تاريخه (البداية والنهاية) في وصف يوم وفاته، وما أبداه الناس من حزن ودعاء في دمشق،

---

(١) الوافي بالوفيات ١ /٥٧ - ٧٤.

ومشاركة البلد بأكملها في تأبينه، رجالا ونساء وأطفالا، وذلك في حوادث سنة ٧٢٨ هـ [١].

أما محمد بن شاكر الليثي في كتابه: (فوات الوفيات) فإنه أورد بعضًا من الحكايات عنه، التي تنبئ عن فضله، وسعة علمه، ومن ذلك قوله: (حكي أن ابن تيمية قد شكا إليه إنسان من قطلو بك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت، وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة، فلما دخل إليه الشيخ، وتكلم معه في ذلك قال: أنا الذي كنت أريد أن أجيء إليك؛ لأنك رجل عالم زاهد - يعني: يستهزئ به - فقال له الشيخ: لا تعمل على دركوان [٢]ثم أردف الشيخ قائلا: موسى كان خيرا مني، وفرعون كان شرًّا منك، وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان... وكان قوالا بالحق، نهاء عن المنكر) [٣].

وقال الزركلي: ولد في حران، وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان.

وفي الدرر الكامنة: أنه ناظر العلماء، واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وهو دون العشرين [٤].

---

(١) انظر (البداية والنهاية)، ج ١٤ ص ١٣٥ - ١٤١.

(٢) كلمة مأخوذة عن الفارسية: دركوان، بمعنى: الخداع والحيلة.

(٣) فوات الوفيات، والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس ١ / ٧٤، ٧٥.

(٤) الأعلام للزركلي ١ / ١٤٤.

مكانته العلمية:

نشأ ابن تيمية، ومخايل الذكاء، وسيماء النجابة بادية عليه منذ حداثة سنه، وأعانه الله على حب العلم؛ لأنه ترعرع في بيت علم، فختم القرآن صغيرا، ثم أقبل على الفقه والحديث، وقد أعجب به شيوخه في قوة الحافظة والنباهة، ولقد وصفه كل من ترجم لحياته بصفات تدل على مكانته العلمية، حيث جمع كثيرًا من العلوم، وتبحر فيها، فهو مفسر وفقيه، وهو أصولي ومحدث، وهو ماهر في الحوار والجدل، وهو مفحم للفلاسفة في جداله معهم؛ لسعة مداركه في علم المنطق.

وكبرهان على ما منحه الله من حافظة نادرة، فقد روي أن أول كتاب حفظه في الحديث وهو لا يزال صغيرا، كتاب (الجمع بين الصحيحين) للحميدي، كما قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر.

وعلى مشاهير عصره - في جميع الفنون - تتلمذ ابن تيمية، حيث قال ابن قدامة حسبما قال الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣ هـ، في كتابه: (الكواكب الدرية في مناقب الإمام المجتهد ابن تيمية): وشيوخ ابن تيمية الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته: معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ وانتقى، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ في العربية، وأخذ بكامل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كليًا، حتى حاز قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، وغير ذلك.

هذا كله وهو - بعد - ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من

فرط ذكائه وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه [1].

كما قال عنه ابن عبد الهادي: (لا أعلم أحدًا من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثلما جمع ابن تيمية، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريبًا من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب) [2].

وقد أثنى على منزلته البزار - المتوفى عام ٧٤٩ هـ - أي بعد وفاة ابن تيمية بواحد وعشرين سنة - الذي عاصره، وعرفه عن كثب، فنافح عنه في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) وأعطاه ما يستحق من العرفان بمكانته، والتقدير لعلمه وفضله، وكان مما قاله عنه: وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء غالبًا، إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره.

فإنه لم يكن له مستعارًا، بل كان له شعارًا ودثارًا، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة، والنقد والقدم الراسخ في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفقه في جميع عمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته أكبر شهادة، حتى اتفق كل ذي عقل سليم، أنه ممن عنى نبينا ﷺ بقوله: **«إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»** [3]، فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين.

أما غزارة علومه فمنها:

ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله تعالى

(١) الكواكب الدرية، ص ٥٤.
(٢) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٦.
(٣) سنن أبي داود، الملاحم (٤٢٩١).

فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته، فإنه فيه الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم، يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس برمته، وهو في تفسير بعض آية منها.

ولقد أملى في تفسير قوله تعالى:{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾} [الإخلاص: ١]، مجلدًا كبيرًا وقوله تعالى:{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥] نحو خمس وثلاثين كراسة، ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلدا.

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ، أقواله وأفعاله وقضاياه، ووقائعه وغزواته، وسراياه وبعوثه، وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم، وفتاويهم وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة، فإنه كان رحمه الله، من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضارًا لما يريده منه، فإنه قل أن ذكر حديثًا في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به، إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقل أن يسأل عن أثر إلا وبين في الحال حاله، وحال أمره وذكره.

ومنها: ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم، وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل، وما روي عن كل منهم، من راجح ومرجوح، ومقبول ومردود، في كل زمان ومكان، وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه، وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه، حتى كان إذا سئل عن

شيء من ذلك، كأن جميع المنقول عن الرسول ﷺ وأصحابه والعلماء فيه، من الأولين والآخرين، متصور مسطور بإزائه، يقول منه ما شاء الله، ويذر ما يشاء، وهذا قد اتفق عليه كل من رآه، أو وقف على شيء من علمه، ممن لم يغطى عقله الجهل والهوى [١].

أما الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين المتوفى عام ٧١١ هـ، فإنه كان من أسرة صوفية متوغلة في الضلالة، وأبوه شيخ طائفة كبيرة، ولكنه قد عرف العقيدة الصحيحة؛ لتأثره بابن تيمية تلمذة وقراءة لكتبه، ومتابعة لحالته، وقد ألف كتابًا سماه: (التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار، في الثناء على شيخ الإسلام ابن تيمية، والوصاية به)، فقال بعد أن أوضح حال زمانه، وما فيه من المنكرات: ومن العجب أن كلا منهم يدعي أنه على دين الرسول ﷺ حتى كشف الله لنا، ولكم بواسطة هذا الرجل - ابن تيمية - عن حقيقة دينه، الذي أنزله من السماء، وارتضاه لعباده.

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقوامًا يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا.

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بين لكم أعلام دينكم، وهداكم الله به وإيانا إلى نهج شريعته، وبين لكم بهذا النور المحمدي ضلالات العباد وانحرافاتهم، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم، والصحيح من السقيم، وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة، الذين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، وهم بالشام إن شاء الله تعالى [٢].

---

(١) انظر: الأعلام العلية، ص ٢٢ - ٢٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن ١٣/٤٥، والاستسقاء ٢/٥٢١، ومسلم في الإمارة ٣ /١٥٢٣، ١٥٢٤، من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ: لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم وخذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون

ثم إذا علمتم ذلك، فاعرفوا حق هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقدره، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قلبه بموقع يستحقه، عرف حق ما قام به هذا الرجل بين أظهر عباد الله، يقوم معوجهم، ويصلح فسادهم، ويلم شعثهم جهد إمكانه، في هذا الزمان المظلم، الذي انحرف فيه الدين، وجهلت السنن، وعهدت البدع، وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا، والقابض على دينه كالقابض على الجمر، فإن أجر من قام بإظهار هذا النور في هذه الظلمات لا يوصف، وخطره لا يعرف. فشيخكم - أيدكم الله تعالى - عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية، فالله الله في حفظ الأدب معه، والانفعال لأوامره، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة، وحب من أحبه، ومجانبة من أبغضه وتنقصه، ورد غيبته، والانتصار له في الحق. واعلموا - رحمكم الله - أن هنا من سافر إلى الأقاليم - يعني نفسه - وعرف الناس وأذواقهم، وأشرف على غالب أحوالهم، فوالله، ثم والله، ثم والله، لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم - يعني ابن تيمية - علمًا، وعملاً، وحالاً وخلقًا واتباعًا وكرمًا، وحلمًا في حق نفسه، وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا، وعزمًا وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتباعًا لنبيه ﷺ) (١).

وما ذلك إلا أن مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية العلمية، كانت مثار الانبهار لمن عرفه عن كثب، أو تابع مجهوداته العلمية، أو المناظرات التي دارت بينه وبين مناوئيه، وإن ألف غرف من بحر المعرفة، وإن اتجه إلى موضوع أشبعه، وإن جابه علية المجتمع، كان ذلك الشجاع الذي يجهر بكلمة الحق، ولا يخشى في الله لومة

على الناس.

(١) التذكرة والاعتبار ص ٤٧ - ٥٠.

لائم، وإن اعتدي على العقيدة صال ونافح، وقرع الحجة بالحجة، وإن انتهكت السنة المحمدية انتصر لها، وبدأ التطبيق بنفسه، وأظهر الدليل الواضح الذي لا يقبل المداخل، إلا عن تعمد الكذب أو لرغبة الأهواء، وإن أوذي في سبيل الله، وما يدعو إليه ويدافع عنه صبر واستسلم.

أما إذا تطاول أعداء الإسلام على ديار المسلمين فإن ابن تيمية شجاع في ميدان القتال، مؤثر في الدعوة إلى الجهاد، مقدام عندما يحمي الوطيس، إذ طالما ضرب النموذج بنفسه في كل ميدان، يحاول فيه الأعداء النيل من الإسلام، فهو مجاهد بنفسه، وعلمه، ومنافح بلسانه وقلمه، يترسم خطى الصحابة والسلف الصالح من هذه الأمة في كل أمر.

آثاره العلمية:

إن عالمًا بمثل مكانة ابن تيمية، ومجاهدا بمثل حماسته، لجدير بالدراسة والاهتمام، حتى قيل: إنه لم يتزوج طوال عمره، حيث شغله الدفاع عن دين الإسلام، ودفاع الأعداء المتكالبين على ديار الإسلام، ففي الشرق بعدما زحف التتار على بغداد، وخربوا قاعدة المسلمين العلمية، وانتهت بذلك الدولة العباسية، اتجهوا صوب الشام؛ رغبة في الاستيلاء عليها، ثم الزحف على مصر، وفي الغرب قوى الصليبيين تبذل جهودها للتمكن مرة أخرى من الشام، بعد أن انتصر عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وفي الشمال الدولة العثمانية لم ترسخ أقدامها في بلاد الشام، واتجهت قواها إلى التوسع شرقًا وغربًا، وفي الجنوب نرى الجزيرة العربية منبع الرسالة قد أغفلت، فدب الجهل في البداوة من جديد، اللهم إلا في الحرمين وبعض الحواضر، حيث يوجد بعض العلماء.

وأما في الوسط حيث يوجد ابن تيمية في الشام، والعز بن عبد السلام في مصر، فإن الحال لم تكن بأحسن من غيرها، حيث دب

الوهن في النفوس، وانتشرت البدع، وكثر القائلون بغير علم،... في هذه الأجواء المضطربة، والفتن والبدع التي ظهرت، كان لا بد أن يشمر هذا العالم عن ساعديه، ويبذل هذا المجاهد ما يستطيع من حماسته، كي يؤثر فيمن حوله، تعليما وتدريسا، وتأليفا ومناظرة. ولذا يعتبر مجموع الفتاوى الذي حرص على تجميعه وإخراجه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله - وخرج في سبع وثلاثين مجلدا - نموذجا لآثار ابن تيمية العلمية، بما فيه من علم واسع، ومعارف متعددة، وإجابات سديدة وموفقة، وقد طبع لأول مرة بالرياض، منذ أكثر من ثلث قرن.

ولقد بلغ من متابعة العلماء لجهوده العلمية، وثنائهم على ما ترك من علوم ومعارف، تتمثل في مصنفاته، أن عجزوا عن إحصاء كتبه..

فهذا ابن الزملكاني يقول: (ولقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم، كما ألان لداود الحديد) (١).

وهذا الحافظ الذهبي يقول عن مؤلفاته: (وما أبعد أن تكون تصانيف ابن تيمية إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد) (٢).

وهذا الشيخ ابن عبد الهادي بن قدامة يقول: (وللشيخ - رحمه الله - من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل، وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط..).

ثم قال: (ولا أعلم أحدًا من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثل ما جمع... فمن ذلك ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلدًا، ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلدًا،

---

(١) تاريخ ابن الوردي، ٢/٤٠٦.

(٢) تاريخ ابن الوردي، ٢/٤٠٩، والكواكب الدرية، ص٦٥.

وقد بيض أصحابه بعض ذلك، وكثيرًا منه لم يكتبوه)، وكان - رحمه الله - يقول: (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم إبراهيم، علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي بالتراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلم إبراهيم، فهمني) [١].

كما ذكر العلماء والباحثون في الثناء على مكانة ابن تيمية العلمية الشيء الكثير، فهذا ابن دقيق العيد - المتوفى عام ٧٠٢هـ - يقول بعد ما اجتمع بابن تيمية سنة ٧٠٠هـ في مصر: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد، ويدع ما يريد) [٢].

وأما ابن سيد الناس اليعمري، المتوفى عام ٧٣٤هـ فقد قال بعد أن ذكر ترجمة المزي: (وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين، فألفيته ممن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا. إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته [٣].

وأما الذهبي الإمام الحجة في حكمه وأقواله على الرجال وتراجمهم، المتوفى عام ٧٤٨هـ فقد أثنى كثيرا على شيخه ابن تيمية، واعتبره في مواقع كثيرة من تآليفه نابغة عصره، وفريد زمانه في سائر علوم المعرفة، ونجتزئ من كلامه الطويل عنه، وإعجابه به ما يلي: (كان ابن تيمية آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأسًا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرا في النقليات، هو في زمانه فريد عصره؛ علمًا وزهدًا، وشجاعة وسخاء، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وكثرة تصانيف، وقرأ وحصل، وبرع

(١) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص٧٧، ٧٨.
(٢) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص٥٦، وتاريخ ابن الوردي، ٤ / ٤١١.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢ /٣٩٠، ٣٩١، والكواكب الدرية، ص٥٧، ٥٨.

في الحديث والفقه، وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها، ودقها وجلها، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمى المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلهم وبخسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه، ومحنه وتنقلاته، يحتمل أن ترصع في مجلدتين، فالله تعالى يغفر له ويسكنه فسيح جناته، فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، رأسا في العلم يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد، ولا لحظتها من فقيه.

وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار، التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلا عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيرًا، ويدري جملة صالحة في اللغة، وعربيته قوية جدًّا، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة

باليسير في المأكل والملبس) [1].

ويقول مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣هـ: (ولقد سئل يوما عن الحديث: " لعن الله المحلل والمحلل له " [2]، [3] فلم يزل يورد فيه وعليه، حتى بلغ كلامه فيه مجلدا كبيرا.

وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من نقض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم، وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية، والتوضيحات العقلية فمن العجب العجيب) [4].

ويقول تلميذه الحافظ عمر بن على البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ: (وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحد؛ لأنها كثيرة جدًّا، كبارًا وصغارًا، وهي منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه:

فمنها: ما يبلغ اثني عشر مجلدا كـ(تلخيص التلبيس على أساس التقديس) وغيره.

ومنها: ما يبلغ سبع مجلدات كـ(الجمع بين العقل والنقل).

ومنها: ما يبلغ خمس مجلدات ومنها: (منهاج الاستقامة والاعتدال) ونحوه.

ومنها: ما يبلغ ثلاث مجلدات كـ(الرد على النصارى) وشبهه.

ومنها: مجلدان كـ(نكاح المحلل)، (وإبطال الحيل)، و(شرح

(١) انظر: العقود الدرية، ص٢٢ - ٢٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ٤٤٨/١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، ٢ / ٢٢٧.

(٤) الكواكب الدرية، ص٨٢.

العقيدة الأصبهانية).

ومنها: مجلد ودون ذلك.. وهذان القسمان من مؤلفاته، فهي كثيرة جدًّا لا يمكنني استقصاؤها، لكن أذكر بعضها استئناسًا:

- كتاب: (تفسير سورة الإخلاص) مجلد.

كتاب: (الكلام على قوله تعالى:{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥] مجلد.

- كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) مجلد.

- كتاب: (الفرق المبين بين الطلاق واليمين).

- كتاب: (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان).

- كتاب: (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم).

- كتاب: (الكلم الطيب).

- كتاب: (إثبات الكمال).

- كتاب: (الرد على تأسيس التقديس).

- كتاب: (نقض أقوال المبتدعين)

- كتاب: (الرد على النصارى).

- كتاب: (إبطال الحيل ونكاح المحلل).

- كتاب: (شرح العقيدة الأصبهانية). - كتاب: (الفتاوى).

- كتاب: (الدر الملتقط).

- كتاب: (أحكام الطلاق).

- كتاب: (الرسالة).

- كتاب: (اعتقاد الفرق الناجية).

- كتاب: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

- كتاب: (تقرير مسائل التوحيد).

- كتاب: (الاستغاثة والتوسل).
- كتاب: (المسائل الحموية).
- كتاب: (المسائل الجزرية).
- كتاب: (المسائل المفردة).

ثم قال: ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته، وإلا فيمكن تعداد ما ينيف على المائتين، لكن لم نر الإطالة بذكره) [(١)].

وكان من أوفى من ذكر مؤلفاته رحمه الله، تلميذه: ابن قيم الجوزية في رسالته عنه، والصفدي في: (الوافي بالوفيات)، وابن رجب في: (طبقات الحنابلة).

ومن المتأخرين فند عبد السلام هاشم حافظ في كتابه عن ابن تيمية الذي طبع للمرة الأولى عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م حينما قال: (ومع بداية هذا القرن - الرابع عشر الهجري - بدأت تظهر مؤلفات الإمام ابن تيمية في طبعات مختلفة في الهند والشام ومصر، ولقد طبع معظم كتبة التي احتفظ لنا بها التاريخ في مجلدات تضم عديدًا من الرسائل، والكتب الصغيرة.

فهناك مجلد ضخم باسم: (مجموعة الرسائل الكبرى) في جزأين طبعا بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

الجزء الأول في ٤٧٥ صفحة، ويحتوي على هذه التصانيف:

١ - رسالة الفرقان بين الحق والباطل.
٢ - معارج الوصول إلى معرفة الأصول.
٣ - التبيان في نزول القرآن.
٤ - الوصية في الدين والدنيا.

---

(١) انظر كتاب: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) ص ٢٥ - ٢٧.

٥ - رسالة النية في العبادات.

٦ - العرش هل هو كري أم لا؟

٧ - الوصية بما جاء به رسول الله ﷺ، وبيان فضل أمته على سائر الأمم.

٨ - اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وهذه الرسالة عرفت باسم (العقيدة الواسطية) وطبعت كثيرًا.

٩ - الإرادة والأمر.

١٠ - المناظرة في العقيدة الواسطية.

١١ - العقيدة الحموية الكبرى.

١٢ - السؤال عن الاستغاثة برسول الله ﷺ هل جائزة أم محرمة؟ والجواب عن ذلك.

- أما المجلد الثاني ففي ٤٠٥ صفحات، ويضم الكتب التالية:

١ - رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل.

٢ - في الجواب عن القائل: كل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.

٣ - مراتب الإرادة.

٤ - في قوله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»** (١).

٥ - القضاء والقدر.

٦ - الاحتجاج بالقدر.

٧ - درجات اليقين.

٨ - بيان الهدى والضلال.

٩ - في سنة الجمعة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٨٩٣)، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤١٠).

١٠ - تفسير المعوذتين.

١١ - بيان العقود المحرمة.

١٢ - في معنى القياس.

١٣ - حكم السماع والرقص.

١٤ - الكلام على الفطرة.

١٥ - الكلام على القصاص.

١٦ - في مناسك الحج.

١٧ - الكلام على رفع الحنفي يديه في الصلاة.

- وفي عام ١٣٦٨هـ صدر أيضا كتاب مفرد باسم: (مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية) في ١٥٤ صفحة، بآخره رسالة لأحد تلاميذه، والكتاب يحتوي على أربعة مصنفات، أحدها مكرر من مجموعة الرسائل السابقة، وهذه الثلاث هي:

١ - رأس الحسين رضي الله عنه، بحث حول ما أشيع كذبًا عن نقل رأس الإمام الحسين إلى مصر.

٢ - الرد على ابن عربي والصوفية، وهو الكتاب المسمى: (الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم).

٣ - قتال الكفار ووجوبه.

٤ - أما المكرر فهو: بيان العقود المحرمة، الوارد في رقم (١١) أعلاه.

- وأما الرسالة التي جاءت في ختام الكتاب فهي لتلميذه الإمام الشيخ: شهاب الذين أحمد بن مري، واسمها: (الحث على جمع كتب الشيخ ونشرها)، وقد أرسل بها إلى علماء الحنابلة بدمشق يعزيهم في فقد الإمام، ويستحثهم على العناية بمصنفاته ونشرها.

- كذلك صدر مجلد يضم كتابين من مؤلفات الإمام أحمد، هما:

كتاب: (الجواب الباهر في زوار المقابر) في ٩٠ صفحة، وهو إجابة عن استفسار من الملك الناصر، وسائر الأكابر لمعرفة الحال، وما أفتى به في هذا الموضوع.

والكتاب الثاني: الرد على الأخنائي في ٢٣٢ صفحة، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، وقد كتب الإمام هذا الرد على ما جاء حول هذه الزيارة لقاضي القضاة الأخنائي بعد أن ألح عليه الكثيرون، في ضرورة إيضاح الحقيقة، ورد الافتراءات التي تقوى بها القاضي المذكور.

- ومن كتب الإمام الكبيرة: (مجموعة الفتاوى)، التي ظهرت في طبعتها الأولى سنة ١٣٢٦ هـ في خمسة أجزاء ضخمة تزيد على ألفين وخمسمائة صفحة، وقد تضمنت كل مناظراته، وآرائه، وأجوبته عن كثير من المسائل والفتاوى، ولقد طبع كتابه: (الاختيارات العلمية)، ملحقًا بالجزء الرابع، ومن هذه المجموعة الهائلة.

- كذلك كتابه النقدي الضخم: (منهاج السنة النبوية)، وأول ما طبع سنة ١٣٢١هـ، وعلى هامشه كتابة المرسوم: (بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول).

أما كتبه المعروفة الأخرى، فنذكر منها ما قد طبع أغلبه:

١ - السياسة الشرعية في أمور الدولة، طبع سنة ١٣٧٠هـ.

٢ - كتاب: مجموعة تفسير لست من سور القرآن الكريم هي: الأعلى، الشمس، الليل، العلق، الكافرون، البينة، طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٧٣هـ الموافق لعام ١٩٥٤م، بعد أن صححه وعلق عليه، ثم قدمه بالإنجليزية السيد عبد الصمد شرف الدين.

٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، طبع في أربعة أجزاء عام ١٣٢٢هـ.

٤ - المعجزات والكرامات، طبع سنة ١٣٤٩هـ.

٥ - نقض المنطق، طبع بمصر عام ١٣٧٠هـ في ٢١٠ صفحات.

٦ - الرد على المنطقيين، طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٦٨هـ في ٥٥٠ صفحة.

٧ - نظرية العقد - وهو كتاب: العقود، طبع عام ١٣٤٩هـ.

٨ - مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم، طبع سنة ١٣٤٩هـ في٦٥ صفحة.

٩ - رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

١٠ - الواسطة بين الحق والخلق.

١١ - الرسالة البعلبكية.

١٢ - الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم.

١٣ - رسالة في حقيقة الصيام. ١٤ - العقيدة التدمرية.

١٥ - العقيدة المراكشية. ١٦ - المسألة النصيرية.

١٧ - سؤال عن صحة مذهب أهل المدينة.

١٨ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

١٩ - مسألة الكنائس. ٢٠ - النبوات.

٢١ - الجامع في السياسة الإلهية.

٢٢ - كتاب الرد على النصارى.

٢٣ - أربعون حديثا برواية ابن تيمية.

٢٤ - جمع كلمة المسلمين.

٢٥ - الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان.

٢٦ - نقد تأسيس الجهمية.

٢٧ - تخجيل أهل الإنجيل.

٢٨ - الصارم المسلول على شاتم الرسول.

٢٩ - نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان.

٣٠ - الرسالة المدنية في المجاز والحقيقة.

٣١ - إيضاح الدلالة في عموم الرسالة.

٣٢ - رسالة في سجود القرآن.

٣٣ - رسالة في سجود السهو.

٣٤ - رسالة في أوقات النهي والنزاع.

٣٥ - رسالة في تنوع العبادات.

٣٦ - رسالة العبودية.

٣٧ - رسالة الحسبة في الإسلام.

٣٨ - رسالة المظالم المشتركة.

٣٩ - رسالة في زيارة بيت المقدس.

٤٠ - جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار.

٤١ - كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين.

٤٢ - مسألة الحلف بالطلاق.

٤٣ - مسألة العلو. ٤٤ - الرسالة القبرصية (١).

٤٥ - تفسير سورة النور.

٤٦ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية.

٤٧ - حقيقة مذهب الاتحاديين، أو وحدة الوجود وبطلانه بالبراهين النقلية والعقلية.

٤٨ - تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال.

٤٩ - قصيدة في مسألة القضاء والقدر (٢).

(١) كان الإمام قد كتب بهذه الرسالة إلى (سرجوان) ملك قبرص النصراني، يبين له فضل الإسلام، ويدعوه لرعاية المسلمين الذين تحت حكمه.

(٢) انظر كتاب: (ابن تيمية) لعبد السلام هاشم حافظ، ص ١٥٢ - ١٥٧.

هذا وإن غالبية هذه الكتب يشملها مجموع فتاوى ابن تيمية الذي أشرنا إليه، وقام عليه جمعًا ومتابعة وطباعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي بمعاونة ابنه محمد.

- كما خرج بطبعة كاملة ومحققة عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتابه القيم في أحد عشر مجلدًا: (درء تعارض العقل والنقل).

- وخرج عن طريق الجامعة أيضا في سبعة مجلدات بعد التحقيق كتابه:

(منهاج السنة).

ومن هذا ندرك أنه رحمه الله مكتبة كاملة في فنون المعرفة، التي سخرها للدفاع عن دين الإسلام، والدعوة إليه، ومحاربة الشوائب التي يراد إدخالها عليه؛ عقيدة وعملا.

شجاعته في الحق:

اتصف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بقوة القلب، ورباطة الجأش في كل موقف يمر به مع قوة إيمان، وحجة دامغة، مما نتج عنه شجاعة متناهية في سبيل عقيدة الإسلام، ومحاربة أعداء دين الله، وأهل البدع؛ بالبدن واللسان، وقوة الحجة.

وقد تحدث تلميذه البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ عن مظاهر عديدة من شجاعته في كتابه الذي خصه به، وسماه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، ومما قاله: (كان رضي الله عنه، من أشجع الناس وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم. وأخبر غير واحد: أن الشيخ - رحمه الله - كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعا أو رقة أو جبانة، شجعه وثبته وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبين له فضل الجهاد

والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنك[١]، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وأخبرني من لا أتهمه: أن الشيخ - رحمه الله - حين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين، فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلى كاذب. واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل؛ من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله للطغام: العدالة، وباطنه: مشحون بالفسق والجهالة) [٢] ومن قوته في الحق، وصدعه بالدعوة هدى الله قادة المغول للإسلام؛ لأن صدقه مع الله منحه الشجاعة والجهر بالحق، وجعل الله له بذلك القبول في القلوب.

وفي الدفاع عن دمشق، وفتح عكا، ومعركة شقحب وغيرها من المعارك، كان المثل النادر بالشجاعة والقوة، وإذا تفقد من معه فوجدهم ملتزمين بشرع الله، وحريصين على دينهم، كان يقول لهم:

سننتصر على الأعداء، فيقول له بعضهم: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا؛ لأن الله أمرنا بطاعته والاستعداد،

(١) التحنك هو: وضع العمامة تحت الذقن ولف طرفيها على الرأس.

(٢) انظر: (الأعلام العلية) الفصل الحادي عشر، ص ٦٣ - ٦٦، والفصل الثاني عشر ص ٦٧، ٦٨.

فأطعناه فيما أمر، واستعدينا لملاقاة العدو.

وفي حواره مع السلطان غازان - أحد ملوك التتار - لما ظهر على دمشق، ما يدل على قوة بأسه، وعدم خوفه من سطوته، وكان مما قاله حسبما ذكر الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣هـ في كتابة: (الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية)، قال الشيخ ابن تيمية للترجمان: (قل للسلطان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا، وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت. والسلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه... ثم خرج من بين يدي السلطان مكرمًا معززًا بحسن نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه الله ما أراده، وكان أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهليهم) [(١)].

وقد ذكر عبد السلام حافظ عنه مواقف كثيرة في شجاعة القتال الميداني، والتصدي للتتار، وفي قوة العزم، ومحاربة كل دخيل على منهج الإسلام السليم: من عقائد ومفاسد، وضلال وغواية، إلى درء للمحرمات، ومقاومة مصادرها، ومن ذلك:

في يوم ١٧ رجب عام ٦٩٩هـ نفذ الإمام عزمه على القضاء على آلات الشرب المحرم، فخرج بنفسه مع بعض رفاقه، يدورون على الحانات ومحال الخمور، يريقونها، ويكسرون آنيتها، بل ويعزرون أصحابها [(٢)].

وفي شهر رجب سنة ٧٠٤هـ قصد الإمام مسجد التاريخ، يرافقه

(١) الكوكب الدرية، ص٩٣، ٩٤.
(٢) انظر كتابه: ابن تيمية ص ٢٧.

نفر من أصحابه ومن الحجارين، حيث أمرهم بإزالة صخرة كانت تزار، وتنذر لها النذور بنهر (فلوط)، وعنها قال ابن كثير: (فقطعها - يعني ابن تيمية - وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك).

وفي أوائل شهر محرم سنة ٧٠٥هـ نراه يشارك أيضا في الحملة ضد فئات منحرفة تنكرت لبعض تعاليم الإسلام، ببلاد الجرد، والرفض، والتيامنة، وقد لحق به نائب السلطنة جمال الدين الأقرم في جنده المسلمين، فحاربوهم حتى أعلنوا الطاعة وأنابوا إلى الهدى (١).

وهكذا لو تتبعنا مواقفه الجريئة، وحماسته للذود عن حياض الإسلام، لوجدناها بكثرتها تنبئ عن مواقف مشرفة في الدفاع عن حمى الإسلام من أن يتطاول عليه أحد، ويبرز منها ردود وافية على أصحاب المعتقدات المتطرفة، وأتباع المذاهب المخالفة لحقيقة الإسلام، وما تنطوي عليه شريعة هذا الدين، مما جعل له خصومًا كثيرين، سواء من العامة أو من العلماء والفقهاء على اختلافهم، حيث كان ينقض ادعاءاتهم المريبة، ويعري مخالفاتهم لأصول الدين، ويرد بآراء قوية، لم يجرؤ مثله بالتصريح بها. وقد صدق الإمام مالك - رحمه الله - في قوله: (ما منا إلا راد ومردود عليه).

ما تعرض له من بلاء:

لا شك أن هذه الشجاعة والجرأة في الحق، مع الحرص على التصدي لأمور كثيرة تفشت في البيئة الإسلامية، نتيجة الجهل والبعد عن المنهج السليم، الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه، وتلقفه عنه أصحابه لينشروه في الآفاق، وعنهم أخذ السلف الصالح جيلا بعد جيل، هذا في بعض الجوانب المتعلقة بما أدخل على الدين نتيجة التقليد، والاستسلام لرغبات النفس، والانقياد للعلماء الذين يفتون بغير ما أنزل الله، حيث كان يخشاهم رسول الله ﷺ على أمته، هذه

---

(١) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٢٧.

الشجاعة والجرأة في الحق ما هي إلا هبة من الله لابن تيمية تبوأها بالصدق مع الله والنية المخلصة.

ولهذا فهو ينتصر على خصومه، ويظهره الله على كيد أعدائه، ثم يقابل أعمالهم بالصبر وقوة الاحتمال، فإذا قدر عفا وصفح، وقد حاول أعداؤه مرارا النيل منه، بل القضاء على حياته، ولكن حينما تمكن منهم عفا عنهم وقال: أما أنا فهم في حل من حقي، ومن جهتي، وكان القاضي زين الدين بن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية، إذ لم نبق ممكنا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا) (١).

ولقد حبس عدة مرات بسبب مكائد الخصوم، ووشي به إلى السلاطين لعله يقتل، لكن الله سبحانه ينجيه؛ لأن من حفظ الله حفظه، ومن كان مؤمنا حقا استحق دفاع الله عنه.

ودعي للمناظرات والخصومات عن ردوده على أصحاب الفرق والبدع، يقول تلميذه البزاز: (ولقد سجن أزمانا وأعصارا وسنين وشهورا، ولم يولهم - أي: المسيئين إليه والمخاصمين له - دبره فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارًا، وأوسعوا حيلهم عليه إعلانًا وإسرارًا، فجعل الله يحفظه منهم شعارًا ودثارًا، ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة، فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده في حياته أقر به عينيه (٢)، فإن الله تعالى؛ لعلمه بقرب أجله، ألبسه في الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على قوة في الحق وعزيمة، هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق، كبتا ورغما للأعداء، أهل البدع

(١) السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور عبد الرحمن الفريوائي، ص ١٧.

(٢) يذكر هذا الموقف بقول الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لما قيل له عن كثرة خصومه والمخالفين له قال: موعدهم يوم الجنائز.

المضلة والأهواء) [1].

وهذا الكلام المجمل من تلميذ عاصر أستاذه، وعرف ما حصل له، وكأنه يريد بذلك ما حصل له من منع عن الفتوى، ومن سجن في القاهرة، ثم سجن في الإسكندرية، ثم سجن في دمشق حتى توفي وهو في هذا السجن الأخير. إذ أن من يختلف معه رحمه الله في أي أمر يطرحه، يلجأ إلى حيلة العاجز بالإيقاع به، والخوض في عرضه، والافتراء عليه، حتى توغر الصدور عليه، وتأمر السلطة بسجنه.

١ - ففي عام ٧١٨هـ كان من ضمن ما تحدث فيه فتواه في الحلف بالطلاق، واعتبره معاصروه أمرا خطيرا؛ إذ إن هذه المسألة الفقهية لم تثر إلا في زمنه، إذ إنه أفتى بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة رجعية، وبعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث، وأن على الحالف أداء كفارة اليمين فقط، إذا كان لا يقصد إيقاع الطلاق، وإنما هدفه اليمين، فثار عليه القوم آنذاك، وأقيمت عليه الدعاوى حتى اضطر الحاكم إلى إصدار أمر بمنع الشيخ ابن تيمية من الفتوى بعدم وقوع الطلاق، وإلى المناداة بهذا في الأسواق العامة؛ ليعرفه الناس، ويحذروا من الوقوع في شره - كما اعتقدوا - ولكنه رحمه الله؛ لقوة إرادته وإيمانه كان يقول: (لا يسعني كتمان العلم)، فصار يجاهر برأيه، ويجيب على من يستفتيه، مما سبب له السجن في دمشق قرابة نصف عام[2] فهو يخشى أن يلجم بلجام من نار، كما جاء الوعيد من رسول الله ﷺ لمن سئل عن علم فكتمه.

٢ - وبعد خروجه من السجن أثار عليه خصومه مسألة أخرى في موضوع: (شد الرحال)، مع أن الرأي الذي يقول به هو قول الإمام مالك، أن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع، بل وفيه معصية،

---

(١) الأعلام العلية، ص٦٨.

(٢) كتاب ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص ١٠٨.

أخذًا من الحديث الشريف المتفق على صحته: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»** (١)، يعني: المسجد النبوي، وقد ضمن آراءه في هذا كتابه: (الجواب الباهر في زوار المقابر)، وفي كتابه الآخر: الرد على الأخنائي، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، مستدلا بما جاء عن الله وعن رسوله، وبما أفتى به صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من سلف الأمة، فما زال خصومه بالسلطان حتى سجنه في عام ٧٢٦ هـ في قلعة دمشق، ومعه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن، وسجن معه فريق من أصحابه العلماء، وعزروا بعض الوقت، وفيهم تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية، الذي بقي في السجن مدة طويلة بينما جرى إطلاق الآخرين (٢).

٣ - وقد امتحن رحمه الله بمحن أخرى وخاض فيه أقوام، ونسبوه للبدع والتجسيم، وهو من ذلك بريء، بل كان يحارب البدع ويشدد النكير على أهلها، وكان أول محنة في ذلك له في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ بسبب عقيدته الحموية الكبرى، وهي جواب سؤال ورده من حماة، فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن، حيث رجح مذهب السلف على مذهب المتكلمين، وشنع عليهم، وقد توسع في بيان ما حصل له: الشيخ مرعي ابن يوسف الكرمي الحنبلي (٣).

٤ - ولما سكنت فتنة الحموية، وبعدها بمدة طويلة ظهر الشيخ نصر المنبجي بمصر، واستولى على أرباب الدولة القاهرة، وشاع أمره وانتشر، فقيل لابن تيمية: إنه اتحادي، وأنه ينصر مذهب ابن العربي، وابن سبعين، فكتب إليه نحو ثلاثمائة سطر ينكر عليه، فتكلم نصر

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصوم (١٨٩٣)، سنن ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤١٠).

(٢) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص ١١١، ١١٢.

(٣) راجع (الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية) ص ١٠٢ - ١١٤.

المنبجي مع قضاة مصر في أمره، وقال: (هذا مبتدع وأخاف على الناس من شره)، فعقد للشيخ ابن تيمية في رجب عام ٧٠٥هـ مجلس وسئل عن عقيدته، فقدم لهم: (الواسطية)، وقال: (هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام)، ثم دعي لمصر وعقد له مجلس مناظرة، وعقد له مجلس ثالث بالقصر، وبعد أن أوذي، أبرئت ساحته(١).

٥ - وتألب عليه خصومه في مصر، بعدما وصلها في رمضان عام ٧٠٥هـ حيث جمع له القضاة وأكابر الدولة بالقلعة، وادعى عليه عند القاضي ابن مخلوف المالكي خصم بأنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، وزاد الحافظ الذهبي: وأن الله يشار إليه الإشارة الحسية، وطلب عقوبته على ذلك... وقد حبس على ذلك في الجب ثمانية عشر شهرا، وقد ذكر الشيخ مرعي تفاصيل ذلك (٢)، وكان مما قاله: (سبب محنته وابتلائه: قيامه في الله، والرد على أهل البدع والعقائد الفاسدة، ومبالغته في الرد على الفقراء الصوفية - الأحمدية والرفاعية - بسبب خروجهم عن الشريعة) (٣).

ومن يقرأ ما كتبه ابن تيمية يرى أن قوله في الاستواء بمثل ما قال إمام دار الهجرة مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

٦ - وفي شوال عام ٧٠٧هـ شكا شيخ الصوفية بالقاهرة - كريم الدين الآملي وابن عطاء وجماعة نحو الخمسمائة - من الشيخ تقي الدين ورأيه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فخيروه بين الإقامة

(١) انظر: (الكواكب الدرية) للشيخ مرعي بن يوسف الذي توسع في تفاصيل هذه المحنة ص ١١٢ - ١١٦.
(٢) الكواكب الدرية ص ١٢٦ - ١٣٣.
(٣) الكواكب الدرية ص ١٢٦.

بدمشق أو الإسكندرية بشروط، أو الحبس، فاختار الحبس، وقال: أنا أمضي إلى الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة.

ولما دخل الحبس، وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب، يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد، مع تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ ذلك عليهم، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، والتسبيح والاستغفار والدعاء، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه، ورغبهم في أعمال الخير، وحضهم على ذلك، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيرا من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس.

وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلئ منهم.

واستقر الشيخ في الحبس يستفتى، ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء والأعيان. فلما كثر اجتماع الناس به، وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم، فسألوا نقله إلى الإسكندرية، فنقل [١].

إلى غير ذلك من المواقف التي كانت له من أعدائه، وهو صابر محتسب، حيث روي له قوله: (ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) [٢]، لأنما يغيضهم يسره، ولأنه رحمه الله كالغيث أينما حل نفع.

ثناء العلماء عليه:

تبين منزلة العالم بمكانته عند الخاصة والعامة، فالخاصة وهم العلماء لا يحكمون عليه إلا بعد تمحيص علمه، وإدراك فضله في المأخذ العلمي، وطريقة الطرح والاستدلال؛ إذا لا شك أن كل طالب

(١) الكواكب الدرية، ص١٣٣ - ١٣٥.
(٢) الإمام ابن تيمية، ص ١١٣.

علم له قادح ومادح.

فالقادحون تمحص آراؤهم بطريقة النقد، فإن لم تستند على المقياس الأساسي، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهي آراء مجروحة، ورغبات صادرة عن هوى، وما بني على باطل فهو باطل.

أما المادحون فينظر في مكانتهم وثقلهم العلمي؛ لأن من رفعة مكانة

الممدوح ثناء ذوي الفضل والمكانة عليه، وهو العلماء والمعتد بعلمهم، المعروفون بالفضل والعدالة وحصافة الرأي.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - اتفق أهل العلم المرموقون من معاصريه، ومن جاء بعدهم، على فضله وإمامته، وأنه يستحق التسمية بشيخ الإسلام، لما منحه الله من تفوق علمي، وفضل وزهد وورع، إلى جانب حسن الخلق والحلم والمقدرة على التحمل، فقد أسبغ الله عليه نعما كثيرة، هي من الله فضل، وهي للشيخ لباس يتجمل به، وحلية تزين ما بين جنبيه من علم، وسعة اطلاع في معارف عديدة.

والمتتبع لكتب التراجم والسير، لا يحصي كثرة من أثنى على هذا الإمام عرفانا بمكانته في العلم الذي جمله الله به.

وقد اتفق علماء الإسلام على تسميته شيخ الإسلام، حيث تصدى ابن ناصر الدين الدمشقي - في كتابه: (الرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية " شيخ الإسلام " كافر) - لمن قال بهذا القول، أثبت أن ما يقرب من (٨٨) عالمًا من أئمة الإسلام لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام. وهذا شبه إجماع، والأمة لا تجتمع على ضلالة، ومن أولئك العلماء العلامة أبو عبد الله محمد بن الصفي عثمان الحريري الأنصاري الحنفي، قاضي القضاة في مصر والشام، الذي

قال: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟) [1].

كما أثنى عليه خلق كثير من العلماء عاصره بعضهم، وأطنبوا في هذا الثناء تقديرًا لمكانته، وعرفانًا بما منحه الله من علم وفضل، وممن عاصره، وأعطاه ما يستحقه من المنزلة العلمية والتبحر في العلوم والعقائد:

١ - ابن دقيق العيد المتوفى عام ٧٠٢هـ.

٢ - إبراهيم بن أحمد الرقي المتوفى عام ٧٠٣ هـ.

٣ - أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى ٧١١هـ.

٤ - إسحاق بن أبي بكر بن ألمى التركي المتوفى في حدود عام ٧٣٠هـ.

٥ - قاضي القضاة ابن الزملكاني الشافعي المتوفى عام ٧٢٧هـ.

٦ - قاضي قضاة مصر والشام محمد بن عثمان الحريري الأنصاري الحنفي المتوفى عام ٧٢٨هـ.

وهؤلاء الستة ماتوا قبل وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية، أما من عاصره وتوفي بعده فمنهم:

٧ - ابن سيد الناس اليعمري المصري المتوفى عام ٧٣٤هـ.

٨ - الإمام الحافظ أبو محمد البرزالي الشافعي المتوفى عام ٧٣٨هـ.

٩ - جمال الدين المزي المتوفى عام ٧٤٢هـ.

١٠ - الإمام الحافظ شمس الدين ابن عبد الهادي بن قدامة المقدسي المتوفى عام ٧٤٤هـ.

١١ - شيخ النحاة محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الشافعي المتوفى عام ٧٤٥هـ.

---

(١) الرد الوافر، ص ١٠٢.

١٢ - الحافظ الناقد شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨هـ.

١٣ - الإمام عمر بن مظفر الوردي الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٤ - الإمام أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٥ - الإمام الحافظ أبو حفص عمر بن على البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٦ - الإمام المحدث المؤرخ ابن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ.

وغير هؤلاء من أفاضل العلماء إلى جانب القصائد التي قيلت في رثائه بعد وفاته، وأجوبة من علماء بغداد والبصرة، وعلماء الشافعية والمالكية والأحناف في الانتصار له رحمه الله فيما حصل له من امتحان في المسائل التي نوقش فيها، والتي أثيرت ضده وبشأنها شبه، حيث استعيدت من أجلها السلطة [(١)].

وقد أجمل أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه الحافظ أبو حفص عمر بن على البزار في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) بـ ٣٤ عالمًا، وفندهم واحدًا واحدًا، بأسمائهم وتراجمهم، أما أعداؤه والمعترضون عليه فهم اثنا عشر فردًا فقط [(٢)].

ومن هذه المقارنة يتضح أن أنصاره والعارفين بجلال قدره أضعاف المعترضين عليه. وهذا وحده كافٍ في إبراز مكانة هذا الشيخ الجليل، والانتصار له على خصومه، الذين تضاءلت دعاواهم عليه رحمه الله، مع سعة علمه، وقوة حجته، ونصرته لدين الله، ومن

(١) من يريد تفاصيل الذب عن الشيخ وما قاله العلماء عنه فلينظر الكواكب الدرية ص ٥٥ - ٧٦، وص ١٥٩ - ٢٣٢، والدرر الكامنة، - والأعلام العلية، والسيرة العلمية لابن تيمية للدكتور عبد الرحمن الفريوائي الذي اهتم بدراسة وتتبع أحوال ابن تيمية.

(٢) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٧٩ - ٨٧.

كان مع الله كان الله معه، وصدق في تسليته لنبيه ﷺ:{ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧} [النحل: ١٢٧]،{ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨} [النحل: ١٢٨].

ومع الأيام والاهتمام بمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية: دراسة وتتبعًا تبرز دراسات ومتابعات لحياة هذا العالم الفذ، وآخر ما وقع في يدي عن شيخ الإسلام - وإن كان في كل يوم يظهر عنه شيء جديد - كتاب للدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي الذي نشرته الجامعة الإسلامية في بنارس الهند، بعد الاهتمام بهذا الشيخ في ندوة علمية كبيرة بهذه الجامعة عن ابن تيمية.

هذا الكتاب عن السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويقع في ٢٢٣ صفحة من القطع المتوسط، جاء من اهتمام المؤلف بابن تيمية، حيث كان الجانب الحديثي في سيرته واهتمامه بأحاديث رسول الله ﷺ، هو موضوع رسالة الدكتور عبد الرحمن العلمية، مما جعله يهتم به، ويتابع ما نشر عنه في عدة لغات عالمية.

وقائع في حياته:

رغم أن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كلها عمل وجهاد، وطلب للعلم، وتأليف فيه وتعليم للناس، وفتيا ودفاع عن حوزة الإسلام.. إلا أن المهتمين بسيرة الشيخ قد رصدوا بعض الحوادث الكبرى في حياته رحمه الله، مقرونة بالتاريخ، وكان من المهتمين بذلك تلميذه: الحافظ البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، كما اهتم بها غيره من محبيه وتلامذته، ورصد أغلبها ابن كثير في تاريخه: (البداية والنهاية) حسب حوادث السنين، حيث ظهر من أغلبها ما امتحن به الشيخ وما تحمله في هذا السبيل، حرصا على تصحيح العقائد، وإبانة لما أوجب الله في تبليغ العلم، والدفاع عن دين الله، والحماية لجناب التوحيد الذي هو الأصل الأصيل، وخشية من

الإطالة في سرد الحوادث نجتزئ بعضا من الحوادث الكبرى في حياة ابن تيمية - رحمه الله:

١ - في عام ٦٨٣هـ وفي الثاني من محرم: أول درس يلقيه ابن تيمية بدار الحديث السكرية بالقصاعين، خلفًا لأبيه الذي توفي عام ٦٨٢هـ في انسلاخ ذي الحجة، وقد حضر درسه قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي الشافعي والشيخ تاج الدين الفزاري، وزين الدين ابن المرحل، والشيخ زين الدين ابن المنجا، وكان درسا هائلا، وقد كتبه: تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكان عمر الشيخ إذ ذاك عشرين سنة وسنتين، ثم جلس في عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسير القرآن العزيز، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجم الغفير [١].

٢ - في عام ٦٩٢هـ يحج الشيخ، وفي عام ٦٩٣هـ يطلب نائب السلطان عز الدين أيبك الشيخ ابن تيمية، وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، ويضربهما ويرسم عليهما بالعذراوية بسبب حادثة عساف النصراني، ثم يطلقهما [٢].

٣ - وفي عام ٦٩٤ هـ يأذن الإمام شرف الدين أحمد المقدسي لابن تيمية بالإفتاء، وكان يفتخر بذلك ويقول: (أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء)[٣].

وفي عام ٦٩٥هـ في ١٧ شعبان يدرس ابن تيمية في المدرسة الحنبلية

عوضًا عن الشيخ زين الدين المنجا المتوفى، وقد بقي يدرس فيها إلى عام ٧٢٦هـ.

(١) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٠٣.
(٢) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٣٣ - ٣٣٦.
(٣) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٤١.

٥ - وفي عام ٦٩٨هـ محنة ابن تيمية بسبب العقيدة الحموية [١].

٦ - عام ٦٩٩هـ يتوجه الشيخ للقاء قازان عند النبك مع أعيان دمشق؛ لأن قازان جاء للشام، وتمت بينه وبين الجيش المصري وقفة في وادي الخزندار عند سلمية حيث انكسر الجيش المصري أمامه، ثم يتوجه الشيخ مصاحبا الحملة التي هيئت لقتال بعض المنحرفين عن الدين في جبال الكسروان فينتصرون عليهم [٢].

٧ - عام ٧٠٠هـ ذهاب الشيخ إلى مصر لحث السلطان على الجهاد ومعونته أهل دمشق. وفي عام ٧٠١ هـ يثور جماعة من الحسدة على الشيخ بدمشق، ويشكون أنه يقيم الحدود، ويعزر ويحلق رءوس الصبيان، فبين لهم خطأهم [٣].

٨ - وفي عام ٧٠٢هـ يزور الحساد كتابا على الشيخ، وعلى القاضي شمس الدين الحريري، وجماعة من الأمراء والخواص، أنهم يناصحون التتر ويكاتبونهم، ولكن الله يحق الحق، فيعرف نائب السلطنة أن الكتاب مكذوب، فيأمر بقطع يد كاتبه [٤].

٩ - في عام ٧٠٢هـ وقعة شقحب مع التتار، وخروج الشيخ إلى العسكر يحلف لهم: أنكم في هذه المعركة منصورون، ولما قيل له: قل: إن شاء الله، قال: أقولها تحقيقا لا تعليقا، فحقق الله لهم النصر، وعاد الشيخ وأصحابه إلى دمشق [٥].

١٠ - وفي عام ٧٠٤هـ يذهب الشيخ إلى مسجد النارنج بدمشق، ويأمر أصحابه ومعهم المختصون بقطع صخرة هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها، للقضاء على الشرك بالله.

---

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ٤.
(٢) البداية والنهاية، ١٤ / ٧ - ١٢.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ١٦ - ١٩.
(٤) البداية والنهاية، ١٤ / ٢٢.
(٥) البداية والنهاية، ١٤ / ٢٣ - ٢٥.

- وفي نفس العام يحضر شيخا - كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًا - يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فيأمر بتقطيع الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظفاره، وحف شاربه المسبل على فمه، المخالف للسنة، ثم يستتيبه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل [١].

- وفي نفس العام في شهر ذي الحجة يركب الشيخ ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، فاستتابوا خلقا منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيدا منصورا [٢].

١١ - وفي عام ٧٠٥هـ يخرج الشيخ للغزاة، مع الجيش الشامي في بلاد الجرد والرفض والتيامنة، فنصروا عليهم.

- وفي نفس العام يشكو الفقراء الأحمدية - الصوفية - الشيخ إلى نائب السلطنة، طالبين رفع إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فأصر الشيخ على أن يدخلوا تحت الكتاب والسنة، وانتصر الشيخ عليهم بعد ثلاثة مجالس عقدت.

- وفي هذا العام يذهب الشيخ إلى السجن، ويخرج الحافظ المزي دون إذن القاضي.

وفي نفس السنة يذهب إلى القاهرة لمقابلة السلطان، حيث عقد مجلس له في القلعة، وسئل فيه عما ينسب إليه: (إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت)، ثم حبس ابن تيمية على أثر ذلك في الحبس المعروف بالجب.

- وفي نفس العام يقرأ في الجامع الأموي كتاب من السلطان، بالحط على الشيخ تقي الدين، ومخالفته في العقيدة، وأن ينادى بذلك في البلاد الشامية، وإلزام أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر [٣].

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٣، ٣٤.
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٥.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ٣٥ - ٣٨.

١٢ - خروج الشيخ عام ٧٠٧هـ، من السجن بعد أن مكث فيه ١٨ شهرًا، وبقي في القاهرة فترة، ثم توجه منها إلى الإسكندرية سنة ٧٠٩هـ، ونزل في دار السلطان في بر فسيح منها، متسع الأكناف، فينوي المرابطة، ويبقى ثمانية أشهر.

- وفي نفس العام يطلبه السلطان الناصر، ويأتيه في القاهرة ليجتمع به، ويصلح ما بينه وبين القضاة المصريين والشاميين، ثم ينزل القاهرة، ويسكن بالقرب من مشهد الحسين [١].

١٣ - وفي عام ٧١٢هـ يخرج الشيخ من القاهرة بصحبة السلطان الناصر بنية الغزو، فلما تبين له عدم الغزو، توجه من غزة إلى القدس، وعاد إلى دمشق عن طريق عجلون وبلاد السواد وزرع، واستقر بها[٢].

١٤ - وفي عام ٧١٨هـ يجتمع قاضي القضاء شمس الدين بن مسلم بالشيخ، ويشير عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فيجيبه إلى ما طلب، وفي نفس الوقت ورد كتاب من السلطان بمنع الشيخ من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، وقد نودي به في دمشق[٣].

١٥ - لكن الشيخ في عام ٧٢٠هـ عاد للإفتاء بمسألة الطلاق فاعتقل بقلعة دمشق، إلا أنه بعد أشهر قليلة، وفي عام ٧٢١هـ أفرج عنه يوم عاشوراء فخرج من القلعة، وكانت مدة اعتقاله خمسة أشهر، وثمانية عشر يوما [٤].

١٦ - وفي عام ٧٢٦هـ وفي النصف الأخير من شعبان أعيد اعتقال ابن تيمية بقلعة دمشق ومنع من الفتيا، وكان ذلك بسبب فتواه

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ٤٥ - ٥٣.
(٢) البداية والنهاية، ١٤ / ٦٧.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ٨٧.
(٤) البداية والنهاية، ١٤ / ٩٧، ٩٨.

في السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين.

- وقد بقي في السجن حتى عام ٧٢٨هـ حيث أخرج في جمادى الآخرة ما كان عند الشيخ من الكتب، والأوراق، والدواة، والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة، وكانت نحو ستين مجلدا، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم.

- وقد توفي في معتقله هذا في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة من نفس العام ٧٢٨هـ رحمه الله رحمة واسعة، ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق [١]، وقد خرج في جنازته خلق كثير حتى أن المناوئين له خافوا على أنفسهم فلم يخرجوا من بيوتهم ذلك اليوم.

هذه بعض الوقائع في حياة الشيخ ابن تيمية، ومنها تبرز قوته في الحق، وإنكاره المنكر بكل ما يستطيع، وثباته في الدفاع عن العقيدة الصحيحة، التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وسار عليها أصحابه من بعده، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال ﷺ: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " [٢]، كما كان ابن تيمية - رحمه الله - في حرصه على التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما انتهجه الخلفاء الراشدون، ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم، يحرص على تحذير الناس مما حذر منه رسول الله ﷺ :**«إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»** [٣].

إن القارئ لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية ليجد في صفاته وأعماله نقاطا تحتاج إلى دراسة وافية، ومواقف تحتاج إلى إبانة؛ لأثرها في

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ١٣٤ - ١٣٦، وانظر أيضا عن ذلك كله: (الأعلام العلية) للبزار ص ١١ - ١٥.

(٢) سنن أبي داود السنة (٤٦٠٧)، سنن الدارمي، المقدمة (٩٥).

(٣) سنن الترمذي العلم (٢٦٧٦)، سنن ابن ماجه، المقدمة (٤٢)، سنن الدارمي المقدمة (٩٥).

الدفاع عن الإسلام، حيث وقف رحمه الله كالعقبة الكأداء أمام السهام المشرعة، وكافح ضد الأقوال المغرضة، حتى حصحص الحق، وأظهر الله الحجة، فقد كان ابن تيمية واحدًا من المدافعين عن دين الله، وجعل الله في علمه نفعًا، وفي وقته بركة... وكانت كتبه دليلا على ذلك، تشهد بمواقفه على مر العصور، وكر الأيام والليالي.

ولئن عاش سبعة وستين عاما من عمره، فإنه قد أوقف نفسه وعلمه، ولسانه وجهده للدفاع عن دين الإسلام ضد البدع والأهواء والجهل، ومحاربة الملل والنحل، منذ جلس مكان والده للتدريس في عام ٦٨٣هـ حتى لقي ربه. حيث أمضى خمسة وأربعين عامًا في جهاد مستمر، ونضال ومكابدة: بالمناظرة والردود تارة، والمجاهدة والفتيا تارة أخرى، صابرا محتسبا..

ويندر من الرجال من يقوم بمثل ما قام به.. إذ مهما قيل عنه فإنه لن يوفى حقه، ورغم أن تلامذته وأنصاره على تتابع الأيام ومضي العصور يدفعون أقوال المغرضين التي تحاول أن تنال من الإسلام بالنيل من الرجال المدافعين عنه، وابن تيمية واحد منهم، فإن كل ما يظهر من كتبه وآثاره العلمية، ما هو إلا قذى في عيون أصحاب البدع والأهواء، وسهام موجهة لأصحاب الملل المنتمية للإسلام، وهي تخالف جوهره، وتدعو إلى طعن الإسلام في الصميم، في التجرؤ على العقيدة، والمساس بالأساس الذي حرص رسول الله ﷺ وهو يدعو قومه في مكة ثلاثة عشر عامًا على تأصيله في القلوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، واهتم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند الردة بمحاربة من لم يؤد حق هذه الشهادة.

فرحم الله ابن تيمية، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه(١).

* * *

(١) المصدر، مجلة البحوث، العدد ٤٤، ص ٢٦٩ وما بعدها.

الإمام ابن القيم

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام ابـن القيم

هو الفقيه الأصولي: أبو عبد الله الشمس محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ).

نشأ في كنف والده، ودرس على عدد من أهل العلم بعدما حفظ القرآن وسمع حديث النبي ﷺ وتفقه بمذهب الحنابلة حتى برع فيه، وأفتى، وتفنن في علوم الإسلام، تفسيراً وحديثاً، وعقيدة وعربية، وسلوكاً، وفقهاً وطبًّا، وغير ذلك.

وقد نفعه الله كثيراً بشيخ لازمه وانتفع به، وهو: الشيخ أبو العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ)، ونجاه الله من هلكة البدع والأهواء، فصاحبه ستة عشر عاماً حتى أضحى أبرز تلاميذه وأشهرهم، بعد أن كان سبباً في هدايته من مزالق المذاهب الفاسدة حيث يقول ابن القيم في ذلك نظماً:

يا قوم والله العظيم نصيحة ::: من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ::: تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ::: من ليس تجزيه يدي ولساني
حَبْرٌ أتى من أرض حران فيا ::: أهلاً بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ::: من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي فسار ولم يرم ::: حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت أعلام المدينة حولها ::: نزل الهدى وعساكر القرآن
ورأيت آثاراً عظيماً شأنها ::: محجوبة عن زمرة العميان
ووردت رأس الماء أبيض صافياً ::: حصباؤه كلآلئ التيجان

وقد لازمه حضراً وسفراً وسجناً، حتى سجن معه في سجن القلعة بدمشق سنة (٧٢٦هـ) إلى وفاة شيخه سنة (٧٢٨هـ) حيث خرج بعدها.

ومع اشتغاله بالتعلم والتعليم فقد أخذ عنه العلم الجم الغفير من العلماء، لما رزقه الله من حسن الخلق ولين الجانب، وممن انتفع به:

١ - أخوه الزين عبد الرحمن بن القيم (ت ٧٦٩هـ).

٢ - وأبناؤه ومنهم البرهان إبراهيم بن محمد بن القيم وهو النحوي صاحب شرح الألفية، وابنه عبدالله وهو الحافظ الذكي.

٣ - والحافظ ابن عبد الهادي المقدسي الحنبلي.

٤ - ومنهم الحافظ الزين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.

أما عبادته وعلمه:

فقد قيل: إنه ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة، وتأله، ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله والانقياد له والانكسار بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك. ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله. وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين - ابن تيمية - في المرة الأخيرة في القلعة، منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يُتعجب منه.

ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته

النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها.

وله في الفنون العلمية - في علوم الإسلام - اليد الطولى. (انتهى كلام تلميذه الحافظ ابن رجب).

أما تصانيفه فكثيرة جدًّا في أنواع العلم، مع شدة محبته للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب، حتى اقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره. وكتب بيده وبخطه ما لا يوصف شهرةً ونال من ذلك بعض مصنفات شيخه أبي العباس ابن تيمية.

ومن عيون ما كتب وألَّف:

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد. وصفه ابن رجب بكونه في أربعة مجلدات خطية وهو كتاب عظيم جدًّا.

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٣ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٤ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. مجلدان.

٥ - تهذيب سنة أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته. مجلد.

٦ - مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين. مجلدان، وهو كتاب جليل القدر.

ومن أهم مؤلفات ابن القيم:

١ - أبدية الجنة والنار = رسالة في أبدية الجنة والنار:

- وهو في الواقع قطعة من كتابه " حادي الأرواح ".

٢ - اجتماع الجيوش الإسلامية.

أسماء مؤلفات ابن القيم:

حرف الألف:

١ - إعلام الموقعين.

٢ - إغاثة اللهفان.

٣ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

٤ - أقسام الحيل ومراتبها.

٥ - أقسام القرآن.

٦ - أمثال القرآن وتفسيرها لابن القيم.

٧ - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار.

حرف الباء(*)

١ - بدائع الفوائد.

٢ - بلوغ السؤل من أقضية.

٣ - " التبيان في أيمان القرآن " وهو " أقسام القرآن لابن القيم ".

٤ - تحفة المودود في أحكام المولود.

٥ - تفسير سورة الفلق لابن القيم.

٦ - تهذيب مختصر سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة لابن القيم.

حرف الجيم:

١ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

٢ - " الجواب الكافي " أو " الداء والدواء ".

حرف الحاء:

١ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

٢ - حادي الأرواح.

حرف الدال:

١ - الداء والدواء.

٢ - دلائل النبوة.

٣ - دواء القلوب:والظاهر أنه الداء والدواء.

حرف الراء:

١ - رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه.

٢ - الرسالة التبوكية.

٣ - رسالة في أبدية الجنة والنار.

٤ - رسالة في الإرشاد.

٥ - رسالة في تفسير قوله تعالى:{ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ} [سبأ: ٦] الآية.

٦ - رسالة في حق الشفعة.

٧ - رسالة في العمل بالخطوط.

٨ - رسالة في الفرق بين ذوق السماع وقراءة القرآن.

٩ - رسالة في قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ} [المائدة: ٢]:= الرسالة التبوكية:

١٠ - رفع اليدين في الصلاة:

١١ - الروحلابن القيم:

١٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين:

١٣ - " روضة العاشق ونزهة الوامق "، وهو روضة المحبين.

حرف الزاي:

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد.

حرف السين:

١ - سفر الهجرتين وباب السعادتين = انظر طريق الهجرتين..

حرف الشين:

١ - شفاء العليل(١) في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

٢ - شرح الصلاة = الصلاة.

٣ - شرح منازل السائرين = مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

حرف الصاد:

١ - كتاب الصلاة.

٢ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٣ - صيغ الصلوات على النبي ﷺ.

حرف الطاء:

١ - الطب النبوي.

٢ - الطرق الحكمية.

٣ - طريق الهجرتين ومفتاح السعادتين.

حرف العين:

١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

حرف الغين:

١ - غزو الجيوش الإسلامية في الرد على المعطلة والجهمية.

وانظر اجتماع الجيوش.

حرف الفاء:

١ - الفروسية.

٢ - فصل يتعلق بأسرار الصلاة.

حرف القاف:

١ - القصيدة الميمية = الميمية.

٢ - القطر الطيب من الكلم الطيب.

حرف الكاف:

١ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: النونية.

٢ - " الكلم الطيب والعمل الصالح " وهو " الوابل الصيب ".

حرف الميم:

١ - مجموع رقم ٤٧٦٧.

٢ - مجموع فوائد ومسائل متفرقة.

٣ - مجموع.

٤ - مختارات من إعلام الموقعين = إعلام الموقعين.

٥ - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة.

٦ - مختصر هدي الرسول ﷺ = لابن القيم.

٧ - مختصر الهدي النبوي " زاد المعاد " للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

٨ - مدارج السالكينشرح منازل السائرين.

٩ - معرفة أنواع علم الحديث...

١٠ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

١١ - معاني الأدوات والحروف.

١٢ - المنار المنيف في الحديث الضعيف.

١٣ - مناسك الحج.

١٤ - منتخب إغاثة اللهفان.

١٥ - من فتاوى النبي ﷺ في الحج.

حرف الهاء:

١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٢ - هدي النبوي: زاد المعاد.

حرف الواو:

١ - الوابل الصيب = الكلم الطيب [١].

(١) الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن

مِحَنُه ووَفَاتُه:

لقد عاش ابن القَيِّم - رحمه الله - في مجتمع كان يسوده كثير من السلبيات والمفاسد الدينية والأخلاقية، وكان ابن القَيِّم - في ظل هذه الأوضاع السيئة - صاحب رسالة سامية، وأهداف نبيلة، ومبادئ إصلاحية يهدف من ورائها: إلى الرجوع بالناس إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة، ونبذ البدع والخرافات والتقليد والتعصب.

لكن طريقه هذا الذي سار فيه لم يكن سهلاً ميسوراً، بل كان محفوفاً بالمشاقِّ، فنزلت به بسبب ذلك محن عديدة، وتعرَّض لإيذاء واضطهاد وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه.

فلم يكن من السهل على هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الأفكار الدخيلة، وسادته البدع المتوارثة، أن يستجيب لهذا المصلح المجاهد الذي بزغ نوره في هذا الظلام الحالك، وكيف يتم له ذلك ولهذه البدع حُرَّاسٌ وحماةٌ من أمراء البلاد وحُكَّامها، بل ومن بعض الْمُنْتَسِبين إلى العلم أنفسهم؟!

فقد كان الأمر صعباً إذاً، والمواجهة إلى أشدِّها، وظهر في الساحة أعداء لابن القَيِّم، يتربصون به الدوائر، ويحيكون ضده الدسائس والمؤامرات، كما فعلوا من قبل مع شيخه وأستاذه.

إنكاره شَدُّ الرَّحْل إلى قبر الخليل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

فقام ابن القَيِّم - رحمه الله - في وجه هذه البدعة منكراً لها، ومبيِّناً مخالفتها لسنة رسول الله ﷺ وهَدْيِه، فما كان من أعدائِه

رجب.

وشانئيه إلا أن قاموا ضِدَّه، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك.

قال الحافظ الذهبي: " وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شدَّ الرحل إلى قبر الخليل " [(١)].

والظاهر أن هذه هي المرة التي حبس فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة رحمه الله؛ ذلك أنه في السادس عشر من شعبان سنة ٧٢٦هـ اعْتُقِل الشيخ ابن تَيْمِيَّة في قلعة دمشق، وذلك بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام " أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم... وعزَّرَ جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثمَّ أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية ".

ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يُبَيِّنُ لنا مدى الحِنْق الذي كان في نفوس أعدائه - من أهل البدع - ضده، ويبين لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القَيِّم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه في السجن.

ولكن شاء الله سبحانه أن يشاطر ابن القَيِّم شيخه محنته هذه، فَسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان (منفرداً عنه)[(٢)].

ولقد كان للحاقدين على شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة وتلميذه ابن القَيِّم دورٌ قبيح في حبسهما، وتدبير الشر ضدهما، ذلك أنهم حرَّفوا فتوى ابن تَيْمِيَّة: بأنه يُحَرِّمُ زيارة قبور الأنبياء مطلقاً، ويعتبر ذلك معصية، مع أن الشيخ - وكذا تلميذه - " لم يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك... ولا قال إنها معصية... ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ :«زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة». والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية "[(٣)].

(١) المعجم المختص، ص٢٩٦، البداية والنهاية، ١٢٨/١٤.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة، (٤٤٨/٢).
(٣) البداية والنهاية، (١٢٩/١٤).

ويَحكي المقريزي - رحمه الله - هذه الواقعة - مبيناً ملابساتها وظروفها - بأوسع من هذا، وأن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد ضُرب في هذه المرة قبل أن يُحبس، فيقول: (وفي يوم الاثنين سادس شعبان - يعني سنة ٧٢٦هـ - حُبِس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبد الرحمن بقلعة دمشق. وضُرِب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية، وشُهِّرَ به على حمار بدمشق.

وسبب ذلك: أن ابن قَيِّم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق.

وكان قد وقع من ابن تَيْمِيَّة كلام في مسألة الطلاق بالثلاث: (أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق، فلما وصلت كتب الْمَقَادِسَة في ابن القَيِّم، كتبوا في ابن تَيْمِيَّة وصاحبه ابن القَيِّم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري - قاضي القضاة الحنفية بديار مصر – بذلك، فشَنَّع على ابن تَيْمِيَّة تشنيعاً فاحشاً، حتى كتب بحبسه، وضُرِبَ ابن القَيِّم)[(١)].

وقد ظل ابن القَيِّم محبوساً مدة، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد توفي في محبسه بالقلعة في العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ)، (وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أُفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبدالله شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية)[(٢)].

وقد امتحن ابن القَيِّم - رحمه الله - غير هذه المرة أيضاً:

فتواه بجواز السباق بغير مُحَلِّل ومحنته بسبب ذلك:

كان ابن القَيِّم - رحمه الله - يُفتي بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلِّل، وَصَنَّف في ذلك كتابه: (بيان الاستدلال على بطلان

(١) السلوك، (٢/١/٢٧٣).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/١٤٥).

اشتراط محلل السباق والنضال) أو: (بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل)[1].

وقد أشار ابن حجر - رحمه الله - إلى محنته هذه، فقال: " وجرت له محن مع القضاة، منها: في ربيع الأول - يعني سنة ٧٤٦هـ - طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير مُحَلِّل، فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يُفتي به من ذلك "[2].

وحكى ابن كثير هذه الحادثة، ولكنه ذكر ما يفيد أن ابن القَيِّم كان يفتي في ذلك برأي شيخه، وصَنَّف هذا المصنف لنصرة رأي الشيخ، ثم صار يفتي به دون نسبته إلى شيخه، فظنوه قوله، فحصل له ما حصل، ثم (انفصل الحالُ على أن أظهر الشيخ شمس الدين... الموافقة للجمهور)[3].

قال الشيخ بكر أبو زيد: " وقضية الرجوع محل نظر، فلابد من تثبيت ذلك، وأرجو من الله تعالى أن يمنَّ علي بما يدل على ذلك، نفياً أو إثباتاً "[4].

قلت: أما كتبه التي بين أيدينا، فليس فيها ما يدل على رجوعه، وبخاصة كتاب (الفروسية)، ولكن ابن كثير - رحمه الله - يحكي ما شاهده بنفسه من إظهاره الموافقة للجمهور، فهل أظهر ابن القَيِّم ذلك دفعاً للشر عن نفسه دون أن يرجع حقيقة عن رأيه؟ الله أعلم.

والذي يهمنا في هذه القضية: أن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد امتحن من القضاة بسببها، وأوذي في سبيل ذلك.

فتواه في مسألة الطلاق الثلاث ومحنته بسبب ذلك:

وقد امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث

(١) انظر: مؤلفات ابن القَيِّم.
(٢) الدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٣) البداية والنهاية: (٢٢٧/١٤).
(٤) ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٣).

بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضاً.

ويشير ابن كثير - رحمه الله - إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: " وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره "[(١)].

ولم يبين لنا ابن كثير ما وقع له بسب ذلك، لكن الظاهر أنه لم يُحْبَس إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل في السباق، فيظهر أنه جرت له بسببهما فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسجن بسبب ذلك، وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه سُجن بسبب هذه الفتاوى كلها[(٢)].

ولم أر ما يدل على ذلك، ولعل كلام ابن رجب صريح في أنه لم يُحبس إلا في تلك المرة مع الشيخ، فقد قال: " وقد امتُحن وأُوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة في القلعة... "[(٣)].

ومما يؤكد - أيضاً - أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، ما حكاه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - من الصلح الذي تم بين السبكي وابن القَيِّم، فقد ذكر في أحداث سنة ٧٥٠هـ - قبل موت ابن القَيِّم بعام واحد - في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة منها، أنه (حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق)[(٤)].

(١) البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤ - ٢٤٧).
(٢) ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٢).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٤٨/٢).
(٤) البداية والنهاية: (٢٤٤/١٤).

فالمقصود أنه - رحمه الله - ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قَدَّم خير الجزاء.

٢ - وفاتُه:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج السلف، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة (٧٥١هـ) وقت أذان العشاء[١].

ووقع عند ابن رجب: (ثالث عشرين رجب)[٢]. ولعله تصحيف طباعي، فتكون كلمة (من) تصحفت إلى (ين)؟ وذلك لاتفاق المصادر على ما قدمناه من أنه كان في ثالث عشر؛ ولأن ابن رجب من تلاميذ ابن القَيِّم المقرَّبين، فيبعد أن يخفى عليه يوم وفاته.

ووقع في (البدر الطالع) [٣]أنه كان في (ثالث شهر رجب)، وهذا خطأ أيضاً.

وقد صُلِّيَ عليه - رحمه الله - من الغد عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي، [٤] ثم بجامع جَرَّاح[٥].

ولأن ابن القَيِّم - رحمه الله - كان قائماً لله بالحق، صادقاً في النصح للخلق فقد " كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على

(١) الوافي بالوفيات: (٢٧٢/٢)، البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤)، والدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٣) (١٤٥/٢).
(٤) البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).

حمل نعشه " [١].

فقد شَيَّعَه - رحمه الله - خلق كثير[٢]، وكانت جنازته مشهودة، وحافلة جدًّا [٣].

نعم لقد كانت جنازته حافلة عامرة، شهدها كثير من الخلق، كما كانت جنازة شيخه رحمه الله، التي لم يتخلف عنها من أهل دمشق سوى ثلاثة نفر، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: " قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز ". كانت هذه جنازته - رحمه الله - مع ما كان له في قلوب الكثيرين من العداوات، ومع ما حِيَكَ ضده من المؤامرات.

وَدُفِنَ - رحمه الله - عند والدته بمقابر الباب الصغير.

وقد رُؤِيَتْ له بعد موته " منامات كثيرة حسنة ".

وكان هو - رحمه الله - " قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين - رحمه الله - في النوم، وسأله عن منزلته؟ فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله ".

فَرَحِمِ الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً، وأسكنه فسيح جناته، آمين [٤].

* * *

(١) البداية والنهاية: (٢٤٧/١٤).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٣) الرد الوافر: (ص٦٨). الدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٤) المصدر، كتاب ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة.

أحمد بن حنبل

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أحمد بـن حنبل

هـو أبـو عبـد الله أحمـد بـن محمـد بـن حنبـل الشـيباني المـروزي البغدادي، وشيبان حي من بكر القبيلة المشهورة من قبائل العرب.

ولد في ربيع الأول علـى المشـهور سـنة ١٦٤ هجريـة فـي بغـداد، وكانت أمه قد حملت به في مرو التي كان يقيم فيها أبوه، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته عن ثلاثين سنة تقريبا، وأحمد إذ ذاك صغير لا يدرك شيئا بدليل أنـه نفـى رؤيتـه لأبيـه وجـده. وكـان جده قد انتقل إلى خراسان، وكان واليًا علـى سرخس فـي العهـد الأمـوي، ثم انضم إلى صفوف الدعوة العباسية حتـى أوذي فـي هـذا السـبيل، ويقـال: إنـه كان قائدا. نشأ أحمد - رضـي الله عنه - يتيما، وقامت على تربيته أمه - صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني - وترك له أبوه بيتًا في بغداد يسكنه وبيتًا آخر يغل غلة ضئيلة. وكـان فـي هـذا كشيخه الإمـام الشافعي في اليتم والفقر والحاجـة وعلـو الهمـة. تشـابهت نشـأة التلميذ والأستاذ ولكل منهما أم تدفعه إلى التقدم والعلو والزيادة من الخير.

نشـأ الإمـام أحمـد - رضـي الله عنـه - ببغـداد، وتربـى فيهـا تربيتـه الأولى، وقد كانت بغداد إذ ذاك تموج بالناس الذين اختلفت مشـاربهم، وتخالفت مـآربهم، وزخـرت بـأنواع العلـوم والمعـارف، ففيهـا القـراء والمحدثون والمتصـوفة وعلمـاء اللغـة والفلاسفة وغيرهم، فقد كانـت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضـر العـالم مـن تنـوع المسـالك وتعـدد السبل وتنـازع المشـارب ومختلـف العلـوم حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغـة اتجـه إلى الـديوان ليتمـرن علـى

التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء حتى إنه ليروى أن الرشيد وهو بالرقة مع جنده وكان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم فلا يجد النساء غير أحمد يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود ولا يكتب ما يراه منكرا من القول... شب أحمد على هذا، واستمر في طلب العلم بعزم صادق وجد، وأمه تشجعه على ذلك، وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إذا خشيت عليه الإرهاق، وحكى ذلك أحمد عنها فقال: كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول: اصبر حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكان اتجاهه إلى الأخذ عن رجال الحديث. ويروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وفي تاريخ الحافظ الذهبي قال الخلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها ثم لم يلتفت إليها.

اتجه أحمد إلى كتابة الحديث من سنة ١٧٩ حينما كان عمره ست عشرة سنة، واستمر مقيما في بغداد يأخذ عن شيوخ الحديث فيها حتى سنة مائة وست وثمانين، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، ثم إلى الحجاز واليمن وغيرها، واستمر ملازمًا لشيخه هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي حتى سنة وفاته ١٨٣.

قال صالح بن أحمد قال أبي: كتبت عن هشيم سنة ١٧٩، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين واثنين وثمانين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحوًا من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبا صغارا، فقال صالح: يكون ثلاثة آلاف، قال: أكثر، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز وغيره وقد ذكر ابن كثير تفصيل رحلاته الحجازية في تاريخه البداية

والنهاية جزء ١٠ ص ٣٢٦ وكان من أبرز الشخصيات التي التقى بها الإمام أحمد أثناء رحلاته وفي إقامته، الإمام الشافعي - رضي الله عنه - فقد أخذ عنه، واستفاد منه كثيرا، وكان الشافعي يجله ويقدره ويعول عليه في معرفة صحة الحديث أحيانًا، ورشحه الإمام الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد، وقال له: جئت إليك لأقتبس منك العلم تأمرني أن أدخل لهم في القضاء، وكان ذلك في آخر حياة الرشيد، ثم رشحه الشافعي مرة ثانية لقضاء اليمن عند الأمين فأبى أحمد وكان ذلك ١٩٥ هـ.

ودخل الشافعي يومًا على أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله كنت اليوم مع أهل العراق في مسألة كذا فلو كان معي حديث عن رسول الله ﷺ. فدفع أحمد إليه ثلاثة أحاديث فقال له: جزاك الله خيرا. وقال الشافعي لأحمد يوما: أنتم أعلم بالحديث، والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فعلموني إن شاء يكون كوفيا أو شاميا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحًا، وهذا من كمال دين الشافعي وعقله حيث سلم هذا العلم لأهله؛ وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال (أخبرنا) و(حدثنا). وقال أبو زرعة الرازي:

حفظ أحمد بن حنبل بالمذاكرة على سبعمائة ألف حديث، وفي لفظ آخر قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

كان الإمام أحمد يقول: - فاتني مالك فأخلف الله على بسفيان بن عيينة؛ وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله على إسماعيل ابن علية. وكان ملازما لكتابة الحديث فانشغل بذلك عن كل شيء حتى عن الزواج فلم يتزوج إلا بعد الأربعين. وقيل له: يا أبا عبد الله قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، فأنا

أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقد روى المزني: أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمه وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: - خرجت من بغداد ما خلفت بها أحدا أورع ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل، ولم يزل على ذلك مكبا على الحديث والإفتاء وما فيه نفع المسلمين، والتف حوله أصحابه يأخذون عنه الحديث والفقه وغيرهما، وألف المسند في مدة ستين سنة تقريبا، وكان قد ابتدأ بجمعه في سنة ١٨٠ هـ أول ما بدأ بطلب الحديث، وسيأتي الكلام على المسند إن شاء الله تعالى، وألف في التفسير، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي التاريخ، وفي المقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وألف المناسك الصغير والكبير، وفي حديث شعبة، وألف كتاب الزهد، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب الصلاة، وكتاب السنة وكتاب الورع والإيمان، وكتاب العلل والرجال، وكتاب الأشربة، وجزءا في أصول السنة، وفضائل الصحابة، وله قصائد متناثرة، وأجزاء في بعض الأصول والمسائل، كما نقل عنه مجموعة من المسائل، منها مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود السجستاني صاحب السنن وهي مطبوعة نشرها السيد محمد رشيد رضا بمطبعة المنار وتقع في ٣٢٨ صفحة. وهي أجوبة على بعض المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد في الفقه؛ ومنها مسائل ابنه عبد الله بن أحمد، ومسائل إسحاق بن إبراهيم رواية ابن منصور المروزي وهي مخطوطة وتوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق وغير ذلك من مؤلفاته رضي الله عنه.

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل

الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد، ومحمد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام ٢١٢ هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدًا بل ترك الناس أحرارًا فيما يذهبون إليه، فلما كان ٢١٨ هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصًا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٢١٨ هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحدا يقول بهذه

المقالـة - يعنـي خلـق القـرآن - وقـد حـبس وعـذب وقتـل فـي هـذه المحنـة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصـبحت حـديث مجالسـهم وأنـديتهم وحاضـرتهم وبـاديتهم فـي العـراق وغيـره وقـام الجـدل فيهـا بـين العلمـاء، ووقـع امتحـان الأمـراء للعلمـاء والقضـاة والفقهـاء والمحـدثين فـي مصـر والشـام وفـارس وغيرهـا حتـى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ: يحيى بن معين وعلـي بـن المديني ويزيد بن هارون وزهير بـن حـرب وغيـرهم من الأئمـة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المـأمون لصـاحب الشـرطة فـي بغداد بـأن يوافيـه بجـواب مـن امـتحن منـهم فوافـاه بجـوابهم وإذا هـو يتضـمن إنكـار هـذه المقالـة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المـأمون بـذلك، فبعـث إليـه بكتـاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحـدثين المشـهورين فـي بغـداد أو ثمانيـة وهـم -: محمـد بـن سـعد كاتـب الواقـدي وأبـو مسـلم ويحيـى بـن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمـد بـن إبـراهيم الـدورقي. لكـي يمتحـنهم وفـي مقـدمتهم أحمـد بـن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفتـه بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمـد بـن نـوح إليـه فـي طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبـل أن يصـل. وأمـا الإمـام أحمـد ومرافقـوه فـبلغهم وفـاة المـأمون قبـل وصـولهم فعـادوا إلـى بغـداد، وألقـي الإمـام أحمـد فـي الحـبس. ويقـال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام ٢١٨.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصـاه بتقريـب ابـن أبي دؤاد والاستمرار بـالقول بخلـق القـرآن وأخـذ النـاس بـذلك. وكـان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسا مع ابن أبـي

دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعا جليلا كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطا، ونصب كرسيا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى: {ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١} [الرحمن: ١]، {عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢} [الرحمن: ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى:{يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢} [يس: ١ - ٢] ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيدوه للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، واستدل بقوله تعالى:{وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ} [السجدة: ١٣] الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو كلام رسوله ﷺ، فقال المعتصم: قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين

فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين، والعقابان بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس، فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبتين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث»** [(١)]. الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب

(١) صحيح البخاري، كتاب: الديات (٦٤٨٤)، صحيح مسلم، كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٦)، سنن الترمذي، كتاب: الديات (١٤٠٢)، سنن النسائي، كتاب: تحريم الدم (٤٠١٦)، سنن أبي داود، كتاب: الحدود (٤٣٥٢)، سنن ابن ماجه، كتاب: الحدود (٢٥٣٤)، مسند أحمد بن حنبل (٣٨٢/١)، سنن الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة ٢١٨. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما تولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريبا.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة ٢٣٤ وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة ٢١٨ وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلانًا عامًّا في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفتين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونًا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت

الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين وامرأتين، أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبي صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبي: نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من أعداء أمير المؤمنين وقد جئنا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلفتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من على بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه

والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا. ومضت الأيام في إدبارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاود فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكي فلما رآني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني بالميزان وبالدراهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد ابن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسر من رأى ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وألاَّ يحمله على شيء يكرهه. عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع. أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارا لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حجرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ. وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يومًا مشهودًا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف

ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئًا منها. أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضربة خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيرا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حينا حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: استكملت سبعا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفسا شديدا، وقال صالح: وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل.

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن على بن الجعد فحجبه، وكثر الناس فقال لي: أي شيء ترى؟ قلت: تأذن لهم فيدعون لك قال: أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجا، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده، ويسألونه عن حاله، ويدعون له حتى تمتلئ الدار، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر، وكثر الناس، وامتلأ الشارع، وأغلقنا باب الزقاق، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به، وقال: إني لأرى الرجل يجيء شيئا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي: ولجميع المسلمين.

وجاء رجل فقال: تلطف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن استحله. فقلت له، فأمسك فلم أزل به حتى قال: أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت. قال: على ألاَّ تعود لمثل ذلك قال: نعم قال: فإني جعلتك في حل فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس ثم قال: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأني قد فعلت قال: الحمد لله. ثم قال اقرأ على الوصية فقرأتها فأقرها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها، ولم يزل يصلي قائما أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتًا.

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال: هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، وأصحاب الخير يكتبون بخبره إلى العسكر. والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم

فدخلوا عليه وجعلوا يبكون، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال: ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل: لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى. وكان يصلي قاعدا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال: خلل الأصابع، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام ٢٤١ توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع وقال صالح: وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت: أقرئ الأمير السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته.

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبًا عشاريًّا قوم بثمانية وعشرين درهما ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفافتين وأخذ منه فوران لفافة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطا وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير، وقال صالح: وجه الأمير ابن طاهر فقال: من يصلي عليه؟ قلت: أنا، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا: الأمير. فمانعتهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل: ثمانمائة ألف

وقيل: بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان - رضي الله عنه - يقول في حال صحته: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وقد صنفت في ترجمته مصنفات مستقلة منها: المناقب لأبي الفرج ابن الجوزي في مجلد، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد، ومنها لأبي زهرة مجلد، ومنها لأحمد الدومي في مجلد، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه، وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم [١].

* * *

(١) المصادر:
١ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين بن أبي يعلى.
٢ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.
٣ - المنهج الأحمد للعليمي.
٤ - ابن حنبل لأبي زهرة.
٥ - أصول مذهب الإمام أحمد للدكتور عبد الله العبد المحسن التركي.
٦ - الجزء الأول من المسند طبعة أحمد شاكر.
٧ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة لعبد الحليم الجندي.
٨ - أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا تأليف أحمد عبد الجواد الدومي.
٩ - أحمد بن حنبل والمحنة تأليف ولترم. باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق.
١٠ - الإمام الممتحن أحمد بن حنبل نقلا عن مجلة " المسلمون ".
١١ - الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني لأحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي.
١٢ - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي.
١٣ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لعبد القادر بن أحمد بن بدران.
١٤ - عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية (٢ / ١٩٩).

الإمام الشافعي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الشافعي

إمام العباقرة، وعبقري الأئمة، له في العلم سبب، وفي البيت نسب، وفي المروءة حسب.

سالت قريحته فتفجرت أنهار الحكمة من على لسانه، وساقت رياح التوفيق سحب علمه فسالت أدوية بقدرها. ذاكرته أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين.

الشافعي أخذ من الأثر روحه، ومن الفقه خلاصته، ومن البيان ناصيته، ومن الشعر حلاوته، ومن المجد ذروته.

قعّد للعلماء القواعد فغضب عليه أعداء الشريعة، لأنهم رضوا بأن يكونوا مع القواعد، فخَرَت به قريش، وتبجحت به العراق، وخرجت إليه مصر، حاور محمد بن الحسن فقطع أزراره، ورد على المريسي فأطفأ ناره، وجاور أحمد فشكر جواره.

الشافعي لدنيا العلوم شمس، ولأبدان الأخبار عافية،ولليل المدلهم قمر، في الشرع شعرُه، في الحق بذلُه، للآخرة طلبُه، لله سعيه، لما خرج إلى البلاد لبست بغداد الحداد وأمست في سواد.

الألفاظ سكر، والقصد نضيد، حفر لحدًا للملاحدة، وعزل في زنزانة الإحباط المبتدعة، ورد الأباطيل في جوه أهل التعطيل، إن سألنا عن أهل الكلام فالجريد والنعال. وأهل السنة: رواد الجنة. والفلاسفة: أهل سفه. ومالك: نجم الممالك. وأحمد بن حنبل: زرع سنبل.

أتاه المال ففر منه إلى العلم، وأتته الدنيا فهرب إلى الآخرة تعلم

الفراسة في اليمن، فكشف أهل الزيغ والأفن، تدجج بالحجج فألحم الدجاجلة، وصال بالأصول على أعداء الرسول ﷺ.

درس الطب فمرض جسمه، وداوى الناس فزاد غُنمه.

المروءة عنده ولولا الشعر بالعلماء يزرى، التواضع: أحب الصالحين ولست منهم.

ميزة الشافعي: التفرد، ومنقبته التجرد، تفرد في الفهم، فعصر من زهر الذهن رحيقاً، وتجرد للحق فنسج من بز الشريعة ثوباً سابغاً.

فاح طيب ذكره في الأنوف، فيا فرحة من شم، وهزم الباطل فكأنه شم عطر منشم، الشافعي شهاب ثاقب أُحرقت به شياطين الإنس ولهم عذاب واصب.

يا بن إدريس أيا الشهم الأجلّ أنت سيف الحق في العلياء سُلّ.

مسكين من جادل الشافعي وناظره، مسكين من عارضه وكابره، مسكين من عرفه وما ذاكره.

درس محمد بن إدريس علوم محمد ﷺ فترك علماً لا يغسله الماء، ولا تطفئه الريح، ولا يلفه الظلام، ولا ينسيه الدهر، الرسوخ في يسر، العمق في سهولة، الأصالة في إشراق، البراعة في نصوع.

أهل فارس يعرفونه، وأهل الصين يذكرونه، وأهل الأندلس يمدحونه، وأهل الباطل يبغضونه.

إذا مرجت الآراء بزغ رأي الشافعي كالنجم الثاقب، إن تكلم أسكت الخطباء، وإن أنشد صمت الأدباء والبلغاء، أحب الملة فأمهرها روحه، وعشق العلم فأعطاه عمره، وأخلص للرسالة ففاضت لها نفسه، فهو عاشق المُثُل، سامي المقاصد، رجل المروءات، ناشر السنة بين أهلها، وناصرها على أعدائها، وحافظها لمحبيها، وشارحها لناقليها.

وإن تفق الأنـــام وأنـــت منـــهم ::: فإن المســـك بعـــض دم الغـــزال

ورث أنوار الرسالة، فألف للأمة الرسالة، مات أبوه فكفلته الأم، فقدم للناس كتاب الأم، إذا نطق الشافعي فكأن السيل أقبل، والفجر بزغ، والنور سطع، صحة مخارج، حلاوة لفظ، قوة حجة، براعة دليل، سلامة إنشاء{ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ} [الجمعة: ٤].

في الفقه إمام، في النقل حجة، في النسك علَم، في اللغة أستاذ، في الذكاء آية.

سرت به أمه من غزة فسبحان الذي أسرى، وعاش في مكة لينفع أم القرى.

الشافعي لم يستند إلى النسب ولو أنه مُطلّبيّ، ولم يتكل على الجاه فهو أبيّ، ولكن أخذ بأسباب الخلود، وهجر أسباب الفناء، فأمات في حياته النفس الأمارة، وأحيا بوفاته النفس المطمئنة، فنوديت{ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨} [الفجر: ٢٨].

إذا كانت الحياة بالبساط والسياط والسلطة والسطوة فأين أصحابها بعد موتهم{هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا} [مريم: ٩٨].

عند الشافعي: اتباع الأثر عبادة، الوقوف مع النقل عقل، توقير الصحبة عقيدة، رد الشُبَه جهاد، تعليم الناس ربانية، ترك المعاصي هجرة، أهل الحديث رؤوس، المبتدعة سفلة، علم الكلام غي، المنصب ذُل، الدنيا دنيئة.

بدا إلى البادية فهذّ شعر هذيل، كان رأسا وسواه ذيل، احتسى علم مالك، ومص فهم أبي حنيفة، وجمع بين النثر والشعر، والرواية والدراية، والعقل والنقل.

الشافعي عروبة حجازية، وفصاحة عراقية، ورقة مصرية، أعجب ما فيه روح التجديد في المذهب القديم، وقدم التأصيل في مذهبه الجديد، سخر الشعر للشريعة، والنحو للوحي، والرأي للرواية، والتعليل للتأويل، حملته الهمة فأضناه الطلب، وخلع الدنيا

فليس تاج القبول، خاف الدنيا والدنايا، وجانب الشيطان والشر والشهوة والشبهة.

إن خطب أطنب وأطرب، وأتى بكل أطيب.. وإن أفتى شفى وكفى وأوفى.

فلج خصوم الإسلام، ونكس رايات الأقزام وأبقى ذكره للأيام، دمغ الضلال، واكتسح الجهال،{وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ} [إبراهيم: ٤٦].

انكسر به ظهر الجبرية، وثلم به قدر القدرية، وأخرجت حججه شبه الخوارج، واهتز في يده سنان السنة.

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، الإمام العلم أبو عبدالله الشافعي المكي المطلبي الفقيه، نسيب رسول الله (... وقد ولد الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - بغزة سنة مائة وخمسين من الهجرة، فلم يكد يبلغ سنتين من عمره حتى حمل إلى مكة، فنشأ بها، وأقبل على علوم اللغة واعتنى بالأدب والشعر، فبرع في ذلك، وحُبِّبَ إليه الرمي، حتى فاق الأقران، وصار يصيب من العشرة تسعة.

... والسائب بن عبيد الله المطَّلبي - الذي نسب إليه الشافعي: أحد من أسر يوم " بدر " من المشركين، وكان يشبَّه بالنبي.

... وأمه هي:الشَّفَاء بنت أرقم بن نَضلَة، ونَضلَة هو أخو عبد المطلب، من بني هاشم، ويقال: إنه أسلم بعد أن فدى نفسه. وابنه شافع، له رؤية وهو معدود من صغار الصحابة. وكانت أم الشافعي أزدية.

حِفْظُه للقُرْآن وتِلاوتُهُ لَه:

... حفظ الإمام الشافعي - رحمه الله - القرآن، فما من حرف مرَّ به إلا وهو يعلم معناه والمراد منه... وقال ابن عبد الحَكَم: سمعت

الشافعي يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وقال: قرأت على شبل، وقال شبل: قرأت على عبد الله بن كثير، وهو على مجاهد، ومجاهد على ابن عباس.

... وقال الكرابيسىُّ: بتُّ مع الشافعي غير ليلةٍ، وكان يصلِّي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلاّ سأل الله، ولا يمرّ بآية عذاب إلاَّ تَعوَّذ منها.

شيوخ الشافعي:

... تتلمذ الإمام الشافعي لعدد غير قليل من الشيوخ فأخذ عليهم وروى عنهم كثير من علومه، نذكر منهم:

مالك بن أنس:

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة ٩٣هـ من الهجرة،وهو شيخ العلماء وأستاذ الأئمة، وكان بيته بيت علم، فجده الأعلى أبو عامر صحابي جليل، وجده الأسفل مالك من كبار علماء التابعين، تبحر في علم الحديث والتفقه في الكتاب والسنة، ويعد الشافعي ممن أخذ عنه العلم. وقد عرض عليه " الموطَّأ " حفظًا. توفي في الليلة الرابعة عشرة من ربيع الثاني سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع، وله من العمر ٨٦ سنة.

المَاجِشُون:

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي، له كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب، وكان الماجشون أصبهانيًّا نزل المدينة وكان من العلماء الربانيين. توفي سنة ١٦٤هـ.

مسلم بن خالد الزنجي:

... أبو خالد المخزومي المشهور بالزنجي فقيه " مكة "، تفقه وأفتى وتصدر للعلم وهو الذي أذن للشافعي في الإفتاء، حدث عنه الشافعي وكان فقيهاً، عابداً، يصوم الدهر. مات سنة ١٨٠هـ وله ٨٠ سنة.

إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، شيخ الشافعي الحافظ الإمام أبو إسحاق الزهري المدني، ولي قضاء المدينة وروى عنه من الكبار شعبة والليث بن سعد وعاش ٧٥ هـ سنة. توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة.

إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الفقيه:

أبو إسحاق الأسلمي المدني أحد الأعلام، روى عن الزهري وخلق كثير حدث عنه الشافعي وابن جريج وهو من شيوخه قال عنه الشافعي: كان قدريًّا، وقال عنه أحمد بن حنبل: قدريٌّ جهمي كل بلاء فيه ترك الناس حديثه. توفي سنة ١٨٤هـ.

سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ أبو محمد الهلالي الكوفي، محدث الحرم. ولد سنة سبع ومائة، وطلب العلم في صغره، حدث عنه الشافعي والزعفراني والرملي، وخلق لا يحصون، وكان إمام حجة حافظاً واسع العلم كبير القدر، وقد حج سبعين سنة. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. مات سنة ١٩٨هـ.

إسماعيل بن جعفر:

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري قارئ أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد تولى إمارة الحج غير مرة، وكان أسن من الرشيد بشهور..

تلاميذ الشافعي:

كثر تلاميذ الإمام الشافعي ممن رووا عنه ونهلوا من فيض علمه نذكر منهم:

أبو بكر الحُميدي:

هوأبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي المكي،

المعروف بالحميدي، رحل مع الشافعي من مكة إلى مصر ولزمه حتى مات، ورجع مكة يفتي إلى أن توفي بها سنة ٢١٩هـ. روى عن الشافعي أن الشعرة الواحد يجب فيها ثلث مد، وفي الشعرتين ثلثان في الحج.

أبو عبيد القاسم بن سلام:

له صحبة مع الشافعي وكتب كتبه وكان بغدادي الأصل وله اختيار ولم يُجرَّد للشافعي. توفي بمكة سنة ٢٢٤هـ وهو ابن ٧٣ سنة.

أحمد بن حنبل:

هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، إمام أهل السنة يقول فيه الشافعي: " خرجت من العراق، فما تركت رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أورع، ولا أتقى من أحمد بن حنبل. ولد في مدينة بغداد سنة أربع وستين ومائة، كفلته أمه بعد وفاة والده، وأخذ العلم من يحيى بن معين،وإسحاق بن راهويه،والشافعي، وغيرهم وقد كان الشافعي يُعَظِمه. توفي سنة ٢٤١هـ، وله من العمر ٧٧ سنة.

من أبرز تلاميذ الإمام الشافعي:

لقد اشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق واعترف له العلماء، وعظمة مكانته عند الخلفاء وولاة الأمر، وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار والأئمة والأخيار، وتمسكوا بطريقته ومنهم:

البُوَيْطِي:

... هو يوسف بن يحيى القرشي البُوَيْطِيُّ المصري الفقيه، صاحب الشافعي، وكنيته أبو يعقوب.

... قال الذهبي - في " السير " -: الإمام العَلاَّمة سَيِّدُ الفقهاء، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مُدَّةً وتخرَّجَ به، وفاق الأَقْرَانَ.

... روى - رحمه الله - عن: عبد الله بن وهب، ومحمد بن إدريس الشافعي.

... ولم تذكر الكتب التي ترجمت له سِوَى ابن وهب، والشافعي من شيوخه.

ذِكْرُ مَنْ وَثَّقَهُ، وأَثْنَى عَلَيْهِ:

... قال ابن أبي حاتم: سُئِلَ عنه أبي؟ فقال: صدوق.

... وقال ابن عبد البر: كان من أهل الدِّينِ والعِلمِ والفهم والثقة، صَلِيباً في السُّنَّةِ، يَرُدُّ على أهل البِدَعِ، وكان حَسَنَ النَّظَرِ.

وقال الذهبي: مات الإمام البويطي في قيده مسجوناً بـ " العراق " في سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وممن أَرَّخَ وفاته في هذه السَّنة أيضاً الخطيب، وقال:هذا القول في وفاته أصح، وقد ذكره هكذا غير واحد.

أبو ثَوْرٍ:

إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي من رواة القديم، قال أحمد بن حنبل:أعرفه بالسُّنة منذ خمسين سنة، قال وهو عندي كسفيان الثوري، مات سنة أربعين ومئتين، وكان أبو ثور على مذهب الحنفية، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه ويسر علمه. وله مصنفات كثيرة يَذكر فيها الاختلاف ويحتجُّ لاختياره.

حرملة بن يحيى:

... هو حرملة بن يحيى بن عبدالله بن حرملة المصري التُّيجيبي صاحب الشافعي، كان إماماً حافظاً للحديث والفقه، ولد سنة ست وستين ومئة، صنف المبسوط والمختصر المعروف به، توفي ستة ثلاث وأربعين ومائتين....

المزني:

... أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني،

المصري. ولد سنة خمس وسبعين ومائة كان إماماً ورعاً وقال الشافعي فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه، صنف المبسوط والمختصر والمنثور والترغيب في العلم وغيرها. وصنف كتاباً مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعي. توفي سنة أربع وستين ومائتين. ودفن بالقرب من قبر الإمام الشافعي.

الزعفراني:

... أبو على الحسن بن محمد بن الصبَّاح الزعفراني، كان إماماً في اللغة، وكان يذهب إلى مذهب أهل العراق فتركه وتفقه للشافعي. قرأ على الشافعي الكتاب كله نيفاً على ثلاثين جزءًا. وكتبه عنه، وهو الكتاب المعروف بالبغدادي وبالقديم، ويقال لكتابِهِ المصريِّ الذي كتبه بمصر الجديد. مات سنة ست وستين ومائتين.

الرَّبِيعِ بْن سُلَيْمَان:

... هو: الربيع بن سليمان بن عبد الجَبَّار بن كامل المرادي، مولاهم، المصري المؤذِّن، صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتبه.... قال الإمام الذَّهبي: صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المُؤَذِّنين بجامع " الفسطاط "، ومستملي مشايخ وقته.

وقد أجمعت المَصَادِرُ التي ترجمت له على أن كنيته: أبو مُحَمَّدٍ.

وكان مَوْلِدُهُ - كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في " السير " - في سنة أربع وسبعين ومائة، أو قبلها بعام، وتوفي يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين.

روى عن عَدَدٍ كبير من الشيوخ. وخلق كثير.

والحسين بن على الكرابيسي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وقد سبق الحديث عنهما.

مكانته العلمية:

... حاز الإمام الشَّافعي(من أَلْوَان الثقافة وفنون العلم والمعرفة،

ما لم يظفر به أحد غيره من الأئمة؛ لأمرين:

... **أحدهما**: أصالة نظره وعمق تفكيره ووفور عقله، الأمر الذي ساعده على الإفادة مما يحيط به، ولقد صدق القَاسِم بن سلاَّم، حيث يقول: " ما رأيت رجلاً قَطُّ أعقل من الشَّافعي ".

... **وثانيهما**: كثرة أسْفَاره إلى " اليمن "، و" العراق "، و" مصر "، واتصاله المستمر بالعلماء، حيث نهل من علومهم ومعارفهم شيئاً عظيماً.

... وكانت نتيجةُ التَّرحال أن نال ثقافةً واسعةً في اللغة، والأدب، والحديث، والفقه على طريقتي أهل الحديث وأهل الرأي؛ كما أنه نال ثقافة اجتماعيةً اكتسبها من مشاهدة حياة البدو في البادية، والحضارة الأوليَّة في " الحجاز "، و" اليمن "، والحضارة العريقة المعقدة المركَّبة في كل من " العراق " و" مصر ".

أصول المذهب الشافعي:

... كان الإمام الشافعي في بداية طلبه للعلم يعد نفسه تلميذاً للإمام مالك بن أنس، وأحد رجال مدرسته، إلى أن قَدِمَ " العراق " للمرة الثانية، فأسس هناك مذهباً مستقلاًّ.

... وقد دَرَسَ الشافعي مذاهب المتقدِّمين، وبحث بدقة متناهية مسلك المدرسَتَيْن: مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي، وأحدث بعد هذا التمحيص طريقة نقْدية جديدة جمعت بين مميزات المدْرَستين؛ وبذلك كوّن مركزاً وسطاً بين أهل الرَّأي، وأهل الحديث.

أصول المذهب:

... قال الإمام الشافعي في " الأم ": " الأصل: قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسولُ الله، وصحَّ الإسناد به - فهو المنتهى، والإِجْمَاع أكبر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احْتَمل المعاني فما أشبه ظاهره أوْلاَها به، وإذا تكافأت الأحَادِيث فأصحُّها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيءٍ ما

عدا منقطع ابن المسيِّب، ولا يقاس أصلٌ على أصلٍ، ولا يقال للأصل: لِمَ وكيف؟ وإنما يقال للفرع: لِمَ؟ فإذا صحَّ قياسُه على الأَصْل صحَّ وقامت به الحجَّة ".

... ويؤخذ من هذا الكلام أن أصول مذهبه: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ لكن انفرد بِمَسْلَك منْفَرد في طريقة العمل بكل منها، وهذا لا يعني الحَصْر؛ بل قال بِحُجِّية قولِ الصَّحابي، والعُرْف، والاستِصْحَاب، أيضاً.

... وعن أصول مذهب الشافعي يقول الأستاذ الشيخ على الخفيف:

... وقد امتاز مذهب الشافعي بأصوله التي ذكرها صاحبه، ففصلها، وناضل عنها في كتابه الأم، والرسالة التي وضعها في هذا الغرض، فكانت أصولاً لمذهبه مقطوعاً بها غير مظنونة، مروية عن الشافعي نفسه، غير مستنبطة من النظر في مذهبه.

... وفيما يلي نشير إلى أصول المذهب الشافعي في إيجاز:

١- **الكتاب**: وقد عَدَّ الشافعي(كغيره من الفقهاء، والقرآن المصدر الأول للتشريع لا يُقدم عليه سواه، فهو المنبع الأول لاستقاء الفقه، والشافعي يحتج بظاهر الكتاب، ما لم يقم دليل على أن المراد بالآية غير ظاهرها

٢- **السُّنة**: ذهب الإمام الشافعي إلى القول بحجية خبر الواحد ودافع عن العمل به دفاعاً شديداً، ما دام راويه ثقة ضابطاً، وما دام الحديثُ متصلاً برسول الله، وأخذ على الحنفية أنهم قدموا القياس عليه.

... ويرى أن السنة إذا صحَّت يجب اتباعها اتباعَ القرآن، لكن لا يرى العمل بالمرسل إلا بشروطٍ: كأن يكون من مراسيل سَعِيد بن المسيِّب.

٣- **الإجماع**: ويعني عند الشافعي: عدم العلم بالخلاف على أساس

أن العلم بالاتِّفاق غير ممكن.

... وقد ردّ الشافعي ما ذهب إليه شيخه الإمام مالك، من اعتباره إجماع أهل " المدينة " حجة، وأصلاً من أصُول الفقه.

٤- **قول الصَّحابي**: احتج الشافعي - في قوله القديم - بأقوال الصَّحابة، أمَّا في الجديد: فالمعروف عنه - كما يقول كثير من أصحابه - أنه لم يحتج به على أساس أنه نقل أقوالاً لهم ثم خَالَفها.

... وقد ذهب ابن القيم إلى خلاف ذلك، حيث قال: إن كلامَ الشَّافعي - في الجديد -: " العلمُ طبقات: الأولى: الكتاب والسنة، والثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنة، الثالثة: أن يقول صحابي، فلا يعلم له مخالفٌ من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس " - يدل على أن قول الصحابي حجة وفي قوله الجديد أيضاً.

... قال الإمام في " الأم ": ما كان الكتاب والسنة موجودين، فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله أو واحدٍ منهم، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر، أو عمر، أو عثمان - إذا صرنا فيه إلى التقليد - أحب إلينا؛ وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناسُ كان أشهر ممن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يُفْتُون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تُعنى العامةُ بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام.

٥- **القياس**: كان الشَّافعي أولَ من تكلَّم في القياس، وضبط قواعده، وبَيَّنَهَا؛ فهو وإن لم يعرِّفه بالحد، ولا بالرسم التامِّ - إلا أنه وضحه بالأمثلة، والتَّوضيح بالمثال من قبيل الرسم الناقص.

... وقد وقف الشَّافعي موقفاً وسطاً بين تشدُّد مالك، وتوسُّع أبي حنيفة، واشترط في الأَخْذ به: أن تكون علَّته منضبطةً، ولا يكون في

المَسْأَلة حديثُ صحيحٌ، ولو كان من أخبار الآحاد.

٦- **الاستصحاب**: عَمِل الإمام الشافعي بالاستصحَاب، وعده من مصادر الأحكام.

٧- **العرف**: تأثر فقه الشافعي بالأعْرَاف السائدة في " مصر " في عَهْده؛ فرجع عمَّا بناه من أحكام فقهية على أعراف وعادات العراقيين؛ وهذا يعني أنَّ الشافعي يعتبر العرف مصدراً من مصادر الأحْكَام.

٨- **الاستحسان**: لم يأخذ الشافعي - كما هو المعروف عنه - بالاستِحْسَان، بل نَقِمَ عليه وعلى من يقُولُ به، حتى قال: " من استحسن فقد شَرَّع ".

... غير أن الشافعي بني بعض المَسَائل الفقهيَّة على الاستحسان، منها قوله: أستحسن أن تكون المتعة في حق العقيم ثلاثين درهماً، وقوله: أستحسن أن يؤجَّل الشفيع ثلاثاً.

... وفي السارق قال: إذا أخرج يده اليُسرى بدل اليُمْنَى فقطعت، القياس أن تقطع يمناه، والاستِحْسَان ألاَّ تقطع.

... وبناء على ذلك فإن الاستحسان الذي حمل عليه الشَّافعي وأنكره هو ما يستحسنه النَّاس ويشتهونه بغير دليل، وهذا ما لم يقل به أحد من المجتهدين.

كان الشافعي يقضي الساعات الطوال في دروس متصلة، ينتقل من علم إلى علم، يجلس في حلقته إذا صلى الفجر، فيأتيه من يريدون تعلم القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء طلاب الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا انتهوا جاء بعدهم من يريدون تعلم العربية والعروض والنحو الشعر، ويستمر الشافعي في دروسه من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر**!!**

وكما كان الشافعي فقيهًا ومحدثًا كبيرًا، كان أيضًا شاعرًا رقيقًا فاض شعره بالتقرب إلى الله، فها هو ذا يستغفر الله ويدعوه قائلا:

ولما قَسا قَلْبي وضــاقَتْ مــذاهبي ::: جعلتُ رجائي نحو عفــوك سُــلَّمًا
تعــاظَمَني ذَنبْــي فلمَّــا قِرَنْتُــهُ ::: بعفْوِكَ ربِّي كان عفُــوك أَعْظَمــا

ويوصي الشافعي من خلال شعره بألا نرد على السفيه قائلاً:

إذا نطــق الســفيه فــلا تجبــه ::: فخــير مــن إجابتــه الســكوت
فــإن كلمتــه فرجــت عنــه ::: وإن خليتــه كمــدًا يمــوت

ويصور عزة نفسه، وإن كانت ثيابه قديمه بالية، فتحتها نفس أبية عزيزة غالية لا مثيل لها فيقول:

على ثياب لو يباع جميعها بفلــس ::: لكــان الفلــس منــهن أكْثَــرا
وفيهن نفسٌ لو يُقــاسُ ببعْضِــها ::: نفوسٌ الورى كانت أجلَّ وأكْبَــرا

ومرض الشافعي، وقربت ساعة وفاته؛ فدخل عليه أحد أصحابه وقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ومن كأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الكريم سبحانه واردًا، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها.

ومات الشافعي ليلة الجمعة من آخر رجب عام ٢٠٤هـ، وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي (بمصر) مخترقة شوارع الفسطاط وأسواقها، حتى وصلت إلى درب السباع؛ حيث أمرت السيدة نفيسة - رضي الله عنها - بإدخال النعش إلى بيتها، ثم نزلت إلى فناء الدار وصلت عليه صلاة الجنازة، وقالت: رحم الله الشافعي إنه كان يحسن الوضوء.. [(١)].

* * *

(١) المصدر: النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

الإمام أبو حنيفة

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أبـو حنيفة

... ليس من السهل الميسور على البحث أن يرسم لأبي حنيفة صورة صحيحة صادقة يرضى عنهما الباحث إذ إن أتباع مذهبه والمتعصبين له قد أفرطوا في تقديره، وغالوا في الثناء عليه، والطاعنين فيه قد بالغوا في انتقاصه، فرموه بالزندقة، ونسبوه إلى البدعة، واتهموه بالخروج عن الجادة والرغبة في إفساد الدين وإهمال السنة.

... ولا ريب أن هذه الآراء المتناقضة بين محبٍّ غالٍ ومبغضٍ قالٍ ليتوه في غمرتها عقل الباحث، ويتفرق ذهنه، ويتوزع مجهوده في تمحيصها وبيان الحق الصحيح منها وتمييزه عن الكاذب الزائف.

... تلك كلمة موجزة رأيت أن أصدر بها ترجمتي لأبي حنيفة؛ إذ لا سبيل إلى إغضاء الطرف عن هذه الحقيقة أو إهمالها.

... ومهما يكن من أمر فسأحاول استخراج ترجمة لهذا الإمام الجليل من ركام هذه الأخبار المضطربة، وأنأى ما استطعت عن مواطن الخلاف ومواضع النزاع التي خاض فيها المترجمون وكُتَّاب الطبقات وأصحاب المناقب.

اسمه ونسبه ومولده:

... هو النعمان بن ثابت بن زوطي بن كاوُس بن هُرمز بن مرزبان ابن بهرام التيمي.

... ولد أبو حنيفة رضي الله عنه بمدينة الكوفة سنة ثمانين من الهجرة النبوية، وهي الرواية الصحيحة المجمع عليها بين المترجمين

والمؤرخين.

... وقد أجمع الثقات على أن أبا حنيفة فارسي النسب، فأبوه هو ثابت بن زوطي الفارسي، وقد كان جده من أهل كابل، وقد أسر عند فتح العرب لفارس، واسترق لبني تيم بن ثعلبة، ثم أعتق، فكان ولاؤه لهذه القبيلة، وكان هو تيميًّا بهذا الولاء.

... ولم يكن أبو حنيفة يحفل بمسألة الأنساب ولا يلقي لها بالاً، ولا كان حريصاً على نفي الرق عن جده، بل كان يقول: أعلم أن التقوى أعلى الأنساب وأقوى أسباب الثواب، ولذا عد رسول الله ﷺ سلمان الفارسي رضي الله عنه من أهل البيت، فقال:«**سلمان منا آل البيت**».... وقد نشأ أبو حنيفة بالكوفة وأقام بها أكثر حياته، وقد نشأ في بيت إسلامي خالص يحفظ للدين حرماته، ويعرف له قواعده وأصوله.

... وورث أبو حنيفة عن أبيه مهنة التجارة فكان يغشى الأسواق قبل غشيانه مجالس العلماء وحلقات الدرس، وقد عرف طول حياته بأنه يحترف التجارة ويتكسب منها.

وأقبل أبو حنيفة في نشأته الأولى على القرآن حفظاً وقراءة، ورُوى أنه كان يختم القرآن ستين مرة في رمضان، وقد جاء من عدة طرق أنه أخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القراء السبعة... وقد غَصَّ العراق قبل الإسلام وبعده بالملل والنحل؛ حيث كانت مهداً لمدنيات وحضارات قديمة وكان العراق بعد الإسلام مزيجاً من أجناس مختلفة، وكانت فيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد: فيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة. وكان فيه في عصر أبي حنيفة تابعون مجتهدون التقى بهم، ومن قبلهم كان فيه عبد الله بن مسعود الذي بعثه عمر إليهم ليعلمهم الفقه، ويهديهم للسبيل الأقوم، ثم كان فيه إمام الهدى على بن أبي طالب، رضي الله عنه.

... فُتحت عين أبي حنيفة فرأى علم العراق وآثار الصحابة فيه، وأشع عقله، فانبثقت ينابيع فكره، فأخذ يجادل مع المجادلين، ونازل بعض أصحاب النِحل بما توحى به السليقة المستقيمة.

... وقد لفت ذكاء أبي حنيفة ونبوغه المبكر أنظار العلماء.

... فيروى عنه أنه قال: مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني، فقال لي: إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إلى العلماء، فقال لي: لا تفعل، عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة. قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله.

لقد نهل أبو حنيفة من ينابيع الثقافة الإسلامية التي أتيحت له آنذاك كافة، فَأَلَمَّ إلماماً جيداً بالحديث، وعرف قدراً كبيراً من النحو والأدب والشعر، وخاض في مسائل الاعتقاد مجادلاً الفرق الكلامية المنتشرة في العراق، وكان يرحل لهذه المناقشة إلى البصرة، وكان يمكث بها أحياناً سنة لذلك الجدل، ثم انصرف بعد ذلك إلى الفقه، وإن كان يناقش أحياناً في مسائل العقيدة إذا عرض له ما يقتضي ذلك.

شيوخ أبي حنيفة:

... نشأ أبو حنيفة في بيئة علمية ممتازة، مشحونة بكثير من العلماء في مختلف العلوم الإسلامية. ولا ريب أن أبا حنيفة قد جالس علماء عصره فأخذ عنهم، وتتلمذ عليهم، وألم بمناهج بحثهم، ثم اصطفى من بينهم فقيهاً لازمه ملازمة تامة حيث وجد فيه ما يرضى نزوعه العلمي ومشربه العقلي، وهذا الفقيه هو حماد بن أبي سليمان الذي انتهت إليه مشيخة الفقه العراقي في عصره. وإلى ذلك يشير أبو حنيفة بقوله: " كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله، ولزمت

فقيهاً من فقهائهم ".

... وقد نشأ حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة بالكوفة، وأخذ الفقه عن إبراهيم النخعي والشعبي، وهذان الفقيهان الكبيران تلقيا الفقه عن شريح وعلقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع. وقد أخذ أولئك الفقه عن الصحابيين الجليلين: عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وهما عماد الفقه الكوفي.

... وقد لزم أبو حنيفةَ حمادَ بن أبي سليمان ثماني عشرة سنة، وأخذ عنه فقه أهل العراق، وهو خلاصة فقه علي وعبد الله بن مسعود، كما تلقى عنه فتاوى إبراهيم النخعي، قال الدهلوي: إن المعين للفقه الحنفي هو أقوال إبراهيم النخعي.

... ولم ينقطع الإمام أبو حنيفة عن الدرس والتحصيل بعد وفاة شيخه الكبير حماد بن أبي سليمان سنة ١٢٠هـ، بل تابع سعيه الدءوب في طلب العلم مستصحباً الأثر القائل: " لا يزال الرجل عالماً ما دام يطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل ".

... ففي مكة أخذ أبو حنيفة علم ابن عباس عن عطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولاه، كما أخذ علم ابن عمر وعلم عمر عن نافع مولى ابن عمر.... وقد نهل أبو حنيفة من علوم أئمة الشيعة فأخذ عنهم ودارسهم غير مقتصر على فقهاء أهل السنة، فقد التقى أبو حنيفة بأئمة الشيعة: زيد بن على، ومحمد الباقر، وأبي محمد عبد الله بن الحسن، وتتلمذ لهم وأخذ عنهم.

... على هذا النحو يمكن أن نقول: إن أبا حنيفة تلقى فقه الجماعة الإسلامية بشتى منازعها، وإن كان قد غلب عليه تفكير أهل الرأي، بل عُدَّ شيخ أهل الرأي غير مدافَعٍ.

تلاميذ أبي حنيفة:

ليس لأبي حنيفة كتاب في الفقه رتب أبوابه وهذّب مادته وعقد نظامه، وهذا أمر يستقيم مع الواقع ويتفق مع روح العصر؛ إذ لم

تنتشر حركة التأليف والتصنيف إلا بعد وفاة أبي حنيفة أو في آخر حياته.

وقد كانت السبيل إلى معرفة آراء أبي حنيفة والوقوف على اجتهاداته تلاميذه؛ إذ كانوا يدوِّنون آراء شيخهم ويقيدونها، وربما كان يمليها عليهم.

فليس لنا أن نعرف فقه أبي حنيفة إلا عن طريق أصحابه وتلاميذه، وسوف نشير فيما يلي إلى بعضهم ممن قاموا بتدوين فقهه، سواء أكانوا ممن طالت ملازمتهم كمحمد بن الحسن، أم كانوا ممن لم تطل ملازمتهم، ما دام لهم أثر في نقل فقهه إلى الأجيال اللاحقة.

زفر بن الهذيل:

زفر بن الهذيل الحنفي أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ابن قيس بن منجور بن جندب ابن العنبر بن عمرو بن تميم بن مر.

وقد أخذ زفر عن أبي حنيفة فقه الرأي حتى غلب عليه، وكان أحدَّ أصحاب أبي حنيفة قياساً.

قال الخطيب البغدادي: روى أن المزني جاءه رجل، فسأله عن أهل العراق قال: ما تقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم، قال: فأبو يوسف؟ قال: أتبعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعاً، قال: فزفر؟ قال: أحدُّهم قياساً. توفي سنة ١٥٨هـ عن ثمان وأربعين سنة، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

أبو يوسف:

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسباً، والكوفي منشأً وتعلماً ومُقاماً، وكان ميلاده سنة ١١٣هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ.

وقد لازم أبو يوسف أبا حنيفة وانقطع إليه، حتى صار أعظم

أصحابه غير مدافع.

محمد بن الحسن الشيباني:

نسبة إلى شيبان بالولاء لا بالنسب الأصيل. وكنيته: أبو عبد الله. ولد سنة ١٣٢هـ، ومات سنة ١٨٩هـ، أي أن سنه كانت حين مات أبو حنيفة ثماني عشرة سنة. فلم يقدر له أن يصحب أبا حنيفة زمناً طويلاً، بل أخذ أكثر دراسته الفقهية عن أبي يوسف بالعراق، كما سمع من الثوري والأوزاعي، ورحل إلى الإمام مالك بالمدينة فأخذ عنه فقه الحديث والرواية.

الحسن بن زياد اللؤلؤي:

وهو من فقهاء المذهب الحنفي الذين رووا آراء أبي حنيفة، وقد توفي سنة٢٠٤هـ.

ويقال: إنه تتلمذ لأبي حنيفة وكان من أصحابه. وقد اشتهر برواية الحديث، فقال عن نفسه: كتبت عن ابن جريج اثني عشر ألف حديث، كلها يحتاج إليها، كما اشتهر برواية آراء أبي حنيفة.

وهؤلاء الأربعة الذين ذكرناهم كانوا من أصحاب أبي حنيفة، وتلقوا عنه مباشرة، وثمة فقهاء أخذوا عن هؤلاء الصَّحْب، ليس هذا محل ذكرهم.

مكانته العلمية:

... لأبي حنيفة مكانته العلمية التي لا ينكرها إلا مكابر، والتي أَقَرَّ له بها العلماء جيلاً بعد جيل؛ فيقول عنه معاصره الفضيل بن عياض: " كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً، معروفاً بالفقه... معروفاً بالأفضال... صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار ".

... وكثر مدح المادحين له حتى سماه عبدالله بن المبارك بـ " مخ العلم ".

... والحق أن لأبي حنيفة آراءه المستقلة، وفكره الخاص الذي

ينم عن عقل رزين وفهم دقيق، يشهد بهما كل من طالع كتب الفقه الحنفي.

... وقد خاض أبو حنيفة في شتى المجالات، وأظهر في الآراء ما تفرد به في مجالات السياسة، وعلم الكلام، والإيمان والقدر وأعمال الإنسان، وغير ذلك.

... ولم يكن فقه أبي حنيفة منعزلاً عن الناس والحياة، بل كان " يَغشى الأسواق، ويتجر، ويعامل الناس، ويدرس الحياة كما يدرس الفقه والحديث "؛ ومن ثم كان خبيراً بأصول المعاملات، مدركاً لأسرارها والمؤثرات التي تؤثر فيها.

... من أجل هذا كله كُتِبَ لفقه أبي حنيفة أن يبقى راسخاً على مر السنين والأعوام، واشتهر في العديد من البلاد والأقطار الإسلامية، فرحمه الله رحمة واسعة.

أصول المذهب الحنفي:

ثمة أصول مجمع عليها بين فقهاء الحنفية بنوا عليها آراءهم واجتهاداتهم نشير إليها فيما يلي:

١– القرآن الكريم:

يعد أبو حنيفة من أوائل من بيَّن وجوه دلالات القرآن الكريم، وقد اختلف مع الجمهور في عدة مسائل، أبرزها: قطعية دلالة العام، وعدم الأخذ بمفهوم المخالفة.

٢– السنة:

وهي الأصل الثاني الذي اعتمد عليه أبو حنيفة وفقهاء مذهبه في الاستنباط، وهي تلي القرآن في الرتبة.

وقد قامت معركة بين الفقهاء في مقدار اعتماد أبي حنيفة في استنباطه الفقهي على السنة، حتى لقد زعم البعض الذين نقصوا مقدار ذلك الاعتماد أنه كان يقدم القياس على السنة.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: لقد رُمي أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - في حياته بمخالفة السنة؛ وأكثر الذين أرادوا انتقاص قدره بعد وفاته من ذكر ذلك، ولقد نفى هذه التهمة عن نفسه؛ فقد كان - رحمه الله - يقول: " كذب والله وافترى علينا من يقول: إننا نقدم القياس على النص، وهل يُحتاج بعد النص إلى قياس؟! " ففي هذا النص يضع أبو حنيفة الأمر في موضعه، فهو يقول: إنه لا يُلجأ إلى القياس إلا عند عدم العثور على النص، فإن عثر عليه لم يكن ثمة حاجة إلى قياس.

بل لقد صرح بذلك في قوله: " نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك أننا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسنة أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلاً قسنا حينئذٍ مسكوتاً عنه على منطوق به ".

وروى عنه(: " إنا نعمل أولاً بكتاب الله، ثم بسنة رسول الله، ثم بأحاديث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم ".

٣- الإجماع:

ويمكن تعريف الإجماع بأنه: اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر على أمر من الأمور.

وقد ذكر علماء المذهب الحنفي أن أبا حنيفة كان يعتبر الإجماع أصلاً في أصول فقهه التي بنى عليها اجتهاده، وقد نص هؤلاء على أن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يأخذون بالإجماع في شتى طرائقه، فهم يأخذون بالإجماع القولي، والإجماع السكوتي، فيعدون الأول حجة قطعية، والثاني حجة ظنية.

... وقد رتب بعض علماء الحنفية ومنهم البزدوي الإجماع من حيث قوته وما يترتب عليه النحو التالي:

أولاً: إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - الذي نقل إلينا متواتراً على حكم شرعي وهذا يكون حكمه حكم الكتاب والسنة المتواترة في

وجوب العمل به ويكفر جاحده.

ثانياً: إجماع التابعين وتابعيهم، فهو بمنزلة الحديث المشهور وحجته ظنية لما فيه من شبهة الخلاف، فيكون منكره جاحداً لا كافراً.

ثالثاً: الإجماع المنقول بطريق الآحاد، ومثله الإجماع السكوتي الذي لم تقم قرينة تدل على أن سكوت المجمعين كان للموافقة. فلا يحكم بكفر منكره أو تضليله.

٤ – قول الصحابي:

... كان أبو حنيفة يأخذ بقول الصحابي أو فتواه، ويعده حجة واجبة الاتباع، وكان - رحمه الله - إذا اجتهد في موضوع كانت للصحابة آراء فيه، يختار من بينها، ولا يخرج عن آرائهم إلى غيرها، فإذا لم يكن رأيٌ اجتهدَ، ولم يكن أبو حنيفة يأخذ بقول التابعي؛ فهو لا يقلد التابعي ولكن يقلد الصحابي.

... وقد أُثر عن أبي حنيفة أنه قال: " آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله (أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم. فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب - وعدد رجالاً - فقوم اجتهدوا، فاجتهد كما اجتهدوا ".

٥– القياس:

... وقد فاقت شهرة أبي حنيفة في الأخذ بالقياس جميع من سبقه؛ لما اتصف به في الدقة وسرعة الخاطر في إدراك ما يكون بين الأمور من التشابه والاختلاف.

وقد عرَّف العلماء القياس الذي اعتمده أبو حنيفة وأكثر منه في اجتهاداته بأنه: بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة أو الإجماع؛ لاشتراكه معه في علة الحكم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

... " ولقد كان مسلك أبي حنيفة في فهم النصوص يؤدي إلى الإكثار من القياس إذ لا يكتفي بمعرفة ما تدل عليه من أحكام، بل يتعرف من الحوادث التي اقترنت بها، وما ترمي إليه من إصلاح للناس، والأسباب الباعثة، والعلل التي تؤثر في الأحكام وعلى مقتضاها يستقيم القياس ".

٦- الاستحسان:

هو عدول المجتهد عن مقتضى قياس جلي إلى قياس خفي أو عن حكم كلي إلى حكم استثنائي لدليل انقدح في عقله رجح لديه هذا العدول.

والاستحسان نوعان: الأول: ترجيح قياس خفي على قياس جلي بدليل. والثاني: استثناء جزئية من حكم كلي بدليل.

والحق أن أبا حنيفة وإن لم ينفرد بالاستحسان على التحقيق إلا أنه يعتبر أكثر الأئمة أخذاً له.

قال محمد بن الحسن الشيباني: " إن أصحابه كانوا ينازعونه المقاييس، فإذا قال: أستحسن، لم يلحق به أحد ".

٧- العرف:

قال الغزالي: " العرف والعادة: ما استقر في النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ".

وكان أبو حنيفة إذا لم يمض له قياس ولا استحسان في المسألة نظر إلى ما عليه تعامل الناس، وتعامل الناس هو العرف الجاري بينهم، فهو يأخذ بالعرف إذا لم يكن ثمة نص من كتاب أو سنة ولا إجماع، ولا حمل على النصوص بطريق القياس أو الاستحسان بكل طرائقه، سواء أكان استحسان قياس أم استحسان أثر أم استحسان إجماع أو ضرورة.

وفي الجملة فإن أبا حنيفة قد أخذ بالعرف مصدراً من مصادر الاستنباط، وأصلاً من الأصول يرجع إليه إن لم يكن سواه.

٨- المصالح المرسلة والاستصحاب:

... عَرف الإمام الغزالي المصلحة بقوله: " وأما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشارع، ومقصود الشارع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقولهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما تضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعه مصلحة وهي المصالح العتبرة من الشارع ".

والمصلحة المرسلة هي التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها، ولم يدل دليلاً شرعي على اعتبارها، أو إلغائها.

والاستصحاب:

... **لغة**: من المصاحبة، وهي الملازمة، وعدم المفارقة.

... **واصطلاحاً**: ثبوت أمر في الزمن الثاني، بناء على ثبوته في الزمن الأول؛ لفقدان ما يصلح للتغير.

... وقد عمل أبو حنيفة أيضاً بهذين الأصلين في حدود معينة.

وكان أبو حنيفة كريمًا واسع الكرم، وتاجرًا أمينًا ماهرًا، ظل يعمل بالتجارة طوال حياته، وكان له دكان معروف في (الكوفة) كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - يحب العمل حتى ينفق على نفسه، فكان يبيع الخز (وهو نسيج من الصوف).

سمع أبو حنيفة رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل؛ فقال: والله لا يتحدث عني بما لم أفعل؛ فكان يحيي الليل صلاة وتضرعًا، فكان ورعًا، ولا يحدث بالحديث الذي يحفظه، ولا يحدث

بما لا يحفظ، وكان يتورع عن القسم خشية الهلاك، حتى إنه جعل على نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار.

وكان واسع الصدر، هادئ الطبع في حديثه مع الناس، فلقد روي أن رجلاً قال له: اتق الله، فانتفض، وطأطأ رأسه، وأطرق.. وقال له: يا أخي، جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى، وكان يخاف عاقبة الظلم؛ لذا رفض تولي القضاء للخليفة المنصور العباسي.

ومات سنة ١٥٠هـ، وصلى عليه خمسون ألف رجل، ودفن في بغداد، ويقال: إنه مات في نفس الليلة التي ولد فيها الإمام الشافعي.

وأبو حنيفة هو مؤسس المذهب الحنفي، أحد المذاهب الفقهية الأربعة، وقد انتشر مذهبه في العراق والهند وبلاد المشرق، يقول عنه الشافعي: (الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة) وقال عنه النضر بن شميل: كان الناس نيامًا في الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة، وقيل: لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح علمه عليهم، وقال عنه ابن المبارك: (ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة) وقال عنه يزيد بن هارون: (ما رأيت أحدًا أحلم من أبي حنيفة) [(١)].

* * *

(١) المصدر: كتاب النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

الإمام مالك

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام مالك

هو أبو عبد الله: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث - وهو ذو أصبح - ابن سويد، من بي حمير بن سبأ الأكبر، ثم من بني يَشْجب بن قحطان، وفي نسبه خلاف غير هذا.

ولد سنة خمس وتسعين من الهجرة، ومات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، وله أربع وثمانون سنة.

وقال الواقدي: مات وله تسعون سنة، وله ولد اسمه يحيى، ولا يعلم له غيره.

هو إمام أهل الحجاز، بل إمام الناس في الفقه والحديث، وكفاه فخرًا أن الشافعي من أصحابه.

أخذ العلمَ: عن محمد بن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ونافع مولى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، ومحمد بن المنكدر، وهشام بن عروة بن الزبير، وإسماعيل بن أبي حكيم، وزيد ابن أسلم، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، ومَخْرمَة بن سليمان، وربيعة ابن أبي عبد الرحمن، وأفتى معه، وعبد الرحمن بن القاسم، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر - وليس بالقاضي - وخلق كثير سواهم.

وأخذ العلم عنه خلق كثير لا يُحْصون كثرة. وهم أئمة البلاد.

منهم: الشافعي، ومحمد بن إبراهيم بن دينار، وأبو هاشم المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبي حازم،

وعثمان ابن عيسى بن كنانة - هؤلاء نُظَراؤه من أصحابه - ومَعْنُ بن عيسى القزاز، وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، ويحيى بن يحيى الأندلسي - ومن طريقه

روينا " الموطأ " - وعبد الله بن مسلمة القَعْنَبيّ، وعبد الله بن وهب، وأصبغ بن الفرج، وغير هؤلاء ممن لا يحصى عدده.

وهؤلاء مشايخ البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وأحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم من أئمة الحديث.

قال مالك (رحمة الله عليه): قلَّ مَنْ كتَبْتُ عنه العلم، ما مات حتى يجيئني ويستفتيني.

وقال بكر بن عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربيعة بن عبد الرحمن وكنا نستزيده من حديثه، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة، وهو نائم في ذلك الطاق؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه، وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال: نعم. قلنا: الذي يحدث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم. قلنا: كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟! قال: أما علمتم أن مثقالاً من دَولة خير من حمل علم؟.

وكان مالك مبالغًا في تعظيم العلم والدين، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه، وسرَّح لحيته، واستعمل الطيب، وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة، ثم حدث، فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظِّم حديث رسول الله ﷺ.

ومر يومًا على أبي حازم وهو جالس، فجازه، فقيل له، فقال: إني لم أجد موضعًا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

قال يحيى بن سعيد القطان: ما في القوم أصح حديثًا من مالك.

وقال الشافعي (رحمه الله): إذا ذكر العلماء، فمالكٌ النجم، وما أحد أمَنَّ على مِن مالك (رحمة الله عليه).

ورُوي أن المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره، ثم دس عليه من يسأله، فروى على ملأ من الناس " ليس على مستكره طلاق " فضربه بالسياط، ولم يترك رواية الحديث.

وروي أن الرشيد سأل مالكًا فقال: هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر بها دارًا، فأخذها ولم ينفقها. فلما أراد الرشيد الشخوص، قال لمالك: ينبغي أن تخرج معي، فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال: أمَّا حمل الناس على " الموطأ " فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا بعده في الأمصار، فحدثوا، فعند أهل كل مصر علم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اختلاف أمتي رحمة**» وأما الخروج معك فلا سبيل إليه. قال رسول الله ﷺ: «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**» وقال: «**المدينة تنفي خبثها**» وهاذي دنانيركم كما هي، إن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها. يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ.

وقال ابن معينٍ: كان مالكٌ من حجج الله على خلقه.

قال في مختصر المدارك قال أحمد بن حنبلٍ: مالكٌ أتبع من سفيان وسئل عن الثوري ومالكٍ إذا اختلفا أيّهما أفقه؟ قال: مالكٌ أكبر في قلبي.

قيل له: فمالكٌ والأوزاعيّ؟ قال: مالكٌ أحبّ إلي وإن كان الأوزاعيّ من الأئمة.

قيل: فمالكٌ والليث؟ قال: مالكٌ، قيل: فمالكٌ والحكم وحمادٌ؟ قال: مالكٌ، قيل: فمالكٌ والنخعيّ؟ قال: ضعه مع أهل زمانه مالكٌ سيدٌ من سادات أهل العلم وهو إمامٌ في الحديث والفقه، ومن مثل مالكٍ؟.

وقيل له: الرجل يريد يحفظ الحديث حديث من ترى يحفظ؟ قال حديث مالكٍ فإنه حجةٌ بينك وبين الله، وقال: رحم الله مالكًا كان من الإسلام بمكانٍ.

قال: وسئل ابن المبارك من أعلم أمالكٌ أم أبو حنيفة؟ قال: مالكٌ أعلم من أستاذي أبي حنيفة، وهو إمامٌ في الحديث والسّنة وما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالكٍ ولا أقدم عليه أحدًا في صحة الحديث، ولم أر أحدًا مثله انتهى.

وقال أبو عمر في أول التمهيد عن ابن مهديّ: سئل من أعلم مالكٌ أو أبو حنيفة؟ قال: مالكٌ أعلم من أستاذي أبي حنيفة يعني حماد بن أبي سليمان انتهى.

وقال الجلال السّيوطي في حاشية الموطا: قال ابن مهديّ: سفيان الثوريّ إمام الحديث وليس بإمام في السّنة، والأوزاعيّ إمامٌ في السّنة وليس بإمامٍ في الحديث ومالكٌ إمامٌ فيهما جميعًا.

وسئل ابن الصلاح في فتاويه عن معنى هذا الكلام فقال: السّنة هنا ضدّ البدعة فقد يكون الإنسان عالمًا بالحديث ولا يكون عالمًا بالسّنة.

انتهى وفي الديباج المذهب عن أحمد بن حنبلٍ أنه سئل عمن يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه حديث من يكتب وفي رأيٍ من ينظر؟ قال حديث مالكٍ ورأي مالكٍ.

وقال ابن مهديّ سأل رجلٌ مالكًا عن مسألةٍ فقال مالكٌ: لا أحسنها، فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالكٌ: فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قلت لك: لا أحسنها.

وفي مختصر المدارك قال: سأل رجلٌ مالكًا عن شيءٍ من علم الباطن فغضب وقال: إن علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف الظاهر فإنه متى عرفه وعمل به فتح الله له علم الباطن، ولا يكون ذاك إلا مع فتح القلب وتنويره ثم قال للرجل: عليك بالدين المحض، وإياك وبنيات الطّرق وعليك بما تعرف، واترك ما لا تعرف.

وقال رضي الله عنه: طلب العلم حسنٌ لمن رزق خيره، وهو

قسمٌ من قسم الله عز وجل، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه.

وقال: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نورٌ يضعه الله في القلوب.

وقال الشافعي (رحمه الله): رأيت على باب مالك كراعًا من أفراس خراسان، وبغال مصر، ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه، فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله، فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. وكم مثل هذه المناقب لهذا الطود الأشم، والبحر الزاخر[١].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول - (١ / ١٨٠).

الإمام البخاري

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام البخاري

الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد بن إسماعيل البخاري أمير أهل الحديث، وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، يقول البخاري: صنفت الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

ولم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ، ودقة الرواية، والصبر على البحث مع قلة الإمكانات، حتى أصبح منارة في الحديث، وفاق تلامذته وشيوخه على السواء.

ويقول عنه أحد العلماء: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

فمع سيرة البخاري ومواقف من حياته.

نسبه ومولده:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري، وكلمة بردزبه تعني بلغة بخارى " الزراع ".

أسلم جده " المغيرة " على يدي اليمان الجعفي والي بخارى وكان مجوسيًا، وطلب والده إسماعيل بن إبراهيم العلم والتقى بعدد من كبار العلماء، وروى إسحاق بن أحمد بن خلف أنه سمع البخاري يقول: سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه.

ولد أبو عبد الله في يوم الجمعة الرابع من شوال سنة أربع وتسعين.

ويروى أن محمد بن إسماعيل عمي في صغره فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك شك البلخي، فأصبحت وقد رد الله عليه بصره.

قوة حفظه وذاكرته:

ووهب الله للبخاري منذ طفولته قوة في الذكاء، والحفظ من خلال ذاكرة قوية تحدى بها أقوى الاختبارات التي تعرض لها في عدة مواقف.

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث، وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم.

فأخذ القلم مني وأحكم(أصلح) كتابه وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.

ولما بلغ البخاري ست عشرة سنة كان قد حفظ كتب ابن المبارك ووكيع.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوما بعد ستة عشر يوما: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا عليَّ ما كتبتما،

فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا، وأضيع أيامي فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وقال ابن عدي: حدثني محمد بن أحمد القومسي، سمعت محمد بن خميرويه، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ، مائتي ألف حديث غير صحيح

قال: وسمعت أبا بكر الكلواذاني يقول: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلماء فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة.

طلبه للحديث:

رحل البخاري بين عدة بلدان طلبا للحديث الشريف ولينهل من كبار علماء وشيوخ عصره في بخارى وغيرها.

وروي عن البخاري أنه كان يقول قبل موته: كتبت عن ألف وثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

ونعود إلى البخاري في رحلته في طلب العلم ونبدؤها من مسقط رأسه بخارى، فقد سمع بها من الجعفي المسندي، ومحمد بن سلام البيكندي، وجماعة ليسوا من كبار شيوخه، ثم رحل إلى بلخ، وسمع هناك من مكبن بن إبراهيم وهو من كبار شيوخه، وسمع بمرو من عبدان بن عثمان، وعلي بن الحسن بن شقيق، وصدقة بن الفضل. وسمع بنيسابور من يحيى بن يحيى، وجماعة من العلماء، وبالري من إبراهيم بن موسى.

وفي أواخر سنة ٢١٠هـ قدم البخاري العراق وتنقل بين مدنها ليسمع من شيوخها وعلمائها. وقال البخاري: دخلت بغداد آخر ثمان مرات في كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل، فقال لي في آخر ما ودعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان؟! قال:

فأنا الآن أذكر قوله.

ثم رحل إلى مكة، وسمع هناك من أبي عبد الرحمن المقرئ وخلاد ابن يحيى، وحسان بن حسان البصري، وأبي الوليد أحمد بن محمد الأزرقي والحميدي.

وسمع بالمدينة من عبد العزيز الأويسي، وأيوب بن سليمان بن بلال وإسماعيل بن أبي أويس.

وأكمل رحلته في العالم الإسلامي آنذاك، فذهب إلى مصر، ثم ذهب إلى الشام، وسمع من أبي اليمان، وآدم بن أبي إياس، وعلي بن عياش وبشر بن شعيب، وقد سمع من أبي المغيرة عبد القدوس، وأحمد ابن خالد الوهبي، ومحمد بن يوسف الفريابي وأبي مسهر وآخرين.

مؤلفات البخاري:

عد العلماء كتاب الجامع الصحيح المعروف بـ (صحيح البخاري) أصح كتاب بعد كتاب الله، ويقول عنه علماء الحديث: هو أعلى الكتب الستة سندًا إلى النبي ﷺ في شيء كثير من الأحاديث؛ وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة وأقدمهم لقيا للكبار، أخذ عن جماعة يروي الأئمة الخمسة عنهم ".

ويقول في قصة تأليفه " الجامع الصحيح ": " كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب ".

ويقول في بعض الروايات:

- أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث.

- ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

- ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي

لا يطول الكتاب.

ويروي البخاري أنه بدأ التأليف وعمره ١٨ سنة فيقول:

" في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله في الليالي المقمرة، وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب، وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي فإذا جئت أستحي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين فضحك من حضر المجلس فقال شيخ منهم لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوما "

وقال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف؟ فقال: لا يخفى على جميع ما فيه، وسمعته يقول صنفت جميع كتبي ثلاث مرات.

دقته واجتهاده:

ظل البخاري ستة عشر عاما يجمع الأحاديث الصحاح في دقة متناهية، وعمل دؤوب، وصبر على البحث وتحري الصواب قلما توافرت لباحث قبله أو بعده حتى اليوم، وكان بعد كل هذا لا يدون الحديث إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين.

يروي أحد تلامذته أنه بات عنده ذات ليلة فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانا فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارا ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها.

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إن كان الرجل فهما، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله

ونسخته، فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

وكان العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدًا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل كان لا يدع أصلاً ولا فرعًا إلا قلعه ثم قال لنا: لا تدعوا من كلامه شيئًا إلا كتبتموه.

تفوقه على أقرانه في الحديث:

ظهر نبوغ البخاري مبكرا فتفوق على أقرانه، وصاروا يتتلمذون على يديه، ويحتفون به في البلدان.

فقد روي أن أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وكان شابا لم يخرج وجهه.

وروي عن يوسف بن موسى المروروذي يقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي يا أهل العلم، قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فقاموا في طلبه وكنت معهم فرأينا رجلا شابا يصلي خلف الأسطوانة، فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء، فأجابهم، فلما كان الغد اجتمع قريب من كذا كذ ألف، فجلس للإملاء، وقال: يا أهل البصرة، أنا شاب، وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون منها.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا، وعمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا متونها، وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسناد هذا، وإسناد هذا لمتن هذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه وسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، وكذلك

حتـى فـرغ مـن عشـرته، فكـان الفقهـاء يلتفـت بعضـهم إلـى بعـض، ويقولـون: الرجـل فهـم. ومـن كـان لا يـدري قضـى علـى البخـاري بـالعجز، ثـم انتـدب آخـر ففعـل كمـا فعـل الأول، والبخـاري يقـول: لا أعرفه، ثم الثالث: وإلـى تمـام العشـرة أنفس، وهو لا يزيـدهم علـى لا أعرفـه. فلمـا علـم أنهـم قد فرغـوا التفـت إلـى الأول مـنهم فقـال: أمـا حديثك الأول، فكذا، والثاني: كذا، والثالث: كذا، إلى العشرة، فرد كل متن إلـى إسـناده، وفعل بـالآخرين مثـل ذلـك، فـأقر لـه النـاس بـالحفظ فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح.

وروي عن أبي الأزهر قال: كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطـة البخـاري فـأدخلوا إسـناد الشام في إسناد العراق، وإسناد اليمن فـي إسـناد الحـرمين، فمـا تعلقـوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن.

وقال أحيد بن أبي جعفر والـي بخـارى: قـال محمـد بـن إسـماعيل يومًـا: رب حـديث سمعته بالبصـرة كتبتـه بالشـام ورب حـديث سمعته بالشام كتبته بمصر فقلت له: يا أبا عبد الله بكماله قال: فسكت.

من كلمات البخاري:

(لا أعلم شيئًا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة).

(مـا جلسـت للحـديث حتـى عرفـت الصـحيح مـن السـقيم، وحتـى نظرت في عامة كتب الرأي، وحتـى دخلـت البصـرة خمـس مـرات أو نحوها فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته إلا ما لم يظهر لـي).

(ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثنـاء عليه).

مواقف من حياة البخاري:

وقال بكر بن منير: سمعت أبـا عبد الله البخـاري يقـول: أرجـو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنـي اغتبـت أحـدا. قلـت: صـدق رحمـه الله ومـن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام فـي النـاس،

وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر ونحو هذا. وقل أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث حتى إنه قال إذا قلت فلان في حديثه نظر فهو متهم واه، وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدًا، وهذا هو والله غاية الورع.

يقول محمد بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم، فقلت: أراك تحمل على نفسك ولم توقظني! قال: أنت شاب ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

* يروي البخاري، فيقول: كنت بنيسابور أجلس في الجامع فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبد الله والي نيسابور، فأخبروه بمكاني، فاعتذر، إليهم وقال: مذهبنا إذا رفع إلينا غريب لم نعرفه حبسناه حتى يظهر لنا أمره، فقال له بعضهم: بلغني أنه قال لك لا تحسن تصلي، فكيف تجلس؟ فقال: لو قيل لي شيء من هذا ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة.

وذات يوم ناظر أبو بكر البخاري في أحاديث سفيان، فعرفها كلها ثم أقبل محمد عليه فأغرب عليه مائتي حديث، فكان أبو بكر بعد ذلك يقول: ذاك الفتى البازل والبازل الجمل المسن إلا أنه يريد هاهنا البصير بالعلم الشجاع.

قال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري يقول: دخلت بلخ فسألني أصحاب الحديث أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثا فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم.

قال أبو جعفر: سمعت أبا عمر سليم بن مجاهد يقول: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال: لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث، قال: فخرجت في طلبه حتى لحقته، قال: أنت الذي

يقول: إنـي أحفظ سبعين ألـف حـديث؟ قـال: نعم وأكثـر، ولا أجيئـك بحـديث مـن الصـحابة والتـابعين إلا عرفتـك مولـد أكثـرهم ووفـاتهم ومسـاكنهم ولسـت أروي حـديثا مـن حـديث الصـحابة أو التـابعين إلا ولي من ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال محمد بـن يعقـوب بـن الأخـرم: سمعت أصـحابنا يقولـون: لمـا قدم البخـاري نيسـابور استقبله أربعة آلاف رجل ركبانًـا علـى الخيل سوى من ركب بغلاً أو حمارًا وسوى الرجالة.

ورعه:

* قال محمد بن أبي حاتم: ركبنا يوما إلـى الرمـي، فجعلنـا نرمـي وأصاب سهم أبي عبد الله البخاري وتد القنطرة الذي على نهر ورادة فانشق الوتد، فلما رآه أبو عبد الله نـزل عن دابتـه، فـأخرج السـهم من الوتد وترك الرمي، وقال: لنا ارجعوا ورجعنا معه إلى المنـزل. فقـال لـي: يـا أبـا جعفـر لـي إليك حاجـة مهمـة قالهـا وهـو يتـنفس الصـعداء، وقـال لمـن معنـا اذهبـوا مـع أبـي جعفـر حتـى تعينـوه علـى مـا سـألته، فقلت: أية حاجة هي. قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم على الرأس والعين. قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة، فتقول لـه: إنـا قد أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنـه وتجعلنـا فـي حـل ممـا كـان منـا. وكـان صـاحب القنطـرة حميـد بـن الأخضـر الفربري. فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت فـي حل ممـا كان منك وجميع ملكي لك الفداء وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتـد أو فـي ملكـي فأبلغتـه رسـالته فتهلل وجهه واستنار وأظهر سرورا وقرأ في ذلك اليوم على الغربـاء نحوا من خمسمائة حديث، وتصدق بثلاث مائة درهم.

* وقال ابن أبي حاتم: ورأيته استلقى على قفاه يومًا ونحن بفربر في تصنيفه كتاب التفسير، وأتعب نفسـه ذلـك اليوم فـي كثرة إخراج الحديث، فقلت له: إنـي أراك تقول: إنـي مـا أثبـت شيئًا بغير علـم قط منذ عقلت فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليـوم وهذا ثغر

من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر الغد فأحببت أن استريح وآخذ أهبة فإن فاجئنا العدو كان بنا حراك.

* وضيفه بعض أصحابه في بستان له وضيفنا معه، فلما جلسنا أعجب صاحب البستان بستانه، وذلك أنه كان عمل مجالس فيه وأجرى الماء في أنهاره فقال له: يا أبا عبد الله كيف ترى؟ فقال هذه الحياة الدنيا.

* وقال أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن يعني إسماعيل والد أبي عبد الله عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهمًا من حرام ولا درهما من شبهة. قال أحمد: فتصاغرت إلى نفسي عند ذلك، ثم قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت.

وكان الحسين بن محمد السمرقندي، يقول: كان محمد بن إسماعيل مخصوصا بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس كل شغله كان في العلم.

عمله بالتجارة:

وعمل البخاري بالتجارة، فكان مثالاً للتاجر الصدوق الذي لا يغش ولا ينقض نيته مهما كانت المغريات. روي أنه حملت إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع بعض التجار إليه فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم، فقال: انصرفوا الليلة فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف فقال إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة.

ثناء الأئمة عليه:

قال أبو إسحاق السرماري: من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه فلينظر إلى محمد بن إسماعيل.

قال أبو جعفر: سمعت يحيى بن جعفر، يقول: لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد وموته ذهاب العلم.

وكان نعيم بن حماد يقول: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

قال مصعب الزهري: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث.

وروي عن إسحاق بن راهويه أنه كان يقول: اكتبوا عن هذا الشاب يعني البخاري، فلو كان في زمن الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفته بالحديث وفقهه.

وكان على بن حجر، يقول: أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد عندي أبصرهم وأعلمهم وأفقههم.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت إبراهيم بن خالد المروزي، يقول: رأيت أبا عمار الحسين بن حريث يثني على أبي عبد الله البخاري ويقول: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمد حدثني حاتم بن مالك الوراق قال: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا وفقيه خراسان.

وقال أبو الطيب حاتم بن منصور الكسي يقول: محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ونفاذه من العلم.

وقال سليم بن مجاهد، يقول: لو أن وكيعا، وابن عيينة، وابن المبارك كانوا في الأحياء لاحتاجوا إلى محمد بن إسماعيل.

وروي عن قتيبة بن سعيد أنه قال: لو كان محمد في الصحابة لكان آية. نظرت في الحديث، ونظرت في الرأي، وجالست الفقهاء والزهاد والعباد ما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عبد الله الحاكم: محمد بن إسماعيل البخاري إمام أهل الحديث.

قال أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله وأحفظ له من محمد بن إسماعيل.

قال محمد بن حمدون بن رستم: سمعت مسلم بن الحجاج وجاء

إلى البخاري، فقال دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله.

وقال سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بالبصرة يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح.

من كرم البخاري وسماحته:

قال محمد بن أبي حاتم: كانت له قطعة أرض يؤجرها كل سنة بسبعمائة درهم، فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين، لأن أبا عبد الله كان معجبًا بالقثاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحيانًا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا.

قال: وسمعته يقول: كنت أستغل كل شهر خمس مائة درهم، فأنفقت كل ذلك في طلب العلم، فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه وبين من كان خلوا من المال فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له، فقال أبو عبد الله:{وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ} [الشورى: ٣٦].

وكان يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه.

ويقول عبد الله بن محمد الصارفي: كنت عند أبي عبد الله البخاري في منزله، فجاءته جارية، وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق كيف أمشي فبسط يديه وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك. قال: فقيل له فيما بعد: يا أبا عبد الله، أغضبتك الجارية؟ قال: إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت.

محنة البخاري:

تعرض البخاري للامتحان والابتلاء، وكثيرًا ما تعرض العلماء الصادقون للمحن، فصبروا على ما أوذوا في سبيل الله، ولقد حسد البعض البخاري لما له من مكانة عند العلماء، وطلاب العلم،

وجماهير المسلمين في كل البلاد الإسلامية، فأثاروا حوله الشائعات بأنه يقول بخلق القرآن؛ ولذلك قصة يرويها أبو أحمد بن عدي فيقول: ذكر لي جماعة من المشايخ: أن محمد بن إسماعيل البخاري لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه فحسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه واجتماعهم عليه. فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول اللفظ بالقران مخلوق فامتحنوه في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق؟ هو أم غير مخلوق فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، فأعاد عليه القول فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة فالتفت إليه البخاري، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

وقالوا له بعد ذلك ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك، قال: لا أفعل إلا أن تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي، وأعجبني من محمد بن إسماعيل ثباته، وكان يقول: أما أفعال العباد فمخلوقة فقد حدثنا على بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك عن ربعي عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ :**«إن الله يصنع كل صانع وصنعته»**.

وبه قال: وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق قال الله تعالى{بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ} [العنكبوت: ٤٩].

وقال البخاري: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر.

وقال أيضا: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت: لفظي بالقرآن

مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله إلا أني قلت أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخراسان خصوصا في هذه المدينة، وقد لج في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى، فقبض على لحيته ثم قال:{وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ } [غافر: ٤٤] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشرا ولا بطرا، ولا طلبا للرئاسة إنما أبت على نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسدا لما آتاني الله لا غير، ثم قال: لي يا أحمد، إني خارج غدا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، فأخبرت جماعة أصحابنا، فو الله ما شيعه غيري كنت معه حين خرج من البلد، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

وقال محمد بن أبي حاتم: أتى رجل عبد الله البخاري، فقال: يا أبا عبد الله، إن فلانا يكفرك فقال: قال النبي ﷺ:«**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما**» وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك فيقول:{إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء: ٧٦]، ويتلو أيضا:{وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ } [فاطر: ٤٣]، فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ :«**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**» وقال ﷺ :«**من دعا على ظالمه فقد انتصر**».

محنته مع أمير بخارى:

روى أحمد بن منصور الشيرازي، قال: سمعت بعض أصحابنا، يقول: لما قدم أبوعبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق أحد إلا استقبله ونثر عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير، فبقي أياما قال: فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة، فقرأ كتابه على أهل بخارى، فقالوا: لا نفارقه فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج.

قال أحمد بن منصور: فحكى لي بعض أصحابنا، عن إبراهيم بن معقل النسفي، قال: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى، فتقدمت إليه، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر؟ فقال: لا أبالي إذا سلم ديني.

وروي عن بكر بن منير بن خليد بن عسكر أنه قال: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليَّ كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك، فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأني لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ: **«من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار»** فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

وفاة البخاري:

توفي البخاري - رحمه الله - ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائة وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وروي في قصة وفاته عدة روايات منها:

قال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله يقول: إنه أقام عندنا أياما فمرض واشتد به المرض، فلما وافى تهيأ للركوب فلبس خفيه وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخذ معي يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال رحمه الله: أرسلوني فقد ضعفت فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى رحمه الله، فسال منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه العرق إلى أن أدرجناه في ثيابه، وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا: أن كفنوني في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، ففعلنا ذلك، فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك فدام ذلك أياما: ثم علت سواري بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون، وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم نكن نقدر على

حفظ القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشبًا مشبكًا لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب، ولم يكونوا يخلصون إلى القبر، وأما ريح الطيب فإنه تداوم أيامًا كثيرة حتى تحدث أهل البلدة وتعجبوا من ذلك وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى قبره، وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب.

قال محمد بن أبي حاتم: ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل وأوصى أن يدفن إلى جنبه.

وقال محمد بن محمد بن مكي الجرجاني: سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسي، يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام، فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي ﷺ فيها.

رحم الله الإمام البخاري رحمة واسعة وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين وعن حديث رسول الله (ﷺ) (١).

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول، سير أعلام النبلاء، تاريخ بخارى، مقدمة صحيح البخاري.

الإمام مسلم

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام مسلم

هو الإمام الكبير الحافظ المجود، الحجة الصادق، أبو الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري، ولد بمدينة نيسابور سنة ٢٠٦هـ وتوفي بها سنة ٢٦١ هـ. رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق في طلب الحديث، وكان أحد أئمة الحديث وحفاظه، اعترف علماء عصره ومن بعدهم له بالتقدم والإتقان في هذا العلم، من شيوخه الكبار إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن منصور، وغيرهم، ومن الذين رووا عنه الترمذي، وأبو حاتم الرازي وابن خزيمة.

وكان إمامًا جليلاً مهابًا، غيورًا على السنة ذابًّا عنها، تتلمذ على البخاري وأفاد منه ولازمه، وهجر من أجله من خالفه، وكان في غاية الأدب مع إمامه البخاري حتى قال له يومًا: دعني أقبل رجلك يا إمام المحدثين وطبيب الحديث وعلله.

ثناء العلماء عليه:

أثنى أئمة العلم على الإمام مسلم، وقدمه أبو زرعة، وأبو حاتم على أئمة عصره. وقال شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء: كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته إلا خيراً، وقال مسلمة بن قاسم: ثقة جليل القدر من الأئمة، وقال النووي: أجمعوا على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته وحذقه في الصنعة وتقدمه فيها.

مؤلفاته المطبوعة:

* صحيح مسلم

* التمييز، وهو كتاب في علل الحديث.
* الكنى والأسماء.
* المنفردات والوحدان.

وله كتب مفقودة، منها:

* طبقات التابعين ورجال عروة بن الزبير.
* أولاد الصحابة.
* الإخوة والأخوات.
* الأقران.
* أوهام المحدثين.
* ذكر أولاد الحسين.
* مشايخ مالك.
* مشايخ الثوري.
* ومشايخ شعبة.

وفاته:

ظل الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور يقوم بعقد حلقات العلم التي يؤمها طلابه والمحبون لسماع أحاديث النبي ﷺ، ومن أشهر تلاميذه الذين رحلوا إليه أبو عيسى الترمذي، ويحيى بن صاعد، وابن خزيمة وأبو بكر محمد بن النضر الجارودي وغيرهم، كما شغل وقته بالتأليف والتصنيف حتى إن الليلة التي توفي فيها كان مشغولا بتحقيق مسألة علمية عرضت له في مجلس مذاكرة، فنهض لبحثها وقضى ليله في البحث، لكنه لقي ربه قبل أن ينبلج الصباح في ٢٥ من رجب ٢٦١ هـ = ٦ من مايو ٨٧٥م، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ودفن يوم الاثنين في مقبرته بنصر آباد في نيسابور

كتابه الصحيح:

صنَّف الإمام مسلم كتبًا كثيرة، وأشهرها صحيحه الذي صنفه في خمس عشرة سنة، وقد تأسى في تدوينه بالبخاري رحمه الله فلم يضع فيه إلا ما صح عنده.

وقد جمع مسلم في صحيحه روايات الحديث الواحد في مكان واحد لإ براز الفوائد الاسنادية في كتابه، ولذلك فإنه يروي الحديث في أنسب المواضع به ويجمع طرقه وأسانيده في ذلك الموضع، بخلاف البخاري فإنه فرق الروايات في مواضع مختلفة، فصنيع مسلم يجعل كتابه أسهل تناولاً، حيث تجد جميع طرق الحديث ومتونه في موضع واحد، وصنيع البخاري أكثر فقهًا؛ لأنه عني ببيان الأحكام، واستنباط الفوائد والنكات، مما جعله يذكر كل رواية في الباب الذي يناسبها، ففرق روايات الحديث، ويرويه في كل موطن بإسناد جديد أيضًا.

وكتاب صحيح مسلم مقسم إلى كتب، وكل كتاب يقسم إلى أبواب، وعدد كتبه ٥٤ كتابًا، أولها كتاب الإيمان، وآخرها كتاب التفسير.

وعدد أحاديثه بدون المكرر نحو ٤٠٠٠ حديث، وبالمكرر نحو ٧٢٧٥ حديثًا.

من شروح صحيح الإمام مسلم:

(١) المنهاج في شرح الجامع الصحيح للحسين بن الحجاج:

وهو شرح للإمام النووي الشافعي المتوفى سنة (٦٧٦هـ)، وهو شرح وسط جمع عدة شروح سبقته، ومن أشهر شروح صحيح مسلم.

(٢) المعلم بفوائد كتاب صحيح مسلم:وهو شرح المازري أبي عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٥٣٦ هـ.

(٣) إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم: وهو شرح للقاضي

عياض بن موسى اليحصبي السبتي إمام المغرب المالكي المتوفى سنة (٥٤٤هـ).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: شرح أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفى سنة (٦١١هـ).

(٥) إكمال إكمال المعلم: وهو شرح الأبي المالكي وهو أبو عبد الله محمد بن خليفة من أهل تونس - والأبي نسبة إلى " أبة " من قرى تونس - المتوفى سنة (٧٢٨هـ)، جمع في شرحه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي.

(٧) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج:وهو شرح جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ).

(٦) شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي المتوفى (٩٢٦هـ).

(٥) شرح الشيخ على القاري الحنفي نزيل مكة المتوفى سنة (١٠١٦هـ) وشرحه في أربع مجلدات.. [١].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول.

الإمام أبو داود

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أبـو داود

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني، أحد من رحل وطوف، وجمع وصنف، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين.

ولد سنة اثنتين ومائتين، وتوفي بالبصرة لأربع عشرة بقيت من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين.

وقدم بغداد مرارًا، ثم خرج منها آخر مرَّاته سنة إحدى وسبعين.

وأخذ الحديث عن مسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، وعثمان ابن أبي شيبة، وأبي الوليد الطيالسي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، ومسدد بن مسَرْهد، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وقتيبة بن سعيد، وأحمد بن يونس، وغير هؤلاء من أئمة الحديث، ممن لا يحصى كثرة.

وأخذ الحديث عنه: ابنه عبد الله، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأحمد ابن محمد الخلال، وأبو على محمد بن عمرو اللؤلؤي، ومن طريقه نروي كتابه. وكان أبو داود يسكن البصرة.

وقدم بغداد، وروى كتابه المصنف في " السنن " بها. ونقلها أهلها عنه، وصنفه قديمًا، وعرضه على أحمد بن حنبل، فاستجابه واستحسنه.

قال أبو بكر بن داسة: قال أبو داود: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني

كتاب " السنن " - جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث. ذكرت الصحيح، وما يُشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث.

أحدها: قوله عليه الصلاة والسلام: **«إنما الأعمال بالنيات»**.

والثاني: قوله ﷺ: **«مِنْ حُسنِ إسلام المرء تِركهُ ما لا يعنيه»**.

والثالث: قوله ﷺ: **«لا يكوُن المؤمن مؤمنًا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه»**.

والرابع: قوله ﷺ: **«إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات...»** الحديث.

وقال أبو بكر الخلال: أبو داود، سليمان بن الأشعث، الإمام المقدم في زمانه، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعها أحد في زمانه، رجل ورع مقدم.

وكان إبراهيم الأصفهاني، وأبو بكر بن صدقة، يرفعان من قدره، ويذكرانه بما لا يذكران أحدًا في زمانه بمثله.

وقال أحمد بن حنبل بن ياسين الهروي: كان سليمان بن الأشعث، أبو داود، أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ: عِلمِهِ وعلله وسنده، وكان في أعلى درجة من النسك والعفاف، والصلاح والورع، من فرسان الحديث.

وقال محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيِّق، فقيل له: يرحمك الله! ما هذا؟ قال: الواسع للكتب، والآخر لا نحتاج إليه.

وقال أبو سليمان الخطابي: كتاب " السنن " لأبي داود، كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس، على اختلاف مذاهبهم، فصار حكمًا بين فرق العلماء، وطبقات الفقهاء، فلكل فيه رود، ومنه شرب، وعليه معول أهل

العراق ومصر وبلاد المغرب، وكثير من مدن أقطار الأرض، فأما أهل خراسان، فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري، وكتاب مسلم بن الحجاج النيسابوري.

وقال: قال أبوداود: ما ذكرت في كتابي حديثًا اجتمع الناس على تركه.

وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود: " الجوامع "و " المسانيد "، ونحوهما، فتجمع تلك الكتب - إلى ما فيها من " السنن " و " الأحكام " -: أخبارًا وقصصًا، ومواعظ وأدبًا. فأما " السنن " المحضة، فلم يقصد أحد منهم إفرادها واستخلاصها من أثناء تلك الأحاديث، ولا اتفق له ما اتفق لأبي داود، ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر مَحَلَّ العجب، فضربت إليه أكباد الإبل، ورامت إليه الرحل.

قال إبراهيم الحربي: لما صنف أبو داود هذا الكتاب: ألين لأبي داود الحديث، كما ألين لداود عليه السلام الحديد [(١)].

* * *

(١) المصدر:كتاب جامع الأصول.

الإمام الترمذي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الترمذي

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ولد (سنة تسع ومائتين).

وتوفي بـ " ترمذ " ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة.

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث، ولقي الصدر الأول من المشايخ. مثل قتيبة بن سعيد، وإسحاق بن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار، وعلي بن حُجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وغير هؤلاء، وأخذ عن خلق كثير لا يُحصون كثرة.

وأخذ عنه خلق كثير، منهم محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي، ومن طريقه روينا كتابه " الجامع ".

وله تصانيف كثيرة في علم الحديث، وهذا كتابه " الصحيح " أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحسنها ترتيبًا، وأقلها تكرارًا، وفيه ما ليس في غيره: من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح، والحسن، والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب " العلل "، قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها من وقف عليها.

قال الترمذي (رحمه الله تعالى): صنفت هذا الكتاب فعرضته

علـى علمـاء الحجـاز فرضـوا بـه، وعرضـته علـى علمـاء العـراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كـان فـي بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.

وقال الترمذي: كان جدي مروزيًّا انتقل من مَرْو، أيام الليث بن سيار.

* * *

الليث بن سعد

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الحافظ الليث بن سعد

من أشهر الفقهاء في زمانه، فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشندة وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين للهجرة.

طلبه للعلم:

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح، وابن أبى مليكة ونافع العمري، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وابن شهاب الزهري، وأبا الزبير المكي وغيرهم كثير.

وفي عدة روايات يصف الليث رحلاته في طلب العلم: قال ابن بكير: سمعت الليث، يقول: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري، وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير: أخبرني من سمع الليث يقول: كتبت من علم ابن شهاب علما كثيرا، وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة، فخفت ألاَّ يكون ذلك لله، فتركته ودخلت على نافع، فسألني، فقلت: أنا مصري، فقال: ممن قلت؟ من قيس. قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين سنة. قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين.

قال أبو صالح خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال وقال لي الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك، فلقيت هشيمًا، فدفع إلي شيئًا، فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

مكانته العلمية:

يقول الحافظ أبو نعيم: كان الليث رحمه الله فقيه مصر، ومحدثها ومحتشمها ورئيسها، ومن يفتخر بوجوده الإقليم بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومشورته ولقد أراده المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك.

ولليث أحاديث كثيرة في كتب الصحاح، ومن الأحاديث التي رويت عن الليث ما رواه الترمذي، قال: حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «**يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا**».

قال أبو صالح كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي، فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه.

قال ابن سعد كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه.

روى عبد الملك بن شعيب، عن أبيه، قال: قيل لليث: أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك، فقال: أو كل ما في صدري في كتبي، لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: أصح الناس حديثا عن سعيد المقبري الليث بن سعد يفصل ما روي، عن أبي هريرة، وما روي عن أبيه، عن أبي هريرة هو ثبت في حديثه جدًّا.

ومما يروى عنه أيضا عن الليث بن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري، وكان يحيى الموؤدة يقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مه لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها.

ولليث أسانيد إلى أبي هريرة ومنها: عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:**«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة»**.

مناقبه وفضائله:

قال ابن بكير: كان الليث فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث، والشعر حسن المذاكرة.

روي عن شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب، وابن هبيرة وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حداثة سنة ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث، وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: ما رأيت أحدا أكمل من الليث.

قال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث، فحدثهم بفضائله، فكفوا، وكان أهل حمص ينتقصون عليًّا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل على، فكفوا عن ذلك، وروي عن حرملة يقول: كان الليث بن سعد يصل مالكا بمائة دينار في السنة، فكتب مالك إليه على دين، فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر، فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا، فباع منه بخمس مائة دينار، وبقي

عنده فضله، قال أبو داود: قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت على زكاة قط وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى مالكا ألف دينار، وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار، وجارية تساوى ثلاث مائة دينار.

قال صالح بن أحمد الهمذاني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي.

وروي عن محمد بن رمح يقول: كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة درهم قط.

وروي عن أشهب بن عبد العزيز يقول: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أولها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمرا، أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس، فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

وروي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال:قال أمير المؤمنين: لما قدم الليث العراق الزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

وكان الليث بن سعد يقول: بلغت الثمانين، وما نازعت صاحب هوى قط، ويعلق الحافظ أبو نعيم على قوله فيقول: كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك والأوزاعي والسنن ظاهرة عزيزة فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد فظهرت البدعة وامتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة

معهم فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضا بالمعقول فطال الجدال واشتد النزاع وتولدت الشبة نسأل الله العافية.

قال بكر بن مضر: قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثرة والى مصر إني قد بعثت إليكم أعرابيًّا بدويًّا فصيحًا من حاله ومن حاله فأجمعوا له رجلا يسدده في القضاء ويصوبه في المنطق فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد وفي الناس معلماه يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث، قال أحمد بن صالح: أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها فقهاء الأرض حتى أشخص الليث فأخرجه منها.

مواقف من حياته:

قال الحسن بن يوسف بن مليح، سمعت أبا الحسن الخادم قال: كنت غلاما لزبيدة (زوجة الرشيد) وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفا على رأس ستي زبيدة خلف الستارة، فسأله الرشيد فقال له: حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثا إنك تخاف الله فحلف له فقال: قال الله:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر.

وروي عن الليث قال: قال لي أبو جعفر المنصور: تلي لي مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي. فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل لي.

قال: وجاءت امرأة إلى الليث، فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليلاً واشتهى عسلا، فقال: يا غلام أعطها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل.

وعن الحارث بن مسكين، قال: اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها، فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين دينارا فقال له ابنه الحارث في ذلك فقال: اللهم غفرا إنهم قد

كانوا أملوا فيها أملا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وروي عن الليث قال: لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك، قال شعيب: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيا.

قال يحيى بن بكير: قال الليث: قال لي المنصور: تلي مصر؟؛ فاستعفيت، قال: أما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده مصر، قلت: عثمان ابن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث.

وروي عن سعيد الآدم، قال: مررت بالليث بن سعد فتنحنح، فرجعت إليه، فقال لي: يا سعيد، خذ هذا القنداق، فاكتب لي فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة. فقلت: جزاك الله خيرًا يا أبا الحارث. وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان ابن فلان ثم بدرتني نفسي. فقلت: فلان ابن فلان. قال: فبينا أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال: هالله يا سعيد تأتي إلى قوم عاملوا الله سرًّا فتكشفهم لآدمي ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه. فقمت ولم أكتب شيئًا، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه فقال ليس إلا خير ثم أقبل علي فقال: يا سعيد: تبينتها وحرمتها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبي صالح كاتب الليث قال: كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث، فقلت: ما يشبه هذا صاحبنا، فسمعها مالك فأدخلنا، وقال: من صاحبكم؟ قلت: الليث. قال تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس، وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت، وقال أيضا: الليث كثير العلم صحيح الحديث.

وقال عثمان الدارمي: سمعت يحيى بن معين يقول: الليث أحب إلى من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة، قلت: فكيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى، وكان ثقة كثير الحديث، سريا من الرجال، سخيا له ضيافة.

وقال العجلي والنسائي: الليث ثقة.

وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث.

وروي عن يحيى بن معين قال: هذه رسالة مالك إلى الليث، حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها: وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، ولكن الحظوة لمالك رحمه الله.

قال عليٌّ بن المديني: الليث ثبت.

قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا وإمامنا وعالمنا.

وفاته:

قال يحيى بن بكير وسعيد بن أبي مريم مات الليث للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة، قال يحيى: يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضًا ويبكون فقلت: يا أبت، كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة، فقال: يا بني لا ترى مثله أبدًا [١].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول.

من مشاهير أعلام المسلمين

الحافظ البيهقي

الحافظ البيهقي

ولد أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقي في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرية - خسرو جرد - وعاش أربعاً وسبعين سنة وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في نيسابور وحمل منها إلى (بيهق) فدفن بها [1].

وقد عاش في زمن عاصف بالفتن التي ضربت أمواجها بلاد الإسلام فابتلى المسلمون بلاءً عظيماً وصاروا طوائف وأحزاباً يطعن بعضهم في بعض حتى طمع فيهم أعداؤهم وهاجم ملك الروم بلاد الشام بجيوشه الجرارة على حين غفلة من المسلمين.

ولولا ما قدر في كتاب لجاز البلاد والأموال وصدّع الصرح الشامخ الذي بناه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وفي الوقت الذي يهاجم الروم فيه الشام تحاصر مدينة البصرة ويباع نصف مدينة (الرها) بعشرين ألف دينار، ويدخل طغرلبك مدينة نيسابور وخراسان وما جاورها، وتتجدد الفتن في كل وقت وحين بين أهل السنة من جهة والشيعة والرافضة من جهة أخرى عمّ الذعر قلوب الناس وتخلخل الأمن ونهب الأتراك كل من ورد إلى بغداد فشاع الغلاء وقلّ المورد، ولعن الخطباء الرافضة والأشاعرة على المنابر ونحي عن المناصب الشافعية فضج أهل خراسان وأرسل البيهقي رسالته إلى عميد عبد الملك الكندري التي دافع فيها عن أهل السنة عامة وعن الأشعري وما نسب إليه خاصة دفاعاً قوياً لم يترك

(١) تذكرة الحفاظ، ١١٤٣/٣، طبقات الشافعية الكبرى، ٣/٣.

في نفس الوزير الكندري إلا أثراً عكسيًّا فتمادى في ظلمه وعد وأنه ولم يأبه بكل ما كتب إليه حتى مات (طغرلبك) وانتقل الأمر من بعده إلى ابن أخيه (ألب أرسلان) الذي نقم على الكندري أعماله فقبض عليه وقتله وأسند أمر الوزارة إلى (نظام الملك) الذي انتصر للشافعية وأبطل ما كان من سب الأشعرية(١).

وليس مهمّاً أن تُعدد الحوادث بقدر الاهتمام بمعرفة مدى تأثيرها على نفسه المملوءة إيماناً وورعاً ونزاهة وحباً للسنة، التي نصب نفسه للدفاع عنها والتمسك بها فجمع كل ما تحصل عليه ليجعل منه منهجاً يتسم بالتمسك بعرى وثيقة تستمد الهدي من مشكاة النبوة فتكشف الظلام الكثيف الذي هيمن على ربوع الأرض وأحاطها من كل جانب بسبب المطاحنة المذهبية والتعصبات الجاهلية.

وهكذا نراه يمضي قُدماً في ترسيخ الأسس التي قام عليها صرح الإسلام فألف الكتب وجمع فيها ما لم يتهيأ لغيره جمعه فاستوعب الكثير مما يتعلق بالعقائد والسنة والفقه. وكان جل اهتمامه متابعة ما أثر عن الشافعي بعد أن ثبت له تمسكه بالكتاب والسنة وأنه فاق غيره في ذلك.

ولم يكن البيهقي بالرجل الذي يطوع النصوص لمذهبه كما فعل غيره وإنما غرضه منها أسمى من أن يتحدث عنه بمثل ذلك.

وليس غريبًا أن يسلك هذا السبيل وهو يتبع إمامًا تمسك بالسنة وأوصى بها ما بلغه منها وما لم يبلغه، حتى علق قوله بثبوت ما خفي عليه منها.

أضف إلى ذلك تلقيه العلم عن أئمة برزوا في مناحي الاجتهاد فكان كل واحد منهم جبلا شامخاً تتحطم عنده أمواج التعصب.

وقد انعكس ذلك على مؤلفاته، فجاءت صورة صادقة للتعبير عما

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٩/٧، السيد صقر على، مقدمة كتاب معرفة السنن والآثار ١٨/١.

ينطوي عليه نفسه من حب وإيثار للسنة على غيرها وميول نحو الحق وإن أدى إلى مخالفة الإمام الذي تولى الدفاع عنه، واشتهر بحبه له، فصنف التصانيف لنصرة مذهبه حتى اشتهر عن إمام الحرمين قولته المشهورة: " ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منه، إلا أحمد البيهقي فإن له على الشافعي منه " [١].

وقال الذهبي: " إن البيهقي أول من جمع نصوص الشافعي "، وردّ عليه السبكي ورجح أنه آخر من جمع نصوصه، وأيده السيد أحمد صقر بما نقله عن البيهقي نفسه وأنه ذكر ثلاثة كتب سبقه مؤلفوها إلى جمع نصوص الشافعي فيها والظاهر أن الذهبي قال ذلك في حقه باعتبار استيعابه في مصنفاته أكثر - أو كل - ما في كتب السابقين، وبهذا تجتمع الأقوال التي اتفقت على تفوق البيهقي في هذا المضمار على كل من شارك فيه [٢].

صفاته:

قال السبكي: " كان الإمام البيهقي أحد أئمة المسلمين وهداة المؤمنين والدعاة إلى حبل الله المتين، فقيه جليل، حافظ كبير، أصولي نحوي زاهد ورع، قانت لله، قائم بنصرة المذهب أصولاً وفروعاً جبلاً من جبال العلم، أخذ الفقه عن ناصر العمري وقرأ علم الكلام على مذهب الأشعري، ثم اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحد زمانه وفارس ميدانه، وأحذق المحدثين وأحدهم ذهناً، وأسرعهم فهماً، وأجودهم قريحة " ا. هـ.

وقال ابن ناصر الدين: " كان واحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً واتقاناً، وثقة، وعمدة " ا. هـ.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥٨/١، وغيره ممن ترجموا عن البيهقي.

(٢) مقدمه كتاب معرفة السنن والآثار، ٢٥/١. والكتب الثلاثة هي، كتاب (التقريب) للقاسم بن محمد بن على الشاشي (ت في حدود الأربعمائة هـ) وكتاب (جمع الجوامع) لأبي سهل بن العفريس الزوزني تلميذ الأصم. وكتاب (عيون المسائل) لأبي بكر أحمد بن أحمد بن الحسن بن سهل الفارسي ابن سريج. (المرجع السابق ٢٥/١، ٢٦).

وقال ابن خلكان: " كان قانعاً من الدنيا بالقليل " ا. هـ [1].

علمه:

لم تذكر كتب التراجم كيف بدأ البيهقي حياته العلمية كما لم تعطنا فكرة واضحة المعالم عن أسرته وطفولته وكيف نشأ، لكنها لم تغفل اهتمامه وشغفه بالبحث والإطلاع الذي جازبه حدود قريته إلى العراق والجبال والحجاز فتلقى من علمائها الكثير وقد ربي عددهم على المائة.

فأخذ عن شيخه أبي عبد الله الحاكم علم الحديث، وأخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي. (ت ٤٤٤هـ).

وقال عبد الغافر: جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث.

وقال السمعاني: جمع بين معرفة الحديث والفقه ا. هـ.

ومن الغريب أن يقول الذهبي عنه: " دائرته في الحديث ليست كبيرة لكن بورك له في مروياته ".

على رغم ما لمسناه في كتبه من الإطلاع الواسع والمعرفة التامة بالأحاديث وما يتعلق بها.

ورغم ما تقدم من أقوال العلماء وشهاداتهم له وتقديمه في معرفة الحديث ورغم ما أثر عنه من أقوال تفيد مدى اهتمامه واشتغاله بهذا العلم منذ حداثته ونعومة أظافره.

وكما استغربنا كلام الذهبي عنه نقف حائرين أمام تفسير عدم تمكنه من الإطلاع على (سنن النسائي) و(سنن ابن ماجه) و(جامع الترمذي)، وقد علمنا مدى حرصه واهتمامه بكتب السنة وما قام به من رحلات عديدة للتحصيل وجمع المعلومات [2].

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣، ابن العماد (شذرات الذهب ٣٠٤/٣، وفيات الأعيان ٨٥/١.

(٢) قال الذهبي: " لم يكن عنده (سنن النسائي) ولا (جامع الترمذي) ولا (سنن ابن ماجه) " انظر (تذكرة الحفاظ ١١٣٢/٣) و(طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣)، وكذلك (سير أعلام النبلاء

مصنفاته:

بعد أن جاب البيهقي أقطار الأرض طلباً للعلم، والتقى بالكثير من العلماء ونهل من مواردهم المختلفة حتى فاق الكثير منهم عاد إلى بلده وأخذ يكتب الرسائل ويؤلف الكتب حتى بلغت - فيما قيل - ألف جزء، منها ما هو في الحديث، ومنها ما جمع بين الفقه والحديث ومنها ما انفرد بالعقائد، ولقد بورك له في مؤلفاته حتى لا يكاد يستغني عنها مسلم فنشر منها الكثير، وما لم تزغ عنه أعين الباحثين يترقبون له الفرص لنشره وبثه ليستقى من نهله العذب.

ولقد عدّد المترجمون عنه الكثير من كتبه لا سيما ما كتبه السيد أحمد صقر فقد ذكر من مؤلفاته واحداً وثلاثين مؤلفاً لكنه اقتصر في التعريف بها على ما كتبه السبكي عنها، وهي عبارات وجيزة مختصرة ولهذا سنذكر أهم تلك المؤلفات مع التعريف بها: -

١ – السنن الكبرى:

وهو أهم مؤلفاته وشهد له السبكي بقوله: " ما صنف في علم الحديث مثله تهذيباً وترتيباً وجودة " فأقر قول شيخه الذهبي: " ليس لأحد مثله " وذكره السخاوي ضمن كتب السنن وقال: " فلا تعد عنه لاستيعابه لأكثر أحاديث الأحكام، بل لا تعلم - كما قال ابن الصلاح - في بابه مثله ولذا كان حقه التقديم على سائر كتب السنن ولكن قدمت تلك لتقديم مصنفيها في الوفاة ومزيد جلالتهم ".

وقال الفاداني المكي: " لم يصنف في الإسلام مثلهما " ويعني السنن الكبرى والسنن الصغرى.

وقال أبو عبد الله محمد الأمير الكبير في تفسير كلام السخاوي المتقدم -: أي لا تتجاوز أنت عن كتاب السنن الكبرى ولا حاجة لك في طلب غيره " وقد جمع في مؤلفه السنن من أقوال الرسول ﷺ

(١٨٤/١١).

وأفعالـه وتقريراتـه وموقوفـات الصـحابة ومـا أرسـله التـابعون فكـان موسوعة كبرى في الحديث، وقد رتبه على أبواب الفقه، واشتغل بـه بعض العلماء فاختصره كل من إبراهيم بن على المعروف بـابن عبد الخالق الدمشقي (ت ٧٤٤هـ) في خمس مجلدات والحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) والشـيخ عبـد الوهـاب بـن أحمـد الشـعراني (ت ٩٧٤ هـ) وصنف الشيخ علاء الدين علـى بـن عثمـان المعروف بـابن التركمـاني (ت ٧٥٠ هـ) كتاباً سماه (الجوهر النقي فـي الـرد علـى البيهقـي) وهـو مطبـوع فـي حاشـية كتـاب (السـنن الكبـرى) وأكثـره اعتراضـات(٤٠) عليه ومناقشات له ومباحثات معه.

ولخـص كتـاب (الجـوهر النقـي) زيـن الـدين قاسـم بـن قطلوبغـا الحنفـي (ت ٨٧٩ هـ) فـي كتـاب سماه (تـرجيح الجـوهر النقـي) وقـد رتبه على حروف المعجم وبلغ فيه إلى حرف الميم.

٢ – (معرفة السنن والآثار):

قال السبكي: " وأما المعرفة - معرفة السنن والآثار - فلا يستغني عنه فقيه شافعي، وسمعت الشيخ الإمام رحمه الله يقول: مراده معرفة الشافعي بالسنن والآثار " ا. هـ.

والحق أنـه لا غنـى لفقيـه شـافعي وغيـره عنـه لمـا جمـع فيـه مـن أحكام يستدل عليها بمـا فـي الكتـاب والسنة، ويـوازن فيـه بين أقوال الفقهاء ويذكر أدلتهم ويبين الصحيح منها والضعيف.

فهـو بـدون ريـب مـن موسـوعات كتـب الفقـه المقـارن قل أن تجد مثلـه وقـد ضـمنه الـرد علـى أبـي جعفـر أحمـد بـن سـلامه الطحـاوي الحنفي الذي شن الغارة على الشافعي وأصحابه.

وقـد خـرج فيـه مؤلفـه مـا احـتج بـه الشـافعي مـن الأحاديـث فـي الأصول والفروع بأسانيدها التي رواها بها مع ما رواه مستأنساً بـه غير معتمد عليه أو حكاه لغيره مجيباً عنه.

وقد تكلم البيهقي علـى تلك الأحاديث والأخبـار بـالجرح والتعديل

والتصحيح والتعديل وأضاف إلى بعض ما أجمله الشافعي ما يفسره من كلام غيره وإلى بعض ما رواه ما يقويه من رواية غيره.

وبين فيه أن الشافعي لم يصدر باباً برواية مجهولة، ولم يبن حكماً على حديث معلول وأنه قد يورده في الباب على رسم أول الحديث بإيراد ما عندهم من الأسانيد واعتماده على الحديث الثابت أو غيره من الحجج.

وأنه قد يثق ببعض من هو مختلف في عدالته على ما يؤدي إليه اجتهاده كما يفعل غيره.

وأنه لم يدع سنة لرسول الله ﷺ بلغته وثبتت عنده حتى قادها، وهكذا نرى مقصده من تأليف (معرفة السنن) يتجلى في مقدمته الطويلة التي صدرها كتابه.

٣ - كتاب (المبسوط):

قال السبكي: " وأما المبسوط في نصوص الشافعي فما صنف في نوعه مثله ". وألفه البيهقي ليجمع كلام الشافعي ونصوصه مضبوطة بعد ما ضاق صدره مما وجده في الكتب من الإختلاف في نصوص الشافعي وإيراد الحكايات عنه دون تثبت، فحمله ذلك على نقل مبسوط ما اختصره المزني من كلام الشافعي وأدلته على ترتيب المختصر.

٤ - كتاب (الأسماء والصفات):

قال السبكي: " وأما كتاب الأسماء والصفات فلا أعرف له نظيراً " ا. هـ. وألفه البيهقي لبيان أسماء الله تعالى وأدلتها من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

وبدأه بالثناء على الله ثم ذكر أسماء الله تعالى التي من أحصاها دخل الجنة وربط معاني تلك الأسماء بخمسة أبواب، وذكر أن هناك أسماءً غير هذه لله تعالى.

٥ – كتاب (الاعتقاد):

قال السبكي: " وأما - كتاب الاعتقاد - وكتاب دلائل النبوة - وكتاب شعب الإيمان - وكتاب مناقب الشافعي - وكتاب الدعوات الكبير - فأقسم ما لواحد منها نظير ".

وكتاب الاعتقاد كتبه البيهقي ليبين فيه ما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به مع الإشارة إلى أطراف أدلته.

وقال المؤلف نفسه: " هذا الذي أودعناه هذا الكتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة وأقوالهم ".

وهو لاشك كتاب نفيس في موضوعه يتسم بسلاسة الأسلوب والنقاش الهادئ وقوة الأدلة. وقد جمعه من تواليفه مما كتبه فيما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به ملتزماً فيه الاختصار.

٦ – كتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة):

تكلم فيه عن مولد الرسول ﷺ ونشأته وشرف أصله ووفاة أبيه وأمه وجده.

وذكر فيه صفاته الخلقية والخلقية، وزهده في الدنيا وسيرة حياته منذ ولادته حتى وفاته، تباشير بعثته والمعجزات التي ظهرت على يديه.

وركز في مباحثه على المعجزات وخوارق العادات فذكر فيها أحاديث جلها صحيحة وبعضها فيه مقال.

وهو كتاب من أجمع تصانيف، مؤلفه لما أورده فيه وعني به وقد اعتمد فيه على كتب السابقين له.

٧ – كتاب (شعب الإيمان):

وهو كتاب كبير في ستة مجلدات، كتبه البيهقي على نمط (كتاب) أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي (ت ٤٠٣هـ) في بيان شعب الإيمان المشار إليها في حديث رسول الله ﷺ :«**الإيمان بضع وسبعون**

شعبة أفضلها لا إلـه إلا الله وأوضـعها إماطـة الأذى عـن الطريـق والحيـاء شعبة مـن الإيـمان» ولـم يجمـع تلـك الشـعب ثـم يكلـم عليهـا واحـدة تلـو الأخرى وإنما أورد كلامه مفصلاً عن كل واحدة منها مستوفياً أدلتها وشـارحاً لهـا فـي جميـع الكتـاب وقـد زاد علـى (كتـاب) الحليمـي ذكـر الأسانيد التي عليها مدار الروايات.

٨ – كتاب (مناقب الشافعي):

وهو أجمع ما رأيت من كتب مناقب الإمام الشافعي، وقد نقل فيـه مؤلفه عمن كتب قبلـه فـي ترجمـة الإمـام - كـابن أبـي حـاتم (ت ٣٢٧ هـ)، وأبي الحسن محمد بن عبد الله الرازي (ت ٤٥٤ هـ).

ويتضـح فيـه تحمسـه الشـديد للشـافعي ومذهبـه أن دون المسـاس بأحـد، وكـأن مرجـع ذلـك اقتنـاع البيهقـي بتمسـك الشـافعي بالكتـاب والسنة وأنه أقرب الأئمة منهما.

وبـدأ كتابـه بـذكر مـا لقريش من الخصـائص لا سيما بنـي هاشـم وبني المطلب ليدلل على مكانة الشافعي ونسبه.

وقـد ذكـر فيـه مولـده ونسبه وتعلمـه وتعليمـه وتصـرفه فـي العلـم وتصانيفه واعتراف علماء دهره بفضله، وممـا يستدل بـه علـى كمـال عقلـه وزهـده فـي الـدنيا وورعـه واشـتهاره بخصـال الخيـر، ومكـارم الأخلاق.

وقد أورد فيه أحاديث صحيحة وأخرى لا تخلو من مقال.

وقد نقل كثير من المؤلفين عن كتـاب (مناقـب الشـافعي) بـل كـان جل كتاباتهم مستقاة منه لأن البيهقي لم يترك شيئاً مما لـه أدنـى علاقـة بالشافعي إلا وذكره إلى جانب التثبت من الروايات.

٩ – كتاب (الدعوات الكبير):

ألفه البيهقي إجابة لسؤال أحد، إخوانه في أن يجمع له ما ورد من الأخبـار فـي الأدعيـة المرجوة التـي دعـا بهـا رسـول الله ﷺ أو علّمهـا

أحداً من أصحابه، وقد ذكرها بأسانيدها وقد رتبه على ترتيب كتاب المختصر المأثور لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وأضاف إليه زيادات لم يعرض لها ابن خزيمة.

بدأ كتابه بذكر ما للدعاء والذكر من الأجر والثواب.

١٠ – كتاب (الدعوات الصغير).

١١ – كتاب (الزهد الكبير):

ذكر فيه أقوال السلف والخلف رضي الله عنهم في فضيلة الزهد وكيفيته وأنه في قصر الأمل والمبادرة بالعمل الصالح.

١٢ – كتاب (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين)

أورد فيه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقاويل السلف لإثبات عذاب القبر وسؤال الملكين، وقد بين أن ذلك جائز عقلاً كما جاز شرعاً.

١٣ – كتاب (أحكام القرآن):

جمع البيهقي فيه من نصوص الشافعي ما يدل على مبلغ - علمه - بالمعاني الدقيقية في القرآن.

ومقصد الكتاب ظاهر من عنوانه وهو مثل كتاب (أحكام القرآن) لأبى بكر أحمد بن على الرازي - الجصاص -، وكتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي.

١٤ – كتاب (المدخل):

وهو من سماع عبيد الله بن عمر يحي بن عمر الكجي وخط تقي الدين أبي عمر وعثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر النصري الشهروزري.

وعلى الكتاب بعض السماعات وفي آخره ذكر السند إلى البيهقي. وخط النسخة دقيق متداخل بعضه في بعض، وعليها سماعات ابن الصلاح والحافظ المزي وسماعات أخرى.

١٥ – كتاب (البعث والنشور):

وهو بخط محمد بن عبد العزيز بن محمد في خيزان في سنة أربع وأربعين وثمانمائة وعليه بعض السماعات.

١٦ - كتاب (تخريج أحاديث الأم):

وقد خرج فيه أحاديث كتاب: (الأم) حديثًا حديثًا مع سنده والتعليق عليه.

١٧ - كتاب (الخلافيات بين الشافعي وأبي حنيفة):

ذكر فيه ما اختلف فيه أبو حنيفة والشافعي في الأحكام، وقد رتبه على أبواب الفقه.

١٨ - كتاب (بيان خطأ من أخطأ على الشافعي)[١].

* * *

(١) نايف هاشم الدعيس، الإمام البيهقي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٤.

الإمام النسائي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام النسائي

هو الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر الخراساني النسائي صاحب السنن.

ولد بنسا في سنة ٢١٥هـ وطلب العلم في صغره فارتحل إلى قتيبة في سنة ٢٣٠هـ فأقام عنده بمدينة بغلان سنة فأكثر عنه، ومن شيوخه إسحاق بن راهويه، وهشام بن عمار، ويروي عن رفقائه.

مكانته العلمية:

كان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر، ونقد الرجال وحسن التأليف، رحل في طلب العلم في خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور ثم استوطن مصر ورحل الحفاظ إليه ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

حدث عنه أبو بشر الدولابي وأبو جعفر الطحاوي وأبو على النيسابوري وغيرهم كثير.

قال الحافظ ابن طاهر سألت سعد بن على الزنجاني عن رجل فوثقه فقلت قد ضعفه النسائي فقال: يا بني إن لأبي عبد الرحمن شرطًا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلمُ قلت: صدق فإنه ليَّن جماعة من رجال صحيحي البخاري ومسلم.

قال الحاكم: كلام النسائي على فقه الحديث كثير، ومن نظر في سننه تحير في حسن كلامه، وقال ابن الأثير في أول جامع الأصول: كان شافعيا له مناسك على مذهب الشافعي وكان ورعًا متحريًّا، قيل: إنه أتى الحارث بن مسكين في زي أنكره عليه قلنسوة وقباء وكان

الحارث خائفا من أمور تتعلق بالسلطان، فخاف أن يكون عينًا عليه فمنعه، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال: حدثنا الحارث وإنما يقول: قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع.

قال مأمون المصري المحدث خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء فاجتمع جماعة من الأئمة عبد الله بن أحمد بن حنبل ومحمد بن إبراهيم مربع وأبو الآذان فتشاوروا من ينتقي لهم على الشيوخ فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي وكتبوا كلهم بانتخابه.

وقال أبو طالب أحمد بن نصر الحافظ من يصبر على ما يصبر عليه النسائي عنده حديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة يعني عن قتيبة عن ابن لهيعة قال فما حدث بها.

مناقبه وفضائله:

قال محمد بن المظفر الحافظ: سمعت مشايخنا بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار وأنه خرج إلى الفداء مع أمير مصر فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين واحترازه عن مجالس السلطان الذي خرج معه والانبساط في المأكل، وأنه لم يزل ذلك دأبه إلى أن استشهد بدمشق من جهة الخوارج.

ثناء العلماء عليه:

قال الحافظ أبو على النيسابوري:الإمام في الحديث بلا مدافعة أبو عبد الرحمن النسائي.

وقال أبو الحسن الدارقطني: أبو عبد الرحمن مقدم على كل من يذكر بهذا العلم من أهل عصره.

وقال الدارقطني: كان أبو بكر بن الحداد الشافعي كثير الحديث، ولم يحدث عن غير النسائي، وقال رضيت به حجة بيني وبين الله تعالى

قال أبو سعيد بن يونس في تاريخه، كان أبو عبد الرحمن النسائي إمامًا حافظًا ثبتًا.

قال أبو عبد الله بن منده الذين أخرجوا الصحيح، وميزوا الثابت من المعلول والخطأ من الصواب أربعة: البخاري ومسلم وأبو داود، وأبو عبد الرحمن النسائي.

وفاته:

روى أبو عبد الله بن مندة عن حمزة العقبي المصري وغيره أن النسائي خرج من مصر في آخر عمره إلى دمشق، فسئل بها عن معاوية وما جاء في فضائله، فقال: لا يرضى رأسًا برأس حتى يفضل قال: فما زالوا يدفعون في حضنيه حتى أخرج من المسجد، ثم حمل إلى مكة فتوفي بها كذا قال وصوابه إلى الرملة.

وقال الدار قطني خرج حاجا فامتحن بدمشق، وأدرك الشهادة، فقال: احملوني إلى مكة فحمل وتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكانت وفاته في شعبان سنة ٣٠٣هـ قال: وكان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث والرجال.

تراث النسائي:

ترك النسائي مجموعة من الكتب أهمها كتاب السنن، وهو الذي عرف به وجاء في سير أعلام النبلاء عن كتبه الأخرى " قد صنف مسند علي وكتابا حافلا في الكنى وأما كتاب خصائص عليٍّ فهو داخل في سننه الكبير، وكذلك كتاب عمل اليوم والليلة، وهو مجلد هو من جملة السنن الكبير في بعض النسخ، وله كتاب التفسير في مجلد، وكتاب الضعفاء وأشياء والذي وقع لنا من سننه هو الكتاب المجتبى منه انتخاب أبي بكر بن السني سمعته ملفقًا من جماعة سمعوه من ابن باقا بروايته عن أبي زرعة المقدسي سماعا لمعظمه، وإجازة لفوت له محدد في الأصل[١].

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول.

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام النّووي

الإمام النووي

هو صاحب أشهر ثلاثة كتب يكاد لا يخلو منها بيت مسلم وهي " الأربعين النووية " و" الأذكار " و" رياض الصالحين "، وبالرغم من قلة صفحات هذه الكتب، وقلة ما بذل فيها من جهد في الجمع والتأليف إلا أنها لاقت هذا الانتشار والقبول الكبيرين بين الناس، وقد عزى كثير من العلماء ذلك، إلى إخلاص النووي رحمه الله، فرب عمل صغير تكبره النية.

فمع سيرة الإمام النووي ومواقف من حياته.

نَسَبُه ومَوْلده:

هو الإِمام الحافظ، شيخ الإسلام، محيي الدين أبو زكريا، يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حِزَام، النووي نسبة إلى نوى، وهي قرية من قرى حَوْران في سورية، ثم الدمشقي الشافعي، شيخ المذاهب وكبير الفقهاء في زمانه.

ولد النووي رحمه الله تعالى في المحرم ٦٣١ هـ في قرية نوى من أبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن وقراءة الفقه على بعض أهل العلم هناك، وصادف أن مرَّ بتلك القرية الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي، فرأى الصبيانَ يُكرِهونه على اللعب وهو يهربُ منهم ويبكي لإِكراههم ويقرأ القرآن، فذهب إلى والده ونصحَه أن يفرّغه لطلب العلم، فاستجاب له.

وفي سنة ٦٤٩ هـ قَدِمَ مع أبيه إلى دمشق لاستكمال تحصيله العلمي في مدرسة دار الحديث، وسكنَ المدرسة الرواحية، وهي

ملاصقة للمسجد الأموي من جهة الشرق.

وفي عام ٦٥١ هـ حجَّ مع أبيه ثم رجع إلى دمشق.

أخلاقُهُ وَصفاتُه:

أجمعَ أصحابُ كتب التراجم أن النووي كان رأساً في الزهد، وقدوة في الورع، وعديم النظير في مناصحة الحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويطيب لنا في هذه العجالة عن حياة النووي أن نتوقف قليلاً مع هذه الصفات المهمة في حياته:

الزهد:

تفرَّغَ الإِمام النووي من شهوة الطعام واللباس والزواج، ووجد في لذّة العلم التعويض الكافي عن كل ذلك. والذي يلفت النظر أنه انتقل من بيئة بسيطة إلى دمشق حيث الخيرات والنعيم، وكان في سن الشباب حيث قوة الغرائز، ومع ذلك فقد أعرض عن جميع المتع والشهوات وبالغ في التقشف وشظف العيش.

الورع:

وفي حياته أمثلة كثيرة تدلُّ على ورع شديد، منها أنه كان لا يأكل من فواكه دمشق، ولما سُئل عن سبب ذلك قال: إنها كثيرة الأوقاف، والأملاك لمن تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرّف في ذلك إلا على وجه الغبطة والمصلحة، والمعاملة فيها على وجه المساقاة، وفيها اختلاف بين العلماء. ومن جوَّزَها قال: بشرط المصلحة والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي؟. واختار النزول في المدرسة الرواحيّة على غيرها من المدارس لأنها كانت من بناء بعض التجّار.

وكان لدار الحديث راتب كبير فما أخذ منه فلساً، بل كان يجمعُها عند ناظر المدرسة، وكلما صار له حق سنة اشترى

به ملكاً ووقفه على دار الحديث، أو اشترى كتباً فوقفها على خزانة المدرسة، ولم يأخذ من غيرها شيئاً. وكان لا يقبل من أحد هديةً ولا عطيّةً إلا إذا كانت به حاجة إلى شيء وجاءه ممّن تحقق دينه. وكان لا يقبل إلا من والديه وأقاربه، فكانت أُمُّه ترسل إليه القميص ونحوه ليلبسه، وكان أبوه يُرسل إليه ما يأكله، وكان ينام في غرفته التي سكن فيها يوم نزل دمشق في المدرسة الرواحية، ولم يكن يبتغي وراء ذلك شيئاً.

مُناصَحَتُه الحُكّام:

لقد توفرت في النووي صفات العالم الناصح الذي يُجاهد في سبيل الله بلسانه، ويقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مخلصٌ في مناصحته وليس له أيّ غرض خاص أو مصلحة شخصية، وشجاعٌ لا يخشى في اللَّه لومة لائم، وكان يملك البيان والحجة لتأييد دعواه.

وكان الناسُ يرجعون إليه في الملمّات والخطوب ويستفتونه، فكان يُقبل عليهم ويسعى لحلّ مشكلاتهم، كما في قضية الحوطة على بساتين الشام:

لما ورد دمشقَ من مصرَ السلطانُ الملكُ الظاهرُ بيبرسُ بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد، زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر الملك بالحوطة عليها، أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيءٍ منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه، فلجأ الناس إلى الشيخ في دار الحديث، فكتب إلى الملك كتاباً جاء فيه: " وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواعٌ من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلّ عند أحد من علماء المسلمين، بل مَن في يده شيء فهو ملكه لا يحلّ الاعتراض عليه ولا يُكلَّفُ إثباته "

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وأمر بقطع رواتبه وعزله عن مناصبه، فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب وليس له منصب. لما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفِدْ، مشى بنفسه إليه وقابله وكلّمه كلاماً شديداً، وأراد السلطان أن يبطشَ به فصرف الله قلبَه عن ذلك وحمى الشيخَ منه، وأبطلَ السلطانُ أمرَ الحوطة وخلّصَ الله الناس من شرّها.

حَيَاته العلميّة:

تميزت حياةُ النووي العلمية بعد وصوله إلى دمشق بثلاثة أمور:

الأول: الجدّ في طلب العلم والتحصيل في أول نشأته وفي شبابه، وقد أخذ العلم منه كلَّ مأخذ، وأصبح يجد فيه لذة لا تعدِلُها لذة، وقد كان جادًّا في القراءة والحفظ، وقد حفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظ ربع العبادات من المهذب في باقي السنة، واستطاع في فترة وجيزة أن ينال إعجاب وحبَّ أستاذه أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد المغربي، فجعلَه مُعيد الدرس في حلقته. ثم درَّسَ بدار الحديث الأشرفية، وغيرها.

الثاني: سعَة علمه وثقافته، وقد جمع إلى جانب الجدّ في الطلب غزارة العلم والثقافة المتعددة، وقد حدَّثَ تلميذُه علاء الدين بن العطار عن فترة التحصيل والطلب، أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جنّي في النحو، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكّيت في اللغة، ودرساً في الصرف، ودرساً في أصول الفقه، وتارة في اللمع لأبي إسحاق، وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين، وكان يكتبُ جميعَ

ما يتعلق بهذه الدروس من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة.

الثالث: غزارة إنتاجه، اعتنى بالتأليف وبدأه عام ٦٦٠ هـ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وقد بارك الله له في وقته وأعانه، فأذاب عُصارة فكره في كتب ومؤلفات عظيمة ومدهشة، تلمسُ فيها سهولةُ العبارة، وسطوعَ الدليل، ووضوحَ الأفكار، والإِنصافَ في عرض آراء الفقهاء، وما زالت مؤلفاته حتى الآن تحظى باهتمام كل مسلم، والانتفاع بها في سائر البلاد. ويذكر الإِسنوي تعليلاً لطيفاً ومعقولاً لغزارة إنتاجه فيقول: اعلم أن الشيخ محيي الدين رحمه الله لمّا تأهل للنظر والتحصيل، رأى أن من المسارعة إلى الخير؛ أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفاً ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً، وهو غرض صحيح وقصد جميل، ولولا ذلك لما تيسر له من التصانيف ما تيسر له ".

ومن أهم كتبه:

" شرح صحيح مسلم " و" المجموع " شرح المهذب، و" رياض الصالحين " و" تهذيب الأسماء واللغات "، والروضة روضة الطالبين وعمدة المفتين "، و" المنهاج في الفقه " و" الأربعين النووية " و" التبيان في آداب حَمَلة القرآن " و" الأذكار " حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبّة في الليل والنهار "، و" الإِيضاح " في المناسك.

شيوخه:

من شيوخه في الفقه:

١- عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري، تاج الدين، عُرف بالفِرْكاح، توفي سنة ٦٩٠ هـ.

٢- إسحاق بن أحمد المغربي، الكمال أبو إبراهيم، محدّث

المدرسة الرواحيّة، توفي سنة ٦٥٠ هـ.

٣- عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي ثم الدمشقي، أبو محمد، مفتي دمشق، توفي سنة ٦٥٤ هـ.

٤- سلاَّر بن الحسن الإِربلي، ثم الحلبي، ثم الدمشقي، إمام المذهب الشافعي في عصره، توفي سنة ٦٧٠ هـ.

ومن شيوخه في الحديث:

١- إبراهيم بن عيسى المرادي، الأندلسي، ثم المصري، ثم الدمشقي، الإِمام الحافظ، توفي سنة ٦٦٨ هـ.

٢- خالد بن يوسف بن سعد النابلسي، أبو البقاء، زين الدين، الإِمام المفيد المحدّث الحافظ، توفي سنة ٦٦٣ هـ.

٣- عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري، الحموي، الشافعي، شيخ الشيوخ، توفي سنة ٦٦٢ هـ.

٤- عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدامة المقدسي، أبو الفرج، من أئمة الحديث في عصره، توفي سنة ٦٨٢ هـ.

٥- عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الحرستاني، أبو الفضائل، عماد الدين، قاضي القضاة، وخطيب دمشق. توفي سنة ٦٦٢ هـ.

٦- إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي اليُسْر التنوخي، أبو محمد تقي الدين، كبير المحدّثين ومسندهم، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

٧- عبد الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري، ثم الدمشقي الحنبلي، المفتي، جمال الدين. توفي سنة ٦٦١ هـ.

٨- ومنهم: الرضي بن البرهان، وزين الدين أبو العباس بن عبد الدائم المقدسي، وجمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي

الحرّاني، وأبو الفضل محمد بن محمد بن محمد البكري الحافظ، والضياء ابن تمام الحنفي، وشمس الدين بن أبي عمرو، وغيرهم من هذه الطبقة.

ومن شيوخه في علم الأصول:

أما علم الأصول، فقرأه على جماعة، أشهرهم: عمر بن بندار بن عمر ابن على بن محمد التفليسي الشافعي، أبو الفتح. توفي سنة ٦٧٢ هـ.

تلاميذه:

ومن شيوخه في النحو واللغة:

وأما في النحو واللغة، فقرأه على: الشيخ أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي، أبي العباس، توفي سنة ٦٦٤ هـ. والفخر المالكي. والشيخ أحمد بن سالم المصري.

مسموعاته:

سمع النسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي، وأبي عوانة الإِسفراييني، وأبي يعلى الموصلي، وسنن ابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، وشرح السنّة للبغوي، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، والخطب النباتية، ورسالة القشيري، وعمل اليوم والليلة لابن السني، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب البغدادي، وأجزاء كثيرة غير ذلك.

عزَّ العزاءُ وعمَّ الحادث الجلل ::: وخاب بالموت في تعميرك الأمل

وكان ممّن أخذ عنه العلم: علاء الدين بن العطار، وشمس الدين ابن النقيب، وشمس الدين بن جَعْوان، وشمس الدين بن القمَّاح، والحافظ جمال الدين المزي، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ورشيد الدين الحنفي، وأبو العباس أحمد بن فَرْح الإِشبيلي، وخلائق.

وَفَاته:

وفي سنة ٦٧٦ هـ رجع إلى نوى بعد أن ردّ الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة شيوخه، فدعا لهم وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودّعهم، وبعد أن زار والده بيت المقدس والخليل، وعاد إلى نوى فمرض بها وتوفي في ٢٤ رجب.

ولما بلغ نعيه إلى دمشق ارتجّت هي وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، وتوجّه قاضي القضاة عزّ الدين محمد بن الصائغ وجماعة من أصحابه إلى نوى للصلاة عليه في قبره، ورثاه جماعة، منهم محمد بن أحمد بن عمر الحنفي الإِربلي، وقد اخترت هذه الأبيات من قصيدة بلغت ثلاثة وثلاثين بيتاً:

واستوحشت بعدما كنت الأنيس لها ::: وساءَها فقدك الأسحارُ والأصلُ
وكنت للدين نوراً يُستضاء به مسدَّد ::: منك فيه القولُ والعملُ
زهدتَ في هذه الدنيا وزخرفها ::: عزماً وحزماً ومضروب بك المثل
أعرضت عنها احتقاراً غير محتفل ::: وأنت بالسعي في أخراك محتفل

وهكذا انطوت صفحة من صفحات عَلَم من أعلاَم المسلمين، بعد جهاد في طلب العلم، ترك للمسلمين كنوزاً من العلم، لا زال العالم الإسلامي يذكره بخير، ويرجو له من اللّه تعالى أن تناله رحماته ورضوانه.

رحم اللّه الإِمام النووي رحمة واسعة، وحشره مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وجمعنا به تحت لواء سيدنا محمد ﷺ [1].

* * *

(١) المصدر: مقدمة كتاب الأذكار، السيوطي، المنهاج السوي في ترجمة محيي الدين النووي طبعة دار التراث الأولى ١٤٠٩ هـ تحقيق: د. محمد العيد الخطراوي.

سعيد بن جبير

من مشاهير أعلام المسلمين

سعيد بن جبير

ابن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي الوالبي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام.

روى عن ابن عباس فأكثر وجود، وعن عبد الله بن مغفل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري في سنن النسائي، وأبي هريرة، وأبي مسعود البدري - وهو مرسل - وعن ابن عمر، وابن الزبير، والضحاك بن قيس، وأنس، وأبي سعيد الخدري.

وروى عن التابعين، مثل أبي عبد الرحمن السلمي. وكان من كبار العلماء.

قرأ القرآن على ابن عباس. قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء وطائفة.

وحدث عنه أبو صالح السمان، وآدم بن سليمان والد يحيى، وأشعث بن أبي الشعثاء، وأيوب السختياني وبكير بن شهاب، وثابت ابن عجلان، وأبو المقدام ثابت بن هرمز، وجعفر بن أبي المغيرة، وأبو بشر جعفر بن أبي وحشية، وحبيب بن أبي ثابت، وحبيب بن أبي عمرة، وحسان بن أبي الأشرس، وحصين، والحكم، وحماد، وخصيف الجزري، وزر الهمداني، وزيد العمي، وسالم الأفطس، وسلمة بن كهيل، وسليمان بن أبي المغيرة، وسليمان الأحول، وسليمان الأعمش، وسماك بن حرب، وأبو سنان ضرار بن مرة، وطارق بن عبد الرحمن، وطلحة بن مصرف، وأبو سنان طلحة بن نافع، وأبو حريز عبد الله بن حسين، وابنه عبد الله بن سعيد، وعبد

الله بن عثمان بن خثيم، وعبد الله بن عيسى بن أبي ليلى، وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي، وعبد الكريم الجزري، وعبد الكريم أبو أمية البصري، وابنه عبد الملك بن سعيد، وعبد الملك بن أبي سليمان، وعبد الملك بن ميسرة، وعثمان بن حكيم، وعثمان بن أبي سليمان، وعثمان بن قيس، وعدي بن ثابت، وعزرة بن عبد الرحمن، وعطاء بن السائب، وعكرمة بن خالد، وعلي بن بذيمة، وعمار الدهني، وعمرو ابن دينار، وعمرو بن سعيد البصري، وعمرو بن عمرو المدني، وعمرو بن مرة، وعمرو بن هرم، وفرقد السبخي، وفضيل بن عمرو الفقيمي، والقاسم بن أبي أيوب، والقاسم بن أبي بزة، وكثير بن كثير ابن المطلب، وكلثوم بن جبر، ومالك بن دينار، ومجاهد رفيقه، ومحمد ابن سوقة، ومحمد بن أبي محمد، والزهري، ومحمد بن واسع، ومسعود بن مالك، ومسلم البطين، والمغيرة بن النعمان، ومنصور بن حيان، ومنصور بن المعتمر، والمنهال بن عمرو، وموسى بن أبي عائشة، وأبو شهاب الحناط الأكبر موسى بن نافع، وميمون بن مهران، وهشام بن حسان، وهلال بن خباب، ووبرة بن عبد الرحمن، ووهب بن مأنوس، وأبو هبيرة يحيى بن عباد، ويحيى بن ميمون أبو المعلى العطار، ويعلى بن حكيم، ويعلى بن مسلم، وأبو إسحاق السبيعي، وأبو حصين الأسدي، وأبو الزبير المكي، وأبو الصهباء الكوفي، وأبو عون الثقفي، وأبو هاشم الرماني، وخلق كثير.

روى ضمرة بن ربيعة، عن أصبغ بن زيد، قال: كان لسعيد بن جبير ديك، كان يقوم من الليل بصياحه، فلم يصح ليلة من الليالي حتى أصبح، فلم يصل سعيد تلك الليلة، فشق عليه، فقال: ما له قطع الله صوته؟ فما سمع له صوت بعد. فقالت له أمه: يا بني، لا تدع على شيء بعدها.

قال أبو الشيخ: قدم سعيد أصبهان زمن الحجاج، وأخذوا عنه.

وعن عمر بن حبيب قال: كان سعيد بن جبير بأصبهان لا يحدث، ثم رجع إلى الكوفة فجعل يحدث، فقلنا له في ذلك فقال: انشر بزك حيث تعرف.

قال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير بفارس، وكان يتحزن، يقول: ليس أحد يسألني عن شيء. وكان يبكينا، ثم عسى ألاَّ يقوم حتى نضحك.

شعبة، عن القاسم بن أبي أيوب: كان سعيد بن جبير بأصبهان، وكان غلام مجوسي يخدمه، وكان يأتيه بالمصحف في غلافه.

قال القاسم بن أبي أيوب: سمعت سعيدا يردد هذه الآية في الصلاة بضعا وعشرين مرة واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله.

أنبأنا أحمد بن أبي الخير، عن اللبان، أنبأنا الحداد، أنبأنا أبو نعيم، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثنا أبو عوانة، عن إسحاق مولى عبد الله بن عمر، عن هلال بن يساف، قال: دخل سعيد بن جبير الكعبة فقرأ القرآن في ركعة.

الحسن بن صالح، عن وقاء بن إياس، قال: كان سعيد بن جبير يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء في شهر رمضان، وكانوا يؤخرون العشاء.

قلت: هذا خلاف السنة، وقد صح النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث.

يزيد: أنبأنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، أنه كان يختم القرآن في كل ليلتين.

يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة: كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير.

قال ابن مهدي، عن سفيان، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

وقال ضرار بن مرة: عن سعيد بن جبير، قال: التوكل على الله جماع الإيمان.

وكان يدعو: اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك.

أبو عوانة، عن هلال بن خباب، قال: خرجت مع سعيد بن جبير في رجب، فأحرم من الكوفة بعمرة، ثم رجع من عمرته، ثم أحرم بالحج في النصف من ذي القعدة، وكان يحرم في كل سنة مرتين، مرة للحج، ومرة للعمرة.

ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: إن الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن.

وروي عن حبيب بن أبي ثابت: قال لي سعيد بن جبير: لأن أنشر علمي أحب إلى من أن أذهب به إلى قبري.

قال هلال بن خباب: قلت لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم.

وقال عمر بن ذر: كتب سعيد بن جبير إلى أبي كتابا أوصاه بتقوى الله وقال: إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره.

أحمد حدثنا معتمر، عن الفضيل بن ميسرة، عن أبي حريز، أن سعيد بن جبير قال: لا تطفئوا سرجكم ليالي العشر. تعجبه العبادة ويقول: أيقظوا خدمكم يتسحرون لصوم يوم عرفة.

عباد بن العوام: أنبأنا هلال بن خباب: خرجنا مع سعيد بن جبير في جنازة، فكان يحدثنا في الطريق ويذكرنا، حتى بلغ، فلما جلس، لم يزل يحدثنا حتى قمنا، فرجعنا، وكان كثير الذكر لله.

وعن سعيد، قال: وددت الناس أخذوا ما عندي ؛ فإنه مما يهمني.

أبو بكر بن عياش، عن أبي حصين، قال: أتيت سعيد بن جبير بمكة، فقلت: إن هذا الرجل قادم - يعني خالد بن عبد الله - ولا آمنه عليك، فأطعني واخرج. فقال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله. قلت: إني لأراك كما سمتك أمك سعيدا. فقدم خالد مكة، فأرسل إليه فأخذه.

أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا أمية بن شبل، عن عثمان بن برذويه قال: كنت مع وهب وسعيد بن جبير يوم عرفة بنخيل ابن عامر، فقال له وهب: يا أبا عبد الله، كم لك منذ خفت من الحجاج؟ قال: خرجت عن امرأتي وهي حامل، فجاءني الذي في بطنها وقد خرج وجهه. فقال وهب: إن من قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عده رخاء، وإذا أصابه رخاء عده بلاء.

قال سالم بن أبي حفصة لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنا سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير، لأقتلنك. قال: فإذا أنا كما سمتني أمي، ثم قال: دعوني أصل ركعتين. قال: وجهوه إلى قبلة النصارى. قال: فأينما تولوا فثم وجه الله وقال: إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم. قال: وما عاذت به؟ قال: قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا.

رواها ابن عيينة، عن سالم. ثم قال ابن عيينة: لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحدًا.

وعن عتبة مولى الحجاج، قال: حضرت سعيدا حين أتي به الحجاج بواسط، فجعل الحجاج يقول: ألم أفعل بك؟! ألم أفعل بك؟! فيقول: بلى. قال: فما حملك على ما صنعت من خروجك علينا؟ قال:

بيعة كانت على - يعني لابن الأشعث - فغضب الحجاج وصفق بيديه، وقال: فبيعة أمير المؤمنين كانت أسبق وأولى. وأمر به، فضربت عنقه.

وقيل: لو لم يواجهه سعيد بن جبير بهذا، لاستحياه كما عفا عن الشعبي لما لاطفه في الاعتذار.

حامد بن يحيى البلخي: حدثنا حفص أبو مقاتل السمرقندي، حدثنا عون بن أبي شداد: بلغني أن الحجاج لما ذكر له سعيد بن جبير أرسل إليه قائدا يسمى المتلمس بن أحوص في عشرين من أهل الشام. فبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عنه فقال: صفوه لي، فوصفوه فدلهم عليه، فانطلقوا فوجدوه ساجدا يناجي بأعلى صوته، فدنوا وسلموا، فرفع رأسه، فأتم بقية صلاته، ثم رد السلام، فقالوا: إنا رسل الحجاج إليك، فأجبه، قال: ولا بد من الإجابة؟ قالوا: لا بد. فحمد الله وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهى إلى دير الراهب، فقال الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم. فقال: اصعدوا، فإن اللبوءة والأسد يأويان حول الدير. ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل. فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا، قال: لا، ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا، قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك، قال: لا ضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرسا تحرسني، قالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله مذنب. قال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة. فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد، قال: إني أعطي العظيم الذي لا شريك له، لا أبرح مكاني حتى أصبح إن شاء الله. فرضي الراهب بذلك، فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسي لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح ؛ فإنه كره الدخول في الصومعة لمكانكم. فلما صعدوا وأوتروا القسي، إذا هم بلبوءة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد، تحككت به وتمسحت به، ثم ربضت قريبا منه. وأقبل

الأسد يصنع كذلك. فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه، فسأله عن شرائع دينه، وسنن رسوله، ففسر له سعيد ذلك كله، فأسلم. وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه فيقولون: يا سعيد، حلفنا الحجاج بالطلاق والعتاق، إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه، فمرنا بما شئت، قال: امضوا لأمركم، فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه، فساروا حتى بلغوا واسطا فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم، ولست أشك أن أجلي قد حضر فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت، وأستعد لمنكر ونكير، وأذكر عذاب القبر، فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي تريدون. فقال بعضهم: لا تريدون أثرا بعد عين، وقال بعضهم: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير، فلا تعجزوا عنه. وقال بعضهم: يعطيكم ما أعطى الراهب، ويلكم أما لكم عبرة بالأسد؟! ونظروا إلى سعيد قد دمعت عيناه، وشعث رأسه، واغبر لونه، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه، فقالوا: يا خير أهل الأرض، ليتنا لم نعرفك، ولم نسرح إليك، الويل لنا ويلا طويلا، كيف ابتلينا بك! اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر، فإنه القاضي الأكبر، والعدل الذي لا يجور. قال: ما أعذرني لكم وأرضاني لما سبق من علم الله في. فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة، قال كفيله: أسألك بالله لما زودتنا من دعائك وكلامك، فإنا لن نلقى مثلك أبدا. ففعل ذلك، فخلوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم محتفون الليل كله، ينادون بالويل واللهف. فلما انشق عمود الصبح، جاءهم سعيد فقرع الباب، فنزلوا وبكوا معه، وذهبوا به إلى الحجاج، وآخر معه، فدخلا، فقال الحجاج: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا نعم، وعاينا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم. فقال: أدخلوه علي. فخرج المتلمس فقال لسعيد أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام. فأدخل عليه. فقال: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت

وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهـا. قال: فما قولك في محمد ﷺ؟ قال: نبي الرحمة، إمام الهدى. قال: فما قولك في علي، في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. قال: إني لم أحب أن أكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

قال: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا، إلا ما طاب وزكا. ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى، فقال الحجاج: ما يبكيك؟ هو اللهو. قال: بل هو الحزن، أما النفخ، فذكرني يوم نفخ الصور، وأما العود، فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة.

فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك، قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو، فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج من الباب، ضحك، فأخبر الحجاج بذلك، فأمر برده، فقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلمه عنك! فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه. فقال: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض قال: شدوا به لغير القبلة. قال: فأينما تولوا فثم وجه الله قال: كبوه لوجهه. قال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم قال: اذبحوه قال: إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا

الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله وقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وبلغنا أن الحجاج عاش بعده خمس عشرة ليلة، وقعت في بطنه الأكلة فدعا بالطبيب لينظر إليه، فنظر إليه، ثم دعا بلحم منتن، فعلقه في خيط ثم أرسله في حلقه، فتركه ساعة ثم استخرجه وقد لزق به من الدم، فعلم أنه ليس بناج.

هذه حكاية منكرة، غير صحيحة. رواها أبو نعيم في " الحلية "، فقال: حدثنا أبي، حدثنا خالي أحمد بن محمد بن يوسف، أخبرني أبو أمية محمد بن إبراهيم كتابة، حدثنا حامد بن يحيى.

هارون الحمال حدثنا محمد بن مسلمة المخزومي، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن كاتب الحجاج قال مالك - هو أخ لأبي سلمة الذي كان على بيت المال - قال: كنت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام يستخفني ويستحسن كتابتي، وأدخل عليه بغير إذن، فدخلت عليه يوما بعدما قتل سعيد بن جبير وهو في قبة له، لها أربعة أبواب، فدخلت عليه مما يلي ظهره، فسمعته يقول: ما لي ولسعيد بن جبير، فخرجت رويدا وعلمت أنه إن علم بي قتلني، فلم ينشب إلا قليلا حتى مات.

أبو حذيفة النهدي: حدثنا سفيان، عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، قال: دعا سعيد بن جبير حين دعي للقتل فجعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟

ابن حميد: حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد، قال: قحط الناس في زمان ملك من ملوك بني إسرائيل ثلاث سنين، فقال الملك: ليرسلن علينا السماء أو لنؤذينه، قالوا: كيف تقدر على أن تؤذيه، وهو في السماء وأنت في الأرض؟ قال: أقتل أولياءه من أهل الأرض فيكون ذلك أذى له. قال: فأرسل الله عليهم السماء.

وروى أصبغ بن زيد، عن القاسم الأعرج، قال: كان سعيد بن جبير يبكي بالليل حتى عمش.

وروي عن ابن شهاب، قال: كان سعيد بن جبير يؤمنا، يرجع صوته بالقرآن.

وروى الثوري، عن حماد، قال: قال سعيد: قرأت القرآن في ركعتين في الكعبة.

جرير الضبي، عن أشعث بن إسحاق، قال: كان يقال: سعيد بن جبير جهبذ العلماء.

ابن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبير، قال: لدغتني عقرب، فأقسمت على أمي أن أسترقي، فأعطيت الراقي يدي التي لم تلدغ، وكرهت أن أحنثها.

جرير بن حازم، عن يعلى بن حكيم، قال: قال سعيد بن جبير: ما رأيت أرعى لحرمة هذا البيت، ولا أحرص عليه، من أهل البصرة، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلقت بأستار الكعبة تدعو وتضرع وتبكي حتى ماتت [١].

* * *

(١) المصدر: مجلة البحوث الإسلامية، ٨٠ / ١٧٧١ - ١٧٧٧.

ابــن الأثيـر

من مشاهير أعلام المسلمين

المؤرخ الكبير ابـن الأثير[1]

يحتل المؤرخ العربي الإسلامي عز الدين أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن الأثير مكانة متميزة بين المؤرخين في تراثنا العربي الإسلامي مثلما يحظى كتابه: " الكامل في التاريخ " و" أسد الغابة في معرفة الصحابة " بثقة مطلقة إذ يعدّه عمدة المؤرخين القدامى والمحدثين مرجعاً هامًّا لا يستغنى عنه، قال فيه السخاوي في

(١) مصادر الترجمة:.
- عبد القادر أحمد طليمات:.
١ - ابن الأثير الجزري المؤرخ - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٩.
٢ - مقدمة كتاب التاريخ الباهر للدولة الأتابكية، ط دار الكتب الحديثة، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ١٩٦٣ م.
- محمد عبد الله الحمدان، بنو الأثير، الفرسان الثلاثة.
- نهلة أنيس محمد مصطفي، الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير وأبي شامة.
- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون - دار العلم للملايين - القاهرة - ١٩٨٧.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بدون تاريخ.
- السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٦٢م.
- نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٢م.
- د. سليمان الدخيل، نظرة في كتاب (الكامل) لابن الأثير، (مجلة البيان، العدد ١٢).
- محمد العبدة، ابن الأثير وموقفه من الدولة العبيدية وبعض الدول المعاصرة لها، (مجلة البيان، العدد ٩).
- دائرة المعارف الإسلامية.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ.
- ابن كثير، البداية والنهاية.

كتابه " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ". " قال شيخنا: إنه أحسن التواريخ بالنسبة إلى إيراد الوقائع موضحة بينة حتى كأنَّ السامع في الغالب حاضرها من حسن التصرف وجودة الإيراد ".

ونوه مترجم حياة ابن الأثير في دائرة المعارف الإسلامية بكتاب الكامل فقال: " وهو - أي ابن الأثير - صاحب ا لكتاب المشهور: " الكامل في التاريخ " الذي يستشهد به كثيراً في هذه الدائرة ".

وابن الأثير مؤلف " الكامل " و" وأسد الغابة في معرفة الصحابة " هو الابن الأوسط لأثير الدين الجزري وأحد ثلاثة أخوة نسبوا إلى والدهم " أثير الدين " المتحدر من أسرة عربية الأصل تنتمي إلى بني شيبان أحد بطون بكر بن وائل العربية، وهي أسرة غنية كانت تمتلك عقارات وإقطاعات، وشغل أفرادها مناصب حكومية عالية، وقد شغل والد ابن الأثير منصب رئيس ديوان " جزيرة ابن عمر " التابعة للموصل ونائب وزير الموصل فيها، وجاراه في الالتحاق بالوظائف الحكومية ولداه: مجد الدين: وهو الأكبر، وضياء الدين: وهو الأصغر أما مؤلف الكامل الولد الأوسط عز الدين فقد شغله عن الوظيفة انصرافه إلى العلم تدريساً وتأليفاً.

وقد نبغ الأخوة الثلاثة في مجال العلم وكانت لهم مصنفات في مختلف أبوابه، حظي بعضها بالشهرة إلى يومنا هذا، أما مجد الدين [1] وهو الأكبر فلم تصرفه خدمته للأيوبيين عن التصنيف في

(١) قال الذهبي: " القاضي، الرئيس، العلامة، البارع، الأوحد، البليغ، مجد الدين، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الجزري، ثم الموصلي، الكاتب، ابن الأثير، صاحب (جامع الأصول)، و(غريب الحديث)، وغير ذلك. مولده: بجزيرة ابن عمر، في أحد الربيعين، سنة أربعٍ وأربعين وخمس مائةٍ، ونشأ بها، ثم تحول إلى الموصل، وسمع من: يحيى بن سعدون القرطبي، وخطيب الموصل، وطائفةٍ. وروى: الكتب نازلاً، فأسند (صحيح البخاري)، عن ابن سرايا، عن أبي الوقت، و(صحيح مسلم)، عن أبي ياسرٍ بن أبي حبة، عن إسماعيل ابن السمرقندي، عن التنكتي، عن أبي الحسين عبد الغافر، ثم عن ابن سكينة إجازةً، عن

الفراوي، و(الموطأ)، عن ابن سعدون، حدثنا ابن عتابٍ، عن ابن مغيثٍ، فوهم، و(سنن أبي داود والترمذي) بسماعه من ابن سكينة، و(سنن النسائي)، أخبرنا يعيش بن صدقة، عن ابن محمويه. ثم اتصل بالأمير مجاهد الدين قيماز الخادم، إلى أن توفي مخدومه، فكتب الإنشاء لصاحب الموصل عز الدين مسعودٍ الأتابكي، وولي ديوان الإنشاء، وعظم قدره، وله اليد البيضاء في الترسل، وصنف فيه، ثم عرض له فالجٌ في أطرافه، وعجز عن الكتابة، ولزم داره، وأنشأ رباطاً في قرية وقف عليه أملاكه، وله نظمٌ يسيرٌ. قال الإمام أبو شامة: قرأ الحديث والعلم والأدب، وكان رئيساً مشاوراً، صنف (جامع الأصول)، و(النهاية)، و(شرحاً لمسند الشافعي)، وكان به نقرسٌ، فكان يحمل في محفةٍ، قرأ النحو على أبي محمدٍ سعيد بن الدهان، وأبي الحرم مكي الضرير..

ولما حج سمع ببغداد من ابن كليبٍ، وحدث وانتفع به الناس، وكان ورعاً، عاقلاً، بهياً، ذا بر وإحسانٍ، وأخوه عز الدين على، صاحب (التاريخ)، وأخوهما الصاحب ضياء الدين، مصنف كتاب (المثل السائر).

وقال ابن خلكان: لمجد الدين كتاب (الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف) تفسيري الثعلبي والزمخشري، وله كتاب (المصطفى المختار في الأدعية والأذكار)، وكتابٌ لطيفٌ في صناعة الكتابة، وكتاب (البديع في شرح مقدمة ابن الدهان)، وله (ديوان رسائل).

قلت: روى عنه: ولده؛ والشهاب القوصي، والإمام تاج الدين عبد المحسن بن محمد بن الحامض شيخ الباجربقي، وطائفةٌ. وآخر من روى عنه بالإجازة: الشيخ فخر الدين ابن البخاري.

قال ابن الشعار: كان كاتب الإنشاء لدولة صاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودودٍ، وكان حاسباً، كاتباً، ذكيًّا..، إلى أن قال:ومن تصانيفه كتاب (الفروق في الأبنية)، وكتاب (الأذواء والذوات)، وكتاب (المختار في مناقب الأخيار)، و(شرح غريب الطوال) قال: وكان من أشد الناس بخلاً.

قلت: من وقف عقاره لله فليس ببخيلٍ، فما هو ببخيلٍ، ولا بجوادٍ، بل صاحب حزمٍ واقتصادٍ - رحمه الله.

عاش ثلاثاً وستين سنةً. توفي: في سنة ست وست مائةٍ بالموصل.

حكى أخوه العز، قال: جاء مغربي عالج أخي بدهنٍ صنعه، فبانت ثمرته، وتمكن من مد رجليه، فقال لي: أعطه ما يرضيه واصرفه. قلت: لماذا، وقد ظهر النجح؟.

قال: هو كما تقول، ولكني في راحةٍ من ترك هؤلاء الدولة، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدعة، وبالأمس كنت أذل بالسعي إليهم، وهنا فما يجيئوني، إلا في مشورةٍ مهمةٍ، ولم يبق من العمر إلا القليل." سير أعلام النبلاء، (٤٩٢/٢١).

والحديث في بغداد، وتولى خدمة الأمير " قيماز " الذي حكم البلاد قبل سيف الدين غازي، ثم تولى ديوان الرسائل لمسعود بن مودود ونور الدين أرسلان شاه، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه، ويقول ابن خلكان: " إنه صنف معظم كتبه إن لم يكن كلها وهو على هذه الحال "، وله مصنفات منها: " كتاب الإنصاف في تفسير القرآن "، و" كتاب غريب الحديث "، و" كتاب جامع الأصول في حديث الرسول "، وغيرها...

وأما الأخ الأصغر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)، [١] فقد ولد في جزيرة ابن عمر وتوفي ببغداد، وترجع شهرته إلى أنه كان من أصحاب الأساليب، ويعد كتابه المشهور في البلاغة: " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر "، الذي طبع

(١) قال الذهبي: " الصاحب، العلامة، الوزير، ضياء الدين، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الجزري، المنشئ، صاحب كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر).

مولده: بجزيرة ابن عمر، في سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائةٍ، وتحول منها مع أبيه وإخوته، فنشأ بالموصل، وحفظ القرآن، وأقبل على النحو واللغة والشعر والأخبار.

وقال في أول كتاب (الوشي) له: حفظت من الأشعار ما لا أحصيه، ثم اقتصرت على الدواوين لأبي تمامٍ والبحتري والمتنبي فحفظتها.

قال ابن خلكان: قصد السلطان صلاح الدين فقدمه، ووصله القاضي الفاضل، فأقام عنده أشهراً، ثم بعث به إلى ولده الملك الأفضل فاستوزره، فلما توفي صلاح الدين، تملك الأفضل دمشق، وفوض الأمور إلى الضياء، فأساء العشرة، وهموا بقتله، فأخرج في صندوقٍ، وسار مع الأفضل إلى مصر، فراح الملك من الأفضل، واختفى الضياء، ولما استقر الأفضل بسميساط، ذهب إليه الضياء، ثم فارقه في سنة سبعٍ وست مائةٍ، فاتصل بصاحب حلب، فلم ينفق، فتألم، وذهب إلى الموصل، فكتب لصاحبها.

وله يدٌ طولى في الترسل، كان يجاري القاضي الفاضل، ويعارضه، وبينهما مكاتباتٌ ومحارباتٌ.

وقال ابن النجار: قدم بغداد رسولاً غير مرةٍ، وحدث بها بكتابه، ومرض، فتوفي في ربيعٍ الآخر، سنة سبعٍ وثلاثين وست مائةٍ، وقيل: كان بينه وبين أخيه عز الدين مقاطعةٌ ومجانبةٌ شدي.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٧٤/٢٣).

ببولاق ١٢٨٢هـ، من أهم المراجع في بابه، ومن مصنفاته أيضاً: " الوشي المرقوم في حلّ المظلوم "، و" المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ".

ويعد الأخ الأوسط أكثرهم شهرة، ولد في الرابع من جمادى سنة ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، وانتقل إلى الموصل مع أسرته حيث عمل فيها والده، وهيأ له أبوه ولأخويه سبل التعليم، فألحقه في طفولته بأحد الكتاتيب في جزيرة ابن عمر فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وفي الموصل اتصل بأسرها العلمية وتردد على مجالس العلم فيها فسمع من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطورسي، وأبي الفرج يحيى الثقفي، ومسلم بن على السيّجي، وتردد على الشام أكثر من مرة زمن الأيوبيين فعقد صداقات مع علماء الشام ونال شهرة في الوسط العلمي فيها محدثاً ومؤرخاً، تتلمذ على عدة أشياخ فسمع الحديث من أ بي القاسم بن حصري، وزين الأمناء، وابن سويدة التكريتي، وابن رواحة وابن كليب الحراني، وكان يتردد على بغداد منتهزاً فرصة الحج، فسمع فيها من عبد المؤمن بن كليب ويعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن سكينة، وأبي أحمد عبد الوهاب ابن على الصوفي، ودرس على أشياخه الحساب واللغة والفقه وغيرها من العلوم.

برز ابن الأثير بنوعين من العلوم هما الحديث والتاريخ وتخصص فيهما، لكنه اشتهر مؤرخاً أكثر من شهرته محدثاً، يقول ابن خلكان عنه: كان حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم ولاسيما الصحابة ".

ولا تمدنا المصادر بالكثير عن حياته الخاصة، وكل ما يعرف عنه أنه عاش منقطعاً إلى العلم تحصيلاً وتدريساً وتصنيفاً وربما اعتمد عليه صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي

الأمر ببغداد، وقد حج أكثر من مرة، وسمح له غناه أن يعيش حياة ارستقراطية مما ساعده على التفرغ الكامل للعلم، فهو يذكر أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة إحدى قرى جزيرة ابن عمر، وقرية أخرى جنوب الموصل يقال: لها " قصر حرب "، وأنه جمع أكثر مادة كتابه " الكامل في التاريخ "، في دار لهم بهذه القرية.

ويجمع من ترجم لابن الأثير على تحليه بالأخلاق الفاضلة، اجتمع به ابن خلكان في حلب فوجده على حد تعبيره: " رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع. ". وكان بيته مأوى لطلاب العلم لا يتوانى عن مساعدتهم والعطف عليهم. وتذكر المصادر أسماء بعض طلابه ومنهم ابن عساكر والزينبي والمجد بن أبي جرادة. وقد أهّله علمه وأخلاقه الرفيعة إلى عقد صلات مع مشاهير عصره ومنهم طفرين مدبر أمور حلب، وصلاح الدين الأيوبي وقد صحبه في معسكره في بعض غزواته.

توفي ابن الأثير في شهر شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠هـ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين.

ولابن الأثير عز الدين مؤلفات أخرى لا يتسع المقال لاستيفاء موضوعها وأسلوبها بالتفصيل وهي تدخل في باب الحديث أو التاريخ أو كلاهما معاً منها:

١ – الكامل في التاريخ:

وهو تاريخ عام في ١٢ مجلدًا، منذ بدء الخليقة وابتداء أول الزمان حتى عصره، حيث انتهى عند آخر سنة (٦٢٨هـ) أي إنه يعالج تاريخ العالم القديم حتى ظهور الإسلام، وتاريخ العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى عصره، والتزم في كتابه بالمنهج الحولي في تسجيل الأحداث، فهو يسجل أحداث كل سنة على حدة، وأقام توازنًا بين أخبار المشرق والمغرب وما بينهما على مدى سبعة قرون وربع قرن، وهو ما أعطى كتابه طابع التاريخ العام أكثر أي

تاريخ عام لغيره، وفي الوقت نفسه لم يهمل الحوادث المحلية في كل إقليم، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية من غلاء ورخص، وقحط وأوبئة وزلازل.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير اشتهر كمؤرخاً، ويرجع ميله للتاريخ إلى تحصيله الواسع في علم الحديث، وقد دفعه الاهتمام بالحديث إلى تتبع سيرة النبي وأخبار الصحابة وجره ذلك إلى قراءة كتب التاريخ حتى ألمَّ بتاريخ المشرق الإسلامي وتاريخ المغرب الإسلامي، يدفعه إلى ذلك ميل قوي إلى مطالعة الكتب التاريخية، يقول في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ:

" أما بعد فإني لم أزل محبًّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها مؤثراً الاطلاع على الجليّ من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها... ". ويتضح من أسلوبه في الكتابة كثرة مطالعاته الأدبية التي طبعت بعض كتاباته بطابع أدبي أما كتاباته التاريخية ومصنفاته في الحديث فلا تتجلى فيها نزعته إلى استخدام السجع والبيان إلا في مقدمتها، فهو يؤثر الأسلوب المرسل الواضح.

ينظر ابن الأثير إلى علم التاريخ من زاوية فوائده الجليلة التي يشير إليها في مقدمة الكامل فيرى أن التاريخ باب من أبواب الثقافة يتيح للإنسان أن يعيش مع الماضي فمن يقرأ عن الماضي فكأنه عاش فيه، وهو عظة للناس والحكام، وسبيل إلى الترويح عن النفس، وقراءة التاريخ فوق هذا تزهد الإنسان بالدنيا وترغبه بالآخرة والعبادة وتمثل عظمة الخالق، وفيه أيضاً من التأسي ما يهون به كل مصاب وتزول أمام ما يعرض من محن كل كربة.

وقد اعتمد في كتابه الكامل أكثر ما اعتمد في أجزائه السبعة الأولى منه على الطبري، فاختصر تاريخه حاذفاً الأسانيد متجاوزاً الإسهاب، مكتفياً بالرواية الواحدة، على أن ذلك لم يمنعه أن يستمدّ

من مصادر أخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي مكملاً ما ترك الطبري عن قصد أو عن غير قصد كأيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند.

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع في تأليفها بكل المصادر العربية التي وصلت إلى يده ولذلك عدَّ كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة ٦٢٨هـ أي قبيل وفاة المؤرخ بسنتين.

وقد امتاز ابن الأثير بانفراده من بين معاصريه في تأريخ الحروب الصليبية وغزو التتر، وقد استعان في تدوين الفترة التي لم يعاصر منها الحروب الصليبية بالعماد الأصفهاني والمؤرخين الذين عاصروها ممن سبقوه كابن القلانسي والأتاري وابن أبي جرادة وابن شداد، وقد تضمن تاريخه تقسيماً للحملات الصليبية الخمس على الشرق العربي الإسلامي والحملة الرابعة التي استهدفت في الأساس الشرق العربي الإسلامي لكنها تحولت إلى القسطنطينية.

أما الغزو التتري فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته سنة ٦١٦هـ حتى وفاته قبل سقوط بغداد. وأظهر أساه لما شهد وسمع من فتك المغول وقسوتهم يقول في ذلك: " وقد جرى لهؤلاء التتار مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه... يسرّ الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفعوا من العدو إلى عظيم ". واقتصر في تدوين أخبار هذا الغزو على المعاصرين من شهود العيان أو الرسائل التي تصل إلى الموصل من البلاد المهاجمة وبعض التجار.

وأما منهجه في تأليف الكتاب فقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الإسلامي على السنين فهو يجمع الحادثة التي تقطعت على أكثر من سنة ويذكرها في موضع واحد، ويذكر من ملك أو تبع في قطر من البلاد ولم يطل حكمه في السنة التي كان فيها أول أمره، ويضبط

بعض الأسماء المشتبهة بالخط.

وللكامل في التاريخ ميزات فيها بروز شخصية مؤلفه في الكتابة، فقد برزت انفعالاته الذاتية مع الأحداث في مواقف الرضى أو السخط من خلال تعليقاته على بعض الأخبار، من ذلك تعليقه على الصليبيين بعد عجزهم عن احتلال دمياط وانسحابهم إلى الشام بعدما استباح نور الدين بلادهم فقال: " وهذا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين! ". وتعليقه على استعادة المسلمين دمياط عام ٦١٨ بقوله: " فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر ".

كان ابن الأثير يطمح أن يؤلف كتاباً كاملاً في التاريخ ينطبق مضمونه على تسميته، يتحاشى فيه عيوب كتب التاريخ التي سبقته فقد لاحظ أن منها " المطول والممل والمختصر المخل "، ومنها الحافل بالأحداث والتفصيلات الصغيرة، دون إبراز الأحداث الهامة، وأن المؤرخ الشرقي اقتصر على التأريخ للمشرق والغربي اقتصر على التأريخ للمغرب فإن تجاوزا ذلك أخلّ كلاهما بذكر أخبار الآخر... فجاء كتابه مقتصراً على المفيد، كتبه ببصيرة نافذة وتنظيم مريح للقارئ، وإن لم يتحرر كليًّا من عيوب من سبقه من المؤرخين كاهتمامه بالسند دون مناقشة ما يروى من أساطير ولاسيما في تاريخ الفرس وبدا اهتمامه في بعض المناطق والأقاليم أكثر من المناطق أو الأقاليم الأخرى، بحسب غزارة الأخبار أو قلتها عنها، لكنه كما قال روزنتال: " بذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الإسلامي رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام ".

وقد تحدث الدكتور عبد القادر أحمد طليمات عن ابن الأثير الجزري في كتابه: " ابن الأثير الجزري المؤرخ " فلخص أبرز

سمات عمله التاريخي ومن هذه السمات أنه نقد التاريخ نقدًا واعيًا فردّ بعض تعليلات الطبري لحرب الفجار ودافع عن الخليفة عثمان في موقفه من أبي ذر الغفاري حين نفاه إلى الربذة بقوله: " فإن للإمام أن يؤدب رعيته "، ومن سمات تاريخه ملاحظته وتعليله لبعض ظواهر تاريخية استقرأها من الأحداث كملاحظته تحول الملك من مؤسس الدولة في التاريخ الإسلامي إلى أهل بيته دون أولاده، وذكر عدة وقائع تؤيد هذه الظاهرة من التاريخ الإسلامي وعلل هذه الظاهرة: " بأن الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فيحرمه الله أعقابه، ومن يفعل ذلك، من أجلهم عقوبة له "، ومن سمات عمله التاريخي الحياد، فقد أرخ للزنكيين والأيوبيين بحياد تام، وإن كان بعض المؤرخين قد اتهموه بالخروج عن الحياد حين حمّل صلاح الدين مسؤولية تساهله مع الفرنجة والسماح لهم في التجمع بمدينة صور فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك، واعتبروا نقده هذا نقداً مغرضاً بهدف التجريح.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير كان شديد التحامل على صلاح الدين في آرائه وكتاباته، وقد اتهم فيما كتبه عن صلاح الدين، فقد كان يتلمس المناسبات أحيانا لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين محمود، وكلها كتابات قد كتبت بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي (١).

كما أخذ عليه أنه لم يكن منصفا في نظرته إلى بعض الشخصيات المعاصرة له، فقد بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في الإشادة بهم وإضفاء هالة براقة على أعمالهم وذلك اعترافًا منه بفضلهم عليه وعلي بيته وأسرته، وربما دفعه الولاء إلى التغاضي عن بعض أخطائهم وعيوبهم مكتفيا بذكر محاسنهم ومآثرهم.

ومن المآخذ التي تؤخذ على ابن الأثير تعاطفه مع الشيعة فيظهر

(١) وقد استقصينا - بفضل الله - كل هذه المواقف في كتابنا تاريخ الدولة الأيوبية، فليراجع.

للمتأمل في كتابه الكامل تعاطفه مع الشيعة، أو من لهم ميول (علوية) على الأقل، فتراه كثيراً يترجم للشيعة وخاصة (الإمامية) وربما ذكر بعض معتقداتهم الفاسدة ولا يعلق عليها، وفي أحداث الفتنة الواقعة بين الصحابة يلحظ القارئ لكتابات ابن الأثير تغليب الروايات التي تصف خصوم (على) - رضي الله عنه - بصفات يبعد قبولها، بل يبعد أن يقول بها على نفسه،وسار على هذا المنهاج في تناوله للشيعة والعلويين على مدار كتابه الكامل، فهو يظهر لهم ميلا وتعاطفا غير مبرر.

ومن خلال قراءة أحداث القرنين الرابع والخامس في (الكامل) يتبين لنا أن ابن الأثير متعاطف مع هذه الدول الشيعية وغير السنية بشكل عام، فهو يمدح ملوكهم ويبرز محاسنهم ولا يذكر عيوبهم، ويؤكد في كل مرة يترجم لأحدهم بقوله: (الخليفة العلوي)، كأنه يريد أن يرسخ هذا في ذهن القارئ، ثم تبين لنا أنه يغرق في مدح بعض ملوك الدولة البويهية وأمراء الدولة الأسدية والحمدانية، وهذه الدول والإمارات كلها غير سنية.

وهذا ليس اتهام لابن الأثير - عليه رحمة الله - بالتشيع وحاشاه عن ذلك ونحن لا نملك عليه دليلاً، بل نجد في ترجمته ثناء العلماء والحفاظ من مشاهير أهل السنة؛ بقدر ماهي وقفة أو قراءة متفحصة نقدية في كتابه (الكامل في التاريخ) أظهرت شيئا من الميل للشيعة، وربما كان ميل ابن الأثير للشيعة وتعاطفه معهم ناتج عن الجهل بعقائد الشيعة، وربما هي لظروف العصر وملابسات البيئة التي عاش فيها ابن الأثير؟ وهي بيئة كان للشيعة فيها وجود ليس على مستوى الأفراد فحسب وإنما على مستوى الولاة والحكام. ومن أمثلة ذلك: الملك الرحيم (ت ٦٥٧) الذي ملك (الموصل) نحواً من خمسين سنة وهو الذي أزال الدولة الأتابكية (وهم أسياده قبل)،ومن الممكن أن يكون ابن الأثير قد تأثر به سياسيًّا واقتصاديًّا فمال نحو الشيعة

عن طري التأثر والإعجاب فقد كان هذا الملك يبعث في كل سنة إلى مشهد على قنديلاً ذهبياً زنته ألف دينار، وهذا - كما قال الحافظ ابن كثير - دليل على تشيعه، بل على قلة عقله [(١)]. وربما أن ابن الأثير قد تأثر بأراء ابن طيئ المؤرخ الشيعي الذي كثيرا ما أساء للعلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود مصورا إياها بالوحشة والخلاف، وحاول كثيرا تلطيخ العلاقة بين كلا الرجلين السنيين بأكاذيبه الملفقة، حتى اتهمه المؤرخ أبو شامة بالدس والكذب والطعن في العلاقة بين كلا الرجلين.

وهذا لا يقلل من قدر الكتاب وقيمته بقدر ما تلفت النظر إلى ملاحظة يحسن التنبه لها.

ومن سمات عمله تخيره للمصادر الموثوقة التي استمد منها الأخبار وتصويبه بعض ما ورد فيها، وتعليقاته التي تعكس حرصه على الدقة والصحة التاريخية، غير أن ابن الأثير لم يستطع أن يتحرر من مشاعره الإنسانية في كثير من المواقف فكان يبرز فرحه لانتصارات قومه في مواجهة التتر والصليبيين ويبدي رضاه أو استنكاره في تقويم للأشخاص والأحداث بأسلوب لاذع مفصحاً عن أحاسيسه الذاتية.

٢ - اللباب في تهذيب الأنساب: وهو كتاب اعتمد في تأليفه على كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي، فهذبه واختصر تراجمه المطولة وصحح معلوماته، وربط البطون بالقبائل التي ينتسب إليها أصحاب الأنساب معتمداً على مصادر أخرى منها: كتب ابن خياط والقاسم بن سلام، وابن ماكولا، والدار قطني.

٣ - أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة: وموضوع هذا الكتاب هو الترجمة لصحابة الرسول ﷺ الذين حملوا مشعل الدعوة، وساحوا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٠٣.

في البلاد، وفتحوا بسلوكهم الدول والممالك قبل أن يفتحوها بالطعن والضرب وقد اشتمل الكتاب على ترجمة (٧٥٥٤) صحابيا وصحابية تقريبا، يتصدره توطئه لتحديد مفهوم الصحابي؛ حتى يكون القارئ على بينه من أمره. والتزم في إيراد أصحابه الترتيب الألف بائي، ويبتدئ ترجمته للصحابي بذكر المصادر التي اعتمد عليها، ثم يشرع في ذكر اسمه ونسبه وهجرته إن كان من المهاجرين، والمشاهد التي شهدها مع الرسول ﷺ إن وجدت، ويذكر تاريخ وفاته وموضعها إن كان ذلك معلوما، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة.

وقد عرّف ابن الأثير الصحابي بقوله: " إن الصحابي هو الذي أقام مع رسول الله (سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين "، واعتمد فيه على المصادر التي سبقته، فصوّب بعض الأسماء والأماكن، وحذف بعض الأحاديث، وعلّق على بعضها، وأضاف معلومات لم ترد في كتب تراجم الصحابة الأساسية السابقة ككتاب: " معرفة الصحابة "، لابن مندة وكتاب معرفة الصحابة: لأبي نعيم الأصفهاني وكتاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين لأبي على الغساني. وقد رتب التراجم فيه على حروف الهجاء وضبط الأسماء المتشابهة وشرح بعض الألفاظ الصعبة في الأحاديث.

٤ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: وهي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل وعاش ابن الأثير وأسرته في ظلها فهو تاريخ للأسرة الزنكية والدولة التي أسستها فصل فيه أخبار هذه الدولة تفصيلاً تجاوز ما ورد عنها في كتابه الكامل، ودفعه إلى تأليفه وفاؤه للأسرة الزنكية التي برّت أسرته ولا سيما نور الدين أرسلان شاه، وقد ألف الكتاب بمناسبة وفاته لتوطيد صلته ببدر الدين لؤلؤ

الـذي خلفـه سـنة ٦٠٧. وقـد خـرج فـي بعـض حوادثـه عـن الحيـاد التـاريخي فبـدا ممالئـاً للأسـرة الزنكيـة متسـتراً علـى بعـض عيـوب أعلامها، وقد اعتمد على والده في جمع بعض أخباره.

هذه لمحـة موجزة عن حيـاة هذا العـالم الكبيـر الـذي خدم الثقافة العربية ودفع بكتابه التاريخ العربي الإسلامي خطوة إلى الإمام.

* * *

الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -

حظي " ابن الجوزي " بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وبلغت مؤلفاته أوج الشهرة والذيوع في عصره، وفي العصور التالية له، ونسج على منوالها العديد من المصنفين على مر العصور.

فهو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد بن علي ابن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمّد بن عبد الله بن القاسم ابن محمّد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه القرشي التميمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الحافظ المفسر الواعظ المؤرخ الأديب المعروف بابن الجوزي رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته. وقد عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى " فرضة الجوز " وهي مرفأ نهر البصرة.

مولده:

ولد العلامة ابن الجوزي " بدرب حبيب " الواقعة في بغداد، واختلف في تأريخ ودلاته:

قيل: سنة: ٥٠٨، وقيل: سنة: ٥٠٩، وقيل: سنة: ٥١٠ هجرية. والأرجح أنه ولد بعد العشرة كما يظهر ذلك في بعض مؤلَّفاته في الوعظ، حيث يقول: إنه بدأ التصنيف سنة: ٥٢٨هـ، وله من العمر ١٧ سنة. ولما قيل عنه أيضًا في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار " أنه كان

يقول: " لا أتحقق مولدي غير أنه مات والدي في سنة: ٥١٤هـ، وقالت الوالدة كان لك من العمر ثلاث سنين ". وعلى هذا تكون ولادته سنة: ٥١١هـ، ١١١٧م. وكان أهله تجارًا في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: عبد الرحمن بن على الجوزي الصفار.

نشأته:

توفي والده على بن محمّد وله من العمر ثلاث سنين، ولكن ذلك لم يؤثّر في نشأته نشأة صالحة، حيث أبدله الله عمته مربية مخلصة تعطيه كلّ عطفها وعنايتها وتسهر على خدمته وتعليمه، فهي حملته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر، فتلقى منه الرعاية التامة والتربية الحسنة حتى أسمعه الحديث.

وعلى الرغم من فراق والده في طفولته فقد ساعده في توجهه إلى طلب العلم وتفرغه لذلك ثروة أبيه الموسر، فقد ترك من الأموال الشيء الكثير، ولهذا نراه - رحمه الله - يكثر الكلام عن نفسه في أكثر من كتاب، فيبين أنه نشأ في النعيم، ويقول في صيد الخاطر:

" فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى أثر معي مرضًا قطعني عن كثير من التعبد، حتى إني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت يومًا ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات، إن تناوله لطاعة عظيمة، وإن مطعمًا يؤذي البدن فيفوّته فعل خير ينبغي أن يهجر، فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه "(١).

فلما بلغ ابن الجوزي رشده شعر بنفسه وبال الترف في طلب العلم، فقنع باليسير واستسهل الصعاب متحملاً كلّ الشدائد والمحن فهمته في

(١) انظر: صيد الخاطر في فصل الرفق بالبدن ص: ٤٤٦.

طلب العلم أنسته كل الترف فانكب على طلب العلم - وهو ألذ من كلّ لذيذ - فيقول عن نفسه: " ولقد كنت في مرحلة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم " (١).

قد عاش ابن الجوزي منذ طفولته ورعًا تقيًّا زاهدًا، لا يحب مخالطة الناس خوفًا من ضياع الوقت، ووقوع الهفوات، فصان بذلك نفسه وروحه ووقته: يقول الإمام ابن كثير عند ترجمته له: " وكان - وهو صبي - ديّنًا منجمعاً على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلاّ للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان " (٢).

حبه للعزلة:

وكان يحب العزلة تقديرًا لقيمة الوقت وابتعادًا عن الوقوع في اللهو. يقول في صيد الخاطر: " فليس في الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة، لا عن تكلف ولا تضييع دين، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف القناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير بهذا الاستعفاف يسلم دينه ودنياه، واشتغاله بالعلم يدلّه على الفضائل ويفرجه عن البساتين، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتحبط " (٣).

(١) انظر: صيد الخاطر (١٥٣).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ /٥٩٧.
(٣) صيد الخاطر، ص ٣٧٣).

ردّه على المتزهدين والمتصوفين:

في موضع آخر من صيد الخاطر عين فصولاً للرد على العزلة العمياء والمتزهدين فيقول: " فكم فوتت العزلة علمًا يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بليته هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب " (١).

ويقول في ذم المتزهدين والصوفية العمياء: " وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي: كان من السلف من يزن قوته بكربة فينقص كل يوم. وهذا شيء ما عرفه رسول الله ﷺ، ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع. وما كانت سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم.

فقد كان ﷺ يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يأكل اللحم ويحب الحلوى ويستعذب الماء وعلى هذا كانت طريقة أصحابه، فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة، وكلها على غير الجادة " (٢).

مكانته وثناء العلماء عليه:

لقد أعجب بشخصيته وجهده الجبار علماء أجلاء من بعده فمدحوه وأثنوا عليه. يقول ابن خلكان: " إنه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وفي صناعة الوعظ صنف في فنون كثير " فعد بعض مؤلّفاته، ثم قال: " وبالجملة فكتبه تكاد لا تعد، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا: إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خصّ كل يوم تسع كراريس " (٣).

---

(١) صيد الخاطر، ص١٣٢.

(٢) صيد الخاطر، ص٤٧١ - ٤٧٢. انظر أيضاً في فصل (حماقة الصوفية في كراهية الدنيا، ص ٢٥ - ٣٥، في صيد الخاطر.

(٣) انظر: وفيات الأعيان ٣٢١/٢ رقم: ٣٤٣.

وكان ابن الجوزي كثير الاطلاع، ومشغوفًا بالقراءة فقد حكى عن نفسه أنه طالع عشرين ألف مجلد أو أكثر، وهو ما يزال طالبًا (١).

يقول في صيد الخاطر: " سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلوّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي به المقتدي ولا صحاب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم " (٢).

فقد استطاع بهذا الاطلاع الواسع أن يتفوق على كثير من معاصريه في المشاركة في عديد من العلوم والفنون، فألف في التفسير والحديث والطب والوعظ وغيرها الشيء الكثير، ويبدو أن ابن الجوزي كان ماهرًا في التفسير، وفي التأريخ والوعظ، ومتوسطًا في الفقه، وأما بالنسبة إلى متون الحديث فهو واسع الاطلاع فيها لكنه غير مصيب في الحكم على الصحيح والسقيم.

يقول الذهبي عند ترجمة ابن الجوزي: " كان مبرزًا في التفسير والوعظ والتأريخ، ومتوسطًا في المذهب، وله في الحديث اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له ذوق المحدثين، ولا نقد الحفاظ المبرزين " [٣].

وقال الذهبي في التأريخ الكبير: " لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه " (٤).

---

(١) صيد الخاطر، ص٤٤١.
(٢) صيد الخاطر، ص٤٤١.
(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ رقم الترجمة: (١٠٦٧).
(٤) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٤٧٨.

مدرسة ابن الجوزي:

كان له دور كبير ومشاركة فعالة في الخدمات الاجتماعية، وقد بنى مدرسة بدرب دينار وأسس فيها مكتبة كبيرة ووقف عليها كتبه وكان يدرس أيضًا بعده مدارس بغداد.

قال الحافظ ابن الدبيثي عن ابن الجوزي: " كان من أحسن الناس كلامًا، وأتمهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم دينًا، وبورك في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة وحدث بمصنفاته مرارًا ".

منزلة في الوعظ:

لم يكن جهاده محصورًا في القلم والتأليف إنما كان له شأن عظيم وشهرة كبيرة في الوعظ والخطب والدعوة والإرشاد بين الخواص والعوام.

يقول ابن كثير رحمه الله: " تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه في المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك بحيث يجمع المعاني الكثير في الكلمة اليسيرة " (١).

شجاعته في إظهار الحقّ:

كان لا يخاف في الله لومة اللائم، وكان يحضر في وعظة الرؤساء والخلفاء، وقد التفت مرة إلى ناحية الخليفة المستضيء العبّاسي، وهو يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت، خفت منك وإن سكتّ خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله: لكم أنتم أهل البيت مغفور لكم... وأضاف قائلاً: لقد كان عمر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣، / ٥٩٧.

بن الخطاب يقول: إذا بلغني من عامل ظلم فلم أغيره فأنا الظالم(١).

وهكذا دافع ابن الجوزي عن الحقّ بدون خوف لومة لائم وحارب البدع والمنكرات والتعصب في المذاهب والتقليد الأعمى، وقد كان يعترف بنجاحه في هذا المجال فيقول: " وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعانني الله عزوجل عليهم وكانت كلمتنا هي العليا " (٢).

محنته في سبيل الحقّ:

وقد امتحن ابن الجوزي رحمه الله، في آخر عمره، وذلك أن الوزير ابن يونس الحنبلي كان في ولايته قد عقد مجلسًا للركن عبد السلام بن عبد الوهّاب بن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه. وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جدّه وسلمها إلى ابن الجوزي.

فلما ولى الوزارة ابن القصاب - وكان رافضيًّا خبيثًا - سعى في القبض على ابن يونس وتتبع أصحابه، فقال الركن: أين أنت عن ابن الجوزي، فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر، فهو أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبه في مشورته؟ فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر - وكان الناصر له ميل إلى الشيعة - وكان يقصد إيذاء ابن الجوزي فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله، ثم أخذه في سفينة إلى واسط فحبس بها في بيت وبقي يغسل ثوبه ويطبخ، ودام على ذلك خمس سنين وما دخل فيها حمامًا(٣).

فالمحنة بشتى أنواعها والصبر عليها والاستمرار على الوقوف

(١) الذيل لابن رجب ٤٠٩/١، وتذكرة الحفاظ للذهبي، رقم الترجمة: (١٠٩٧).
(٢) الذيل لابن رجب ٤٠٣/١.
(٣) الذيل لابن رجب ٤٢٥/١ - ٤٢٦، وتذكرة الحفاظ، رقم الترجمة: (١٠٩٨).

في وجه الباطل والظلم والطاغوت من دأب العلماء العاملين والمجاهدين المخلصين. وقد رسم لنا العلامة ابن الجوزي من خلال حياته سلسة متصلة من الكفاح والجهل الطويل والربط بين العلم والعمل ربطًا وثيقًا.

وقد عقد فصلاً مستقلاً في كتابه صيد الخاطر تحت عنوان: (العلماء العاملون) فمدح فيه من يستحق المدح من أقرانه، وذمّ من يستحق ذلك ثم قال: " فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلسًا مع قوّة الحجة عليه " (١).

شعره:

كان " ابن الجوزي " شاعرًا مجيدًا إلى جانب كونه أديبًا بارعًا وخطيبًا مفوهًا، وله أشعار حسنة كثيرة، منها قوله في الفخر:

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا ::: وأكابد النهج العسير الأطولا
تجري بي الآمال في حلباته ::: جري السعيد إلى مدى ما أمّلا
لو كان هذا العلم شخصًا ناطقًا ::: وسألته: هل زار مثلي؟ قال: لا

ومنها قوله في الزهد والقناعة:

إذا قنعت بميسور من القوت ::: بقيت في الناس حرًّا غير ممقوت
يا قوت يومي إذا ما در خلفك لي ::: فلست آسي على در وياقوت

وأوصى أن يُكتب على قبره:

يا كثير العفو عمن ::: كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو ::: الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء ::: الضيف إحسان إليه

ما أخذ عليه: رغم وصوله إلى قمة العلم والمعرفة فقد أخذ العلماء عليه مآخذ هامة:

(١) صيد الخاطر ص: ١٤٣ - ١٤٤.

أوّلاً: كان يميل إلى التأويل في بعض كلامه. يقول ابن رجب في الذيل: " اشتد إنكار العلماء عليه في ذلك، وكان مضطربًا في قضية التأويل رغم سعة اطلاعه على الأحاديث في هذا الباب فلم يكن خبيرًا بحل شبه المتكلمين، ويقول: كان أبو الفرج تابعًا لشيخه أبي الوفاء بن عقيل في ذلك، وكان ابن عقيل بارعًا في علم الكلام، ولكنه قليل الخبرة في الأحاديث والآثار لذا نراه مضطربًا في هذا الباب"[١].

نعم، قد نجد ما يثبت ميله إلى التأويل من ثنايا كتبه حيث ألّف كتابًا مستقلاً يناقش هذا الموضوع باسم (دفع شبه التشبيه) وهو مطبوع أورد فيه بعض آيات قرآنية، وستين حديثًا ورد فيها الكلام عن ذات الله وصفاته ﷺ، كالوجه، واليد، والنفس، والساق، والاستواء، فيؤوّلها بما يحتمل التأويل بخلاف ما ذهب إليه السلف من إمرارها كما وردت بدون تأويل ولا تشبيه، ولا تعطيل[٢].

ونجد أيضًا في صيد الخاطر، ينقد نهج السلف فيقول: "... ولا أقوامًا قصرت علومهم فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعليل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا "[٣].

وقد قام بالردّ على ما كتبه ابن الجوزي مائلاً إلى التأويل عالم معاصر له، وهو الشيخ إسحاق بن أحمد بن غانم العلثي[٤] حيث كتب رسالة يردّ فيها على ابن الجوزي ردًّا عنيفًا طالبًا فيها العودة إلى

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٤١٤/١، أما ابن عقيل فليس هو شيخه المباشر إنما كان يتبعه بوساطة مؤلفاته، وكانت ولادة ابن الجوزي قبل وفاة ابن عقيل بسنة، وسوف تأتي ترجمته عند أول ذكر له في الكتاب إن شاء الله.

(٢) طبع هذا الكتاب بمصر، ولم يؤرخ، بتحقيق محمد زاهد الكوثري وهو في (٩٦) صفحة.

(٣) انظر: كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة ص: ١٤، للشيخ عدي بن مسافر الأموي الشامي المتوفى سنة: ٥٥٧هـ.

(٤) صيد الخاطر، ص ٨٣ - ٨٤.

الحقّ وإلى العقيدة السلفية وعلى ما كان عليه إمامه أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث يقول فيها: " وإذا تأولت الصفات على اللغة وسوغته لنفسك وأبيت النصيحة، فليس هو مذهب الإمام الكبير أحمد بن حنبل قدس الله روحه، فلا يمكنك الانتساب بهذا، فاختر لنفسك مذهبًا حتى قال: فلقد استراح من خاف مقام ربّه، وأحجم عن الخوض فيما لا يعلم، لئلا يندم. فانتبه قبل الممات، وحسن القول العمل، فقد قرب الأجل لله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ".

ثانيًا: كثرة أغلاطه في تصانيفه، وعذره في هذا واضح وهو أنه كان مكثرًا من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره، بل يشتغل بغيره وربما كتب في الوقت الواحد تصانيف عديدة ولولا ذلك لم تجتمع له هذه المصنفات الكثيرة.

ثالثًا: ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه والترفع والتعاظم، وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، والله يسامحه) كقوله في صيد الخاطر: "... ونظرت إلى علوّ همتي فرأيتها عجبًا " ويقول في موضع آخر: " خلقت لي همة عالية تطلب الغايات " وأمثال ذلك كثيرة.

والحقيقة في علم ابن الجوزي، فلا يخفى كثرة مآثره ومؤلفاته. ولكن من كان لديه بالعلم والتحقيق العلمي دراية، يعلم أن ابن الجوزي لم يكن من أئمة الفقه ولا الحديث، وإن ألف فيهما ما ألّف. وإنما حصل له ذلك بكثرة اطلاعه وبحثه. قال السيوطي في طبقات الحفاظ (١\٤٨٠): قال الذهبي في التاريخ الكبير: " لا يُوصَفُ ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه ". ورغم كثرة تآليفه في شتى العلوم، فقد ضَعُفَ من ناحية التحقيق في أكثر العلوم التي ألّف فيها، ولا سيما في الحديث. فتجد كلامه مخالفاً كثيراً لكلام حُفّاظِ الحديث. فالمفترض أن تكون كتبه

مراجع يستعملها طالب العلم المتمكن الذي يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، فلا تُنشر على العامة وصغار المتفقّهة.

قال الإمام موفق الدين عن ابن الجوزي: " كان حافظاً للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها ". وقال عنه الموفق عبد اللطيف: " وكان كثير الغلط فيما يصنفه. فإنه كان يخلو من الكتاب ولا يعتبره ". ذكر ذلك الحافظ ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث (١٢٢\٤).

فقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٧٨\٢١): " هكذا هو: له أوهامٌ وألوانٌ من ترْك المراجعة، وأخذ العِلم من صُحُف ".

قال الحافظ سيف الدين بن المجد: " هو كثير الوهم جداً، فإن في مشيخته - مع صِغرها - أوهاماً ".

وقيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزي؟ قال: " إنما يُتتبع على من قل غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة ".

قال السيف: " ما رأيت أحداً يُعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله، راضياً عنه ". وقد عابه الكثير من أهل السنة فأصر على بدعته. وعاتبه أبو الفتح بن المني في أشياء. وقال ابن حجر لسان الميزان (٨٣/٢) بترجمة ثمامة بن الأشرس البصري بعد قصة: " دلّت هذه القصة على أن ابن الجوزي حاطب ليلٍ لا ينتقد ما يحدّث به ". قلت: فمثل هذا الرجل لا يوثق بنقله ولا بكلامه.

ولعل ما قدم للأمة من القدوة الصالحة والخدمة الخالصة التي لا مثيل لها، تغطي مساوئه، وترفع درجاته. لأن الحسنات يذهبن السيئات. والله واسع المغفرة والكرم وهو عليم بذات الصدور.

وفاته:

بعد أن عاش رحمه الله داعيًا مرشدًا كاتبًا بارعًا زاهدًا مخلصًا، قرابة تسعين عامًا، انتقل إلى جوار ربّه ببغداد. وكانت وفاته ليلة الجمعة (١٢ رمضان ٥٩٧هـ) بين العشائين، فغسل وقت السحر،

واجتمع أهل بغداد وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيرًا جدًّا، وما وصل إلى حفرته إلا وقت صلاة الجمعة، والمؤذن يقول: " الله أكبر "، ودفن بباب حرب، بالقرب من مدفن الإمام أحمد بن حنبل وكان ينشد حال احتضاره يخاطب ربّه:

يا كثير العفو عمن ::: كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو ::: الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء ::: الضيف إحسان إليه

فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته ونفعنا بعلومه آمين.

شيوخه:

وقد ألّف في مشيخته كتابًا خاصًّا، ذكر فيه حوالي تسعة وثمانين شيخًا ونرى فيه حسن اختياره للمشايخ حيث تتلمذ على طائفة من خيرة أعلام عصره، ويذكر اهتمامه في اختيار أبرع وأفهم المشايخ في بداية كتابه المذكور، حيث قال: " حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصغر وأسمعني العوالي، وأثبت سماعاتي كلّها بخطّه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب كنت ألازم من الشيوخ أعلمهم وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد المدد لا تكثير العدد ".

فمن مشايخه:

١ - أبو بكر محمّد بن عبد الباقي بن محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت، وتنتهي نسبته إلى كعب بن مالك الأنصاري أحد الثلاثة الذين خلفوا. يقول المؤلِّف: قرأ عليه، وكان ثقة فهمًا حجّة متفننًا في علوم كثيرة، منفردًا في علم الفرائض، وقع في أيدي الروم أسيرًا فأجبروه على أن ينطق كلمة الكفر فلم يفعل. توفي رحمه الله سنة: (٥٣٥هـ).

٢ - أبو بكر محمّد بن الحسن بن علي بن إبراهيم المعروف بالمزرعي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه وكان ثقة ثبتًا، عالمًا،

حسن العقيدة، وسمع الحديث الكثير من ابن المهتدي، والصيريفيني وغيرهما. توفي رحمه الله سنة: (٥٢٧هـ).

٣ - أبو الحسن على بن عبد الواحد الدينوري، يقول المؤلِّف: إنه سمع منه الفقه والحديث، والجدل، والخلاف، والأصول، وهو من أقدم شيوخه وكان يسكن باب البصرة من غربي بغداد. وتوفي في جمادى الآخرة سنة: (٥٢١هـ).

٤ - أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة شيخه الأوّل أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان عبد الملك صالحًا صدوقًا، سمع جماعة كثيرة وخرج إلى مكة فجاورها. وتوفي في ذي الحجّة بعد رحيل الحجّ بثلاثة أيام سنة: (٥٤٨هـ).

٥ - أبو سعد أحمد بن محمّد بن الحسن بن على البغدادي، يقول ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان خيراً ثقة وأملى بمكة والمدينة وكان على طريقة السلف صحيح العقيدة حلو الشمائل مطرح التكلف. ولد بأصبهان ونشأ بها وتوفي بنهاوند سنة: (٥٤٠هـ).

تلاميذه:

كما اختار ابن الجوزي ثلة من خيرة أساطين علماء عصره، كذلك اختاره هو شيخًا، وأخذ العلم والحكمة على يده نخبة من الأفذاذ فورثوا بعده مقتدين بخطواته في التأليف والنصح والإخلاص، فمنهم:

١ - الحافظ عبد الغني عبد الواحد بن على بن سرور. ولد في أرض نابلس سنة: (٥٤١هـ) سمع الحديث والعلوم من دمشق والموصل وهمدان، والإسكندرية، وكان حافظًا تقيًّا ورعًا، وسمع من ابن الجوزي ببغداد، وألّف كتبًا عديدة، قال يوسف بن خليل: كان ثقة ثبتًا ديّنًا مأمونًا حسن التصنيف دائم الصيام. توفي بمصر سنة: (٦٠٠هـ).

٢ - يوسف بن فرغلي بن عبد الله، أبو المظفر الواعظ، سبط الإمام ابن الجوزي، روى عن جدّه ببغداد، وسمع أبا الفرج بن كليب وغيره، وسمع بالموصل ودمشق، وحدّث بها وبمصر وأعطى القبول، وصنف الكتب العديدة منها: كتاب مرآة الزمان في التأريخ، وشرح الجامع الكبير، واللوامع في أحاديث المختصر، وغيرها. أخذ العلم من ابن الجوزي في بغداد. وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي الحجّة سنة: (٦٥٤هـ).

٣ - أحمد بن عبد الدائم بن نعمة الكاتب المحدّث. ولد سنة: (٥٧٥هـ) في نابلس، ودخل بغداد، وسمع بها ابن الجوزي وغيره، وسمع بدمشق وحران، وكان حسن الخلق والخلق، ديّنًا متواضعًا، وحدّث بالكثير بضعًا وخمسين سنة، وكتب ما لا يوصف كثرة من الكتب الكبار، متأثرًا بشيخه ابن الجوزي حتى صار هو شيخًا للأئمة الكبار، والحفاظ والمحدّثين، والفقهاء كالشيخ محي الدين النووي، وشيخ شمس الدين بن عمر، وشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وأمثالهم، رحمهم الله جميعًا. توفي أحمد بن عبد الدائم سنة: (٦٦٨هـ).

مؤلَّفاته:

لقد فارقنا جسمًا وروحًا ولكن ذكراه وثمرات جهده الجبار المرسومة على صفحات التاريخ لم تزل ولا تزال تحيي حياة طيبة، كما قال الشاعر:

الجاهلون فماتوا قبل موهم ::: والعاملون وإن ماتوا فأحياء

وقد أورد المؤرخون من بعده بكل غرابة وإعجاب مؤلّفاته الضخمة في كتبهم فيقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في (أجوبته المصرية): " كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره ".

ويقول الحافظ الذهبي: " ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل ".

ويصفه صاحب البداية والنهاية بأنه: " أحد أفراد العلماء برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، ومجموع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف وكتب بيده نحوًا من مائتي مجلد. وله في العلوم كلّها اليد الطولى، والمشاركات في جميع أنواعها؛ من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه. وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كلّه ما يضيق هذا المكان عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها: كتابه في التفسير المشهور بـ (زاد المسير) وله تفسير أبسط منه - أي أوسع - لكنه ليس بمشهور. وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب (المنتظم في تاريخ الأمم من العرب والعجم) في عشرين مجلدًا، (ويقول ابن كثير): ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخًا:

ما زلت تدأب في التاريخ مجتهـدًا ::: حتى رأيتك في التـاريخ مكتوبًـا

وقد أورد ابن رجب عن القطيعي في تأريخه، ثبت التصانيف التي كتبها ابن الجوزي بخطّه فذكر فيه حوالي ١٩٩ كتابًا. منها:

ثبت تصانيفه المتعلقة بالقرآن وعلومه:

كتاب المغنى في التفسير واحد وثمانون جزءًا.

كتاب زاد المسير في علم التفسير أربع مجلدات.

كتاب تيسير البيان في تفسير القرآن مجلد واحد.

كتاب تذكرة الأريب في تفسير الغريب مجلد واحد.

كتاب غريب الغريب جزء واحد.

كتاب نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر مجلد واحد.

كتاب الوجوه النواضر في الوجه والنظائر في مجلد واحد قال

ابن الجوزى إنه اختصره من الكتاب السابق.

كتاب الإشارة إلى القراءة المختارة أربعة أجزاء.

كتاب تذكرة المنتبه في عيون المشتبه جزء واحد.

كتاب فنون الأفنان في عيون علوم القرآن مجلد واحد.

كتاب ورد الأغصان في فنون الأفنان جزء واحد.

كتاب عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ في خمسة أجزاء.

كتاب المصفى بأكف أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ جزء واحد.

ثبت تصانيفه في أصول الدين:

كتاب منتقد المعتقد جزء واحد.

كتاب منهاج الوصول إلى علوم الأصول خمسة أجزاء.

كتاب بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد جزء واحد.

كتاب غوامض الإلهيات جزء واحد.

كتاب مسلك العقل جزء واحد كتاب منهاج أهل الإصابة.

كتاب السر المصون مجلد واحد.

كتاب دفع شبه التشبيه أربعة أجزاء.

كتاب الرد على المتعصب العنيد في منع ذم يزيد (والمتعصب العنيد عند ابن الجوزي هو عبد المغيث الحربي الحنبلي الذي له مؤلف في منع لعن وذم يزيد بن أبي معاوية بن أبي سفيان الأموي).

ثبت تصانيفه في علم الحديث والزهديات:

كتاب جامع المسانيد والألقاب بالخص الأسانيد وهو كتاب كبير رتبه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بالمحب الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ.

كتاب الحدائق أربعة وثلاثون جزءًا.

كتاب نفي النقل في خمسة أجزاء.

كتاب المجتبى في مجلد واحد.

كتاب النزهة جزآن.

كتاب عيون الحكايات مجلد واحد.

ملتقط الحكايات ثلاثة عشر جزءًا.

كتاب إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين مجلد واحد.

كتاب روضة الناقل جزء واحد.

كتاب غرر الأثر ثلاثون جزءًا.

كتاب التحقيق في أحاديث التعليق مجلدان.

كتاب المديح سبعة أجزاء.

كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات مجلدان.

كتاب العلل المتناهية في الأحاديث الواهية مجلدان.

كتاب الضعفاء والمتروكين مجلد واحد.

كتاب الكشف لمشكل الصحيحين أربع مجلدات.

كتاب إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه مجلد واحد.

كتاب أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث جزء واحد.

كتاب السهم المصيب جزآن.

كتاب أخاير الذخائر ثلاثة أجزاء.

تاب الفوائد عن الشيوخ ستون جزءًا.

كتاب مناقب أصحاب الحديث مجلد واحد.

كتاب موت الخضر مجلد واحد.

كتاب مختصر موت الخضر جزء واحد.

كتاب المشيخة جزء واحد.

كتاب المسلسلات جزء واحد.

كتاب المحتسب في النسب مجلد واحد.

كتاب تحفة الطلاب ثلاثة أجزاء.

كتاب تنوير مدلهم الشرف جزء واحد.

كتاب الألقاب جزء واحد.

ويضيف ابن القطيعي المؤرخ المشهور ما يلي على مؤلفات ابن الجوزي.

كتاب فضائل عمر بن الخطاب مجلد واحد.

كتاب فضائل عمر بن العزيز (مجلد واحد).

كتاب فضائل سعيد بن المسيب (مجلد واحد)..

كتاب فضائل الحسن البصري مجلد واحد.

كتاب مناقب الفضيل بن عياض أربعة أجزاء.

كتاب مناقب بشر الحافي سبعة أجزاء.

كتاب مناقب إبراهيم بن أدهم ستة أجزاء.

كتاب مناقب سفيان الثوري مجلد واحد.

كتاب مناقب أحمد بن حنبل مجلد واحد.

كتاب مناقب معروف الكرخي جزآن.

كتاب مناقب رابعة العدوية جزء واحد.

كتاب مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن مجلد واحد.

كتاب صفة الصفوة خمس مجلدات.

كتاب منهاج القاصدين أربع مجلدات.

كتاب المختار من أخبار الأخيار مجلد واحد كتاب القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحلاج (جزء واحد)..

كتاب عجالة المنتظر لشرح حال الخضر جزء واحد.

كتاب النساء وما يتعلق بآدابهن مجلد واحد.

كتاب علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أم الرسول جزء واحد (في هذا الجزء حاول نفي ذلك وقد حاول عبد المغيث الحربي بن زهير ابن علوي المحدث الزاهد أبو العز بن أبي حرب أن يثبت ذلك في كتاب له بعنوان في إثبات صلاة النبي ﷺ خلف أبي بكر).

كتاب الجوهر.

كتاب المغلق.

ثبت تصانيفه في التواريخ وما يتعلق بها:

كتاب تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير عبارة عن مجلد واحد.

كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم عشر مجلدات.

كتاب شذور العقود في تاريخ المعهود مجلد واحد.

كتاب طراف الطرائف في تاريخ السوالف جزء واحد.

كتاب مناقب بغداد مجلد واحد.

ثبت مصنفاته في الفقه:

كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف.

كتاب جنة النظر وجنة المنتظر وهي التعليقة الوسطى.

كتاب مقتصر المختصر في مسائل النظر وهي دون تلك.

كتاب عمد الدلائل في مشتهر المسائل وهي التعليقة الصغرى.

كتاب المذهب في المذهب.

كتاب مسبوك الذهب في المذهب مجلد واحد في الفروع.

كتاب النبذة جزء واحد.

كتاب العبادات الخمس جزء واحد.

كتاب أسباب الهداية لأرباب البداية مجلد واحد.

كتاب أسباب كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى.

كتاب رد اللوم والضيم في صوم يوم الغيم جزء واحد.

مصنفاته في الوعظ:

قال ابن القادسي له أكثر من مائة مجلدة نذكر منها:

كتاب اليواقيت في الخطب مجلد واحد.

كتاب المنتخب في الثوب مجلد واحد.

كتاب منتخب المنتخب مجلد واحد.

كتاب نسيم الرياض مجلد واحد.

كتاب اللؤلؤ مجلد واحد.

كتاب المذكر مجلد واحد.

كتاب الأزج مجلد واحد.

كتاب اللطائف مجلد واحد.

كتاب كنوز الرموز مجلد واحد.

كتاب المقتبس مجلد واحد.

كتاب زين القصص مجلد واحد.

كتاب موافق المرافق مجلد واحد.

كتاب شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب واسطات العقود من شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب اللهب جزآن.

كتاب المدهش مجلدان.

كتاب صبا نجد جزء واحد.

كتاب محادثة العقل جزء واحد.

كتاب لقط الجمان جزء واحد.

كتاب معاني المعاني جزء واحد.

كتاب فتوح الفتوح مجلد واحد.

كتاب التعازي الملوكية جزء واحد.

كتاب العقد المقيم جزء واحد.

كتاب إيقاظ الوسنان من الرقدات بأحوال الحيوان والنبات جزءان.

كتاب نكت المجالس البدرية جزآن.

كتاب نزهة الأديب جزآن.

كتاب منتهى المنتهى مجلد.

كتاب تبصرة المبتدىء عشرون جزءًا.

كتاب الياقوتة جزآن.

كتاب تحفة الوعاظ مجلد.

تصانيفه في فنون ذم الهوى:

كتاب ذم الهوي مجلدان.

كتاب صيد الخاطر خمسة وستون جزءا.

كتاب أحكام الإشعار بأحكام الأشعار عشرون جزءًا.

كتاب القصاص والمذكرين.

كتاب تقويم اللسان مجلد واحد.

كتاب الأذكياء مجلد واحد.

كتاب الحمقى مجلد واحد.

كتاب تلبيس إبليس مجلدان.

كتاب لقط المنافع في الطب مجلدان.

كتاب الشيب والخضاب مجلد واحد.

كتاب أعمار الأعيان جزء واحد.

كتاب الثبات عند الممات جزآن.

كتاب تنوير الغبش في فضل السود والحبش مجلد واحد.

كتاب الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ جزء واحد.

كتاب إشراف الموالى جزآن.

كتاب إعلام الأحياء بإغلاط الإحياء.

تاب تحريم المحل المكروه جزء واحد.

كتاب المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء مجلد واحد.

كتاب عطف العلماء على الأمراء والأمراء على العلماء جزء واحد.

كتاب النصر على مصر جزء واحد.

كتاب المجد العضدي مجلد واحد.

كتاب الفجر النورى مجلد واحد.

كتاب مناقب الستر الرفيع جزء واحد.

كتاب ما قلته من الأشعار جزء واحد.

كتاب المقامات مجلد واحد.

كتاب من رسائلي رسائل ابن الجوزي في جزء واحد.

كتاب الطب الروماني جزء واحد.

هذا ما نقله ابن القطيعي من خطه وقرأ عليه وزاد فيه ومع هذا فلأبي الفرج تصانيف أخرى كثيرة غير ما ذكر في هذا الفهرست وقدر علمي أنه صنفها بعد ذلك منها.

كتاب بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب يقع في ستة عشر جزءا.

كتاب الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب وهو عبارة عن تعليقة في الفقه مجلد كبير.

كتاب الوفاء بفضائل المصطفى مجلدان.

كتاب النور في فضائل الأيام والشهور مجلد واحد.

كتاب تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد.

كتاب مناقب الإمام الشافعي.

كتاب العزلة.

كتاب الرياضة.

كتاب منهاج الإصابة في محبة الصحابة.

كتاب فنون الألباب.

كتاب الظرفاء والمتحابين.

كتاب مناقب أبي بكر مجلد واحد.

كتاب مناقب على مجلد واحد.

كتاب فضائل العرب مجلد واحد.

كتاب درة الأكليل في التاريخ أربع مجلدات.

كتاب الأمثال مجلد واحد.

كتاب المنفعة في المذاهب الأربعة مجلدان.

كتاب المختار من الأشعار عشر مجلدات.

كتاب رؤوس القوارير مجلدان.

كتاب المرتجل في الوعظ مجلد كبير.

كتاب ذخيرة الواعظ أجزاء.

كتاب الزجر المخوف.

كتاب الأنس والمحبة.

كتاب المطرب الملهب.

تاب الزند الورى في الوعظ الناصري جزآن.

كتاب الفاخر في أيام الإمام الناصر مجلد.

كتاب المجد الصلاحي مجلد.

كتاب لغة الفقه جزآن.

كتاب عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر.

كتاب في ذم عبد القادر.

كتاب غريب الحديث مجلد واحد.

كتاب ملح الأحاديث جزآن.

كتاب الفصول الوعظية على حروف المعجم.

كتاب سلوة الأحزان عشر مجلدات.

كتاب المعشوق في الوعظ.

كتاب المجالس اليوسيفية وهي في الوعظ كتبها لابنه يوسف.

كتاب الوعظ المقبري جزء واحد.

كتاب قيام الليل ثلاثة أجزاء.

كتاب المحادثة جزء واحد.

كتاب المناجاة جزء واحد.

كتاب زاهر الجواهر في الوعظ ويقع في أربعة أجزاء.

كتاب كنز المذكر.

كتاب النجاة بالخواتيم جزآن.

كتاب المرتقى لمن اتقى.

وله أيضا من المؤلفات ما ذكرته كتب أهل الثقة الأعلام:

كتاب كشف النقاب عن الأسماء والألقاب وهو مخطوط بليدن

١٤٨٧ لم يثبت بعد في الفهرس وله أيضًا تصانيف أخرى غير هذه وقد اختصر فنون ابن عقيل في بضعة عشر مجلدًا [١].

---

(١) مصادر ترجمة ابن الجوزي:.
يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن عبد الهادي الدمشقي ت ٩٠٩هـ، معجم الكتب، تحقيق: يسرى عبد الغني البشري، نشر مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة.
عبد الحميد العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م.
مقدمة تحقيق كتاب نواسخ القرآن لابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف على المليباري، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- الذيل لابن رجب.
- الحافظ المنذري، التكملة لوفيات النقلة.
- الذهبي، تذكرة الحفاظ.
- السيوطي، طبقات الحفاظ.
الشيخ عدي بن مسافرالأموي الشامي المتوفى سنة: ٥٥٧هـ.
- كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة.
ومفتاح السعادة١/٢٠٧.
المختصر المحتاج إليه ٢/٢٠٥ - ٢٠٨.
ودول الإسلام ٢/١٠٦.
والعسجد المسبوك ٢/٢٦٨.
وغاية النهاية ١/٣٧٥.
وعقود الجوهر ص: ٣٩ - ٤٥.
والمجددون في الإسلام ص: ٢٣٢ - ٢٤٠.
ودائرة المعارف الإسلامية ١/١٢٥.
والأعلام ٤/٨٩ - ٩٠.
ومرآة الجنان ٣/٤٨٩ - ٤٩٢.
البداية والنهاية.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
- العبر في خبر من غبر.
- الكامل في التاريخ ابن الأثير.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.

فهذه هي بعض مؤلّفاته وثمرات جهده الجبار. وتلك هي بعض ملامح ذلك الرجل الفذ الذي له ثقله ووزنه في ميزان العلم والعلماء حتى اليوم.

* * *

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان.

أبو المحاسن
بـن تغري بـردي

من مشاهير أعلام المسلمين

أبو المحاسن بن تغري بردي

يوسف بن تغري بردي [1] بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين البشقاوى القاهرى: مؤرخ بحاثة. من أهل القاهرة، مولدا ووفاة. كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، نائب الشام يعرف بابن تغرى بردى الأديب المؤرخ ولد سنة ٨١٣ هـ، وتوفى سنة ٨٧٤ هـ أربع وسبعين وثمانمائة، ولد بالقاهرة ورباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين ابن العديم الحنفي. تفقه بشمس الدين محمد الرومي وبالعيني وغيرهما.

وأخذ النحو عن الشمنى ولازمه كثيرًا. وأخذ البديع والأدبيات عن الشهاب بن عربشاه وحضر على ابن حجر العسقلاني وانتفع به. ثم حبب إليه علم التاريخ.

فلازم مؤرخي عصره مثل العيني والمقريزي واجتهد في ذلك إلى الغاية وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره وصحة فهمه. ومهر وكتب وصنف وانتهت إليه رئاسة هذا الشأن في عصره، وتأدب وتفقه وقرأ الحديث، وأولع بالتاريخ وبرع في فنون الفروسية وامتاز في علم النغم والإيقاع [2].

من مؤلفاته:

(١) تغري بردي:كلمة تترية، بمعنى " عطاء الله " أو " الله أعطى " كان يكتبها الأتراك " تكري ويردي " ويلفظون الكاف نونًا، والواو أقرب إلى ال v بحركة بين الفتح والكسر.

(٢) الزركلي، الأعلام، ٨ / ٢٢٢ - ٢٢٣، هدية العارفين في أسماء المؤلفين طـ إحياء التراث، ٤ / ١١٢، معجم المطبوعات، ١ / ٥٢.

١ - حلية الصفات في الأسماء والصناعات في الأدب. جمع فيه أشعار على ترتيب الحروف فكتب ما يتعلق بطول الليل في حرف الطاء مثلا.

٢ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ذيلا على تاريخ المقريزى المسمى بالسلوك. ويعتبر ذيل على كتاب " السلوك للمقريزي " حيث يقول أبو المحاسن بن تغربردي في أوله: (الحمد لله مدبر الدهور ومدول الأيام والشهور... إلخ).

ثم قال: لما كان شيخنا المقريزي أتقن من حرر تاريخ الزمان وأجل تحفة اخترعها: (كتاب السلوك) قد انتهى فيه إلى: أواخر سنة ٨٤٤، أربع وأربعين وثمانمائة وهي التي توفي فيها.

ولم يأت بعده من يعول عليه في هذا الفن إلا الشيخ بدر الدين محمود العيني فنظرت فيما علقه في تلك الأيام فإذا به كثير الغلطات والأوهام لكبر سنه واختلاط ذهنه بحيث أنه لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد تعب لاختلاف الضبط وعدم التحرير فأحببت: أن أكتب تاريخا يعقب موت الشيخ وجعلته: كالذيل على (السلوك) وسميته (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور).

لكن لم أسلك فيه: طريق الشيخ في تطويل الحوادث في السنة وقصر التراجم في الوفيات بل أوسعت في التراجم لتكثير الفائدة فيه من الطرفين وما وجدته مختصرا من التراجم فراجع إلى: (المنهل الصافي) فإني هناك شفيت الغلة.

٣ - الدليل الشافي على المنهل الصافى في تراجم الأعيان. في مجلد صغير، وهو اختصار لكتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي وسماه: (الدليل الشافي على المنهل الصافي) وأوله: (الحمد لله الذي لا يستدل عليه إلا به... إلخ) قال: جعلته لتاريخنا المسمى: (بالمنهل الصافي) كالديباجة ورتبته على: ترتيبه من: أوله إلى آخره... واختصرت فيه التراجم جدا ليكون الناظر في ذلك على

بصيرة.

٤ - السكر الفاضح والعطر الفائح.

٥ - الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة.

٦ - المنهل الصافى في تراجم الاعيان على الحروف.

٧ - السكر الفاضح والعطر الفائح.

٨ - الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة.

٩ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى في التاريخ والتراجم.

١٠ - مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة في التاريخ. اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين من غير مزيد، واستفتح: بذكر مولد سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - ووفاته، ثم ابتدأ من: الخلفاء الراشدين إلى خليفة وقته: القائم بأمر الله - تعالى - حمزة، ثم ذكر: العبيديين ثم ذكر ملوك مصر من أول الدولة الأيوبية إلى الدولة الجركسية.

١١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. أوله: (الحمد لله الذي أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام... إلخ) استفتحه: بفتح مصر ومن حضرها من الصحابة، ثم من وليها، وما وقع في زمانه ومن توفي من الأعيان بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص إلى الدولة الأشرفية الأينالية وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين ابتدأ فيه من الفتح العمري إلى زمانه، وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة ذكرا مبسوطا أصالة، وذكر ملوك الأطراف والوقائع إجمالا ضمنا، وذكر من توفي من الأعيان والعلماء والملوك، وأشار إلى زيادة النيل ونقصانه بعبارة مبسوطة، ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية وجد ذلك التاريخ واستحسنه فأمر المولى شمس الدين حمد بن سليمان بن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ أن يترجمه إلى التركية وهو يومئذ قاض بعسكر أناطولي فنقل في كل منزل جزءا وبيضه المولى حسن المعروف بأشجي زاده ثم عرضه إلى السلطان في

الطريق فأعجبه وأمر بنقله هكذا فعل إلى تمامه.

ولخص المصنف كتابه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) وهو مجلد أوله (الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة... إلخ) ذكر أنه اختصره حذرًا من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتضى في ذلك بجماعة من العلماء: كالذهبي والمقريزي فإن الذهبي:

اختصر (تاريخ الإسلام): (بسير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء): (بالعبر) ثم اختصر (العبر): (بالإشارة إلى وفيات الأعيان)

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات في بلدان مختلفة منها:

طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

وطبعة دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤١٣هـ.

وطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م.

وطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.

وغيرها الكثير من الطبعات.

١٢ - نزهة الرأى في التاريخ،هو تاريخ مفصل على السنين والشهور والأيام (١).

١٣ - سكب الادب شرح لامية العرب (٢).

أما كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " موضوع الاختصار فيعد أشهر تآليف ابن تغري بردي الجليلة الممتعة، ومن أكبر الموسوعات الأدبية والتاريخية. أرخ فيه لمصر، منذ الفتح الإسلامي سنة ٢٠هـ إلى خلال سنة ٨٧٢هـ. قال في مقدمته: (لما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين، أحببت أن

(١) هدية العارفين في أسماء المؤلفين، ط إحياء التراث، ٤ / ١١٣.

(٢) كشف الظنون، ٢ / ١٩٤٢.

أجعل تاريخاً لملوكها... واستطرد فيه إلى ذكر ما بني فيها من المباني الزاهرة، كالميادين والجوامع، ومقياس النيل، وعمارة القاهرة، أولاً بأول، أذكره في يوم مبناه وفي زمن سلطانه، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشانه).

وقد كان للمستشرقين عناية كبيرة بهذا الكتاب، فترجموه إلى معظم اللغات الأوربية، ويذكر أن السلطان سليم لما فتح مصر حمل إليه هذا الكتاب، فنظر فيه وأمر بترجمته إلى التركية؛ ذلك لأنه تأليف ابن والي بلاد الشام (تغري بردي)، فقام بمهمة الترجمة كبير علماء عصره (ابن الكمال). وكان أول من نشر منه قسماً في أوروبا: المستشرق الهولندي (يونبل) في ليدن، بين سنتي (١٨٥١و ١٨٥٥م) حيث نشر منه مجلدين، يشتملان على الأحداث، من سنة (٢٠هـ حتى ٣٦٥هـ) مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية. ثم قام المستشرق الأمريكي (وليم بوبر) بنشر عشرة مجلدات منه، تبدأ من حيث انتهى (يونبل) وتنتهي بآخر الكتاب، غير أنها تنقصها الأحداث: من سنة ٥٦٥هـ حتى سنة ٨٠٠هـ، وطبع عمله بجامعة كاليفورنيا، من سنة (١٩٠٩ حتى ١٩٢٩م). وطبع الكتاب كاملاً في القاهرة سنة ١٩٦٣م في ثمانية مجلدات ضخمة.

قال حاجي خليفة: (واختصره بنفسه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) في مجلد واحد، واحتذى في ذلك بجماعة من العلماء كالمقريزي والذهبي، فإن الذهبي اختصر (تاريخ الإسلام) في (سير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء) في (العبر) ثم اختصر العبر في (الإشارة إلى وفيات الأعيان)..). للكتاب نسخ نادرة في بعض مكتبات العالم، أهمها: نسخة مكتبة آياصوفيا بتركيا، في سبعة مجلدات، ينقصها المجلد الثاني.

* * *

محمد بن سعد

من مشاهير أعلام المسلمين

محمد بن سعد وكتاب الطبقات[1]

حقيقة إن المعلومات التي نحتاجها لنرسم منها صورة لسيرة محمد بن سعد في كتابه " الطبقات الكبري " قليلة لا تفي بشيء؛ لأن محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المكنى بأبي عبد الله، يظهر لنا في كتابه " الطبقات الكبري " في شخصية الراوية الذي لم يسمح لذاته وعلاقاته وأحواله بأن تدل على ما يرويه، أو أن تتدخل فيه، وإنه لمن المفارقات أن ترى الشخص الذي حفظ لنا الصفات الخُلقية والخِلقية وأدق المظاهر أحياناً عن حياة الأشخاص، لا يجد من يكتب عنه ترجمة موضحة.

نشأته:

فتقول التراجم التي جمعناها له: إنه ولد سنة ١٦٨هـ بالبصرة، فنسب إليها، وارتحل إلى بغداد وأقام فيها ملازماً لأستاذه الواقدي يكتب له، حتى عرف باسم " كاتب الواقدي ". وكانت له رحلة إلى المدينة والكوفة، ولا ريب في أن رحلته إلى المدينة تمت قبل سنة ٢٠٠هـ، فهو يذكر أنه لقي فيها بعض الشيوخ عام ١٨٩هـ، كما أن أكثر الذين روى عنهم من أهلها أدركتهم المنية قبل مطلع القرن الثالث. وقد كان أحد أجداده مولى لبني هاشم، ولكن ابن سعد نفسه

(١) مصادر الترجمة: ابن النديم، الفهرست، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل رقم: ١٤٣٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٥/ ٣٢١، ابن خلكان، وفيات الأعيان رقم: ٦١٧، الصفدي، الوافي، ٣/ ٨٨ (رقم ١٠٠٩)، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزري، طبقات القراء ١/ ١٤٢.

كان قد تحلل من عهدة الولاء، وفي نسبته أنه زهري، وهي نسبة غريبة بعدما صرحت الروايات بولاء أهله لبني هاشم.

رحلته العلمية:

لقد جاب ابن سعد الأقطار طلبًا لعلم الحديث، وتفرغ لدراسته من منابعه الأصيلة، وكان شغله الشاغل هو لقاء الشيوخ وكتابة الحديث وجمع الكتب؛ ولذلك اتصل بأعلام عصره من المحدثين فروى عنهم وقيد مروياته، وأفاد منها في تصنيف كتبه حتى وصف بأنه كان كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب.

ونستطيع أن نقول: إن محمد بن سعد كان على اتصال بأكبر رجال الحديث في عصره، سواء أكانوا شيوخاً أم تلامذة. ومن يطلع على الطبقات يجد له شيوخاً كثيرين منهم سفيان بن عيينة، وأبو الوليد الطيالسي، ومحمد بن سعدان الضرير، ووكيع بن الجراح، وسليمان بن حرب، وهيثم، والفضل بن دكين، والوليد بن مسلم، ومعن بن عيسى، وعشرات غيرهم، ولو راجع القارئ تراجم هؤلاء الشيوخ في كتب الرجال، لوجد معظمهم ممن لا يشك في عدالته. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المادة التي نقلها ابن سعد قد وجهت بالنقد الضمني لأنه تحرى قبل نقلها أن تكون في الأكثر مأخوذة عن العدول الثقات. وهذا الموقف هو الذي كسب لابن سعد تقدير معاصريه ومن بعدهم، فكلهم تقريباً وثقه وأثنى عليه حتى قال فيه الخطيب: " محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، فإنه يتحرى في كثير من رواياته ".

وقال ابن خلكان: " كان صدوقاً ثقة ".

وقال ابن حجر: " أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين "، ووصفوه بالفضل والفهم والنبل، وفضلوه على أستاذه الواقدي ضعيف.

ولم تقتصر ثقافة ابن سعد على الحديث والأخبار والسير بل إنه

كتب الغريب والفقه، وربما دلت صلته بالنحويين واللغويين مثل أبي زيد الأنصاري على استكماله للنواحي اللغوية والنحوية، على نحو واسع. أما صلته بمحمد ابن سعدان الضرير وهو من مشهوري القراء فتدل على اهتمامه بالقراءات. وقد صرح ابن الجزري بأن ابن سعد روى الحروف عن محمد بن عمر الواقدي ثم رواها عنه الحارث بن أبي أسامة. وكان توفره على كتابة تراجم الرجال سبباً في اطلاعه الواسع على علم الأنساب، ويبدو من الطبقات أنه أحكم هذا الفرع إحكاماً جيداً بحيث تمكن فيه من المناقشة والترجيح، وعمدته في ذلك رواية أستاذه الواقدي، ورواية ابن إسحاق، ورواية ابن عمارة الأنصاري في نسب الأنصار، ورواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وعن هذا الأخير روى ابن سعد كتابه " جمهرة الأنساب ".

أما تلامذته فهم كثيرون أيضاً، ومنهم أحمد بن عبيد، وابن أبي الدنيا والبلاذري، والحارث بن أبي أسامة، والحسين بن فهم وغيرهم.

مؤلفاته:

لم يتوقف نشاط ابن سعد عند تأليف كتاب " الطبقات "، وعلى سعة باعه في نواحٍ علمية كثيرة، فإن المصادر لم تذكر له من المؤلفات إلا كتابين آخرين - عدا الطبقات الكبير - وهما كتاب " الطبقات الصغير "، وهو مستخرج من المؤلف الأول، وكتاب " أخبار النبي " - وهو الكتاب الوحيد الذي ذكره ابن النديم - وربما لم يكن شيء سوى الجزأين الأولين من الطبقات الكبير، أي أن الكتب الثلاثة في حقيقتها كتاب واحد، وتسكت المصادر عما سوى ذلك من مؤلفات.

وفاته:

وتكاد المصادر تجمع على أن ابن سعد توفي يوم الأحد لأربع

خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ، بمدينة بغداد ودفن في مقبرة باب الشام وهو يومئذ ابن اثنتين وستين سنة. وهذا الخبر منقول عن الحسين بن فهم أحد تلامذته الأدنين، وأحد اثنين رويا كتاب الطبقات. ولكن ابن أبي حاتم يذكر أنه توفي سنة ست وثلاثين (يعني ومائتين) وقال الصفدي في الوافي: إنه توفي سنة ٢٢٢ هـ على خلاف في ذلك. ويبدو أن رواية ابن فهم هي الصحيحة، فأما رواية الصفدي في الوافي فواضحة الخطأ لأن ابن سعد يؤرخ لأناس توفوا سنة ٢٢٨ هـ و٢٢٩هـ وليس هناك ما يدل على أن ذلك مما زاده الرواة الذين نقلوا الكتاب. أما رواية ابن أبي حاتم فقد كتبت بالأرقام لا بالحروف وهي في شكلها الذي كتبت به لا تسلم من الخطأ.

وكتاب " الطبقات " معرض لنواح كثيرة من ثقافة وعلم ابن سعد، وهو عمل ضخم أراده أن يكون في خمسة عشر مجلداً، ليخدم به السنة أو علم الحديث، فتحدث فيه عن الحبيب محمد ﷺ والصحابة والتابعين إلى عصرهم مقتفياً خطى أستاذه الواقدي الذي ألف أيضاً كتاب " الطبقات "، وقد خصص ابن سعد أكثر الجزأين الأولين لسيرة الحبيب محمد ﷺ، ثم أضاف فصلاً عن الذين كانوا يفتون بالمدينة على عهد الحبيب محمد ﷺ، ثم أخذ يترجم في الأخير الذي خصصه للنساء. وقد راعى في التراجم عنصرين: عنصر الزمان وعنصر المكان - أما عنصر الزمان فقد تدخل في بناء الطبقات من أولها إلى آخرها، وكانت السابقة إلى الإسلام هي المحور الأكبر فيه، سواء اتصلت بالهجرة إلى الحبشة ثم بموقعة بدر أو وقتت بما قبل فتح مكة، أو غير ذلك من النقط الزمنية التي وجهت التقسيم في ذلك الكتاب. ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين ثم بمن أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وإنما هاجر إلى الحبشة أو شهد أُحداً (فالبدريون مفضلون على من عداهم) ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا. ونلاحظ في هذه القسمة أن ابن سعد احتذى فيها شيئاً شبيهاً بما صنعه عمر بن الخطاب عندما دون الدواوين.

وبعد هذا تدخل العنصر المكاني فأخذ يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التي نزلوا فسمى من كان بالمدينة ومكة والطائف واليمن واليمامة، ثم من نزل الكوفة، ثم من نزل البصرة، ومن كان موطنه الشام ومصر وغيرهم. وفي أثناء هذا التقسيم التفت إلى التقسيمات المكانية، وبخاصة عند الحديث عن التابعين لأنه ترجم لهم في الطبقات، والطبقة في العادة تساوي جيلاً أو عشرين سنة أو عشر سنين، وهي تساوي في كتاب ابن سعد عشرين سنة تقريباً، فمثلاً تراوح نهاية الطبقة الثالثة بين سنتي ١٠٨ - ١١٣ وتراوح نهاية الطبقة الرابعة بين سنتي ١٢٦ - ١٣٢.

وقد أظهر هذا التقسيم عيباً واحداً في الكتاب إذ قد يكون أحد الأشخاص داخلاً في غير موضع واحد في هذا المنهج الكبير، أي قد يكون أحد الناس بدريًّا، ممن يفتي أيام الرسول، ثم هاجر إلى مصر من الأمصار وعلى هذا فلا بد له من ثلاث تراجم، غير أن ابن سعد كان على وعي بهذا؛ ولذلك ففي مثل هذه الأحوال تجده يطيل الترجمة في موطن واحد، ويوجز في المواطن الأخرى.

وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلي على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التي تهم ابن سعد الرواية عنها من جميع النواحي، أخذت الترجمة تتذاءل وتقل قيمتها، وبدلاً من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاصرهم، نجده اكتفى في هذا بقولة موجزة وأفاض كثيراً في تراجم الصحابة وكبار التابعين وبلغ من الدقة حدًّا يجعل من كتابه وثيقة بالغة القيمة.

وقد اختفت شخصية ابن سعد أو كادت وراء السند، وليس لابن سعد في الكتاب تعليقات كثيرة ولكن ما يوجد منها يدل على قدرة نقدية طيبة.

ويجب أن نذكر أن كتاب الطبقات من أوائل ما ألف في هذا

الموضوع، وإننا لا نعلم كتاباً سبقه إلا طبقات الواقدي، وتذكر هذه الحقيقة يجعلنا ندرك قيمة الكتاب من حيث هو مصدر قديم ومن حيث هو أحد النماذج الأولى في موضوع " الرجال ". حقًّا إن التأليف في هذه الناحية كثر من بعده، وربما انقسم التأليف في الطبقات بعده قسمين، قسم خاص بالصحابة وقسم خاص بسائر رجال الحديث من بعدهم، ولكن أثر كتاب ابن سعد، سواء ذكر اسمه أو لم يذكر، قد ظهر في التواليف التي جاءت من بعد. فنحن نعلم أن الصلة بين ابن سعد والبلاذري مثلاً كانت وثيقة، وأن مادة ابن سعد قد تركت أثراً واضحاً في كتاب " فتوح البلدان "، وكتاب " أنساب الأشراف "، والثاني من هذين الكتابين صورة أخرى للتأليف في الطبقات. وفي كتاب ابن سعد فصول هي الأصل الذي احتذاه المؤلفون في " دلائل النبوة " كأبي نعيم والبيهقي وعنه نقل ابن مندة في طبقاته، ويمكن أن تقارن أصول السند عنده بما عند ابي نعيم الأصفهاني في " حلية الأولياء " فإن المتن متشابه وطرق الإسناد هي نفس طرق ابن سعد، متجهة اتجاهاً آخر، على أيدي رواة آخرين. ومن الغريب أن ابن عبد البر القرطبي في " الاستيعاب " لا يذكر أنه اعتمد على طبقات ابن سعد ويقول: إنه استمد من طبقات الواقدي نفسه عن طريق محمد بن سعد عن طرق إبراهيم بن موسى بن جميل (س٠ ٣٠٠) وهذا الأخير أندلسي هاجر إلى المشرق وسمع ابن حنبل وابن أبي الدنيا وابن قتيبة وابن سعد نفسه.

وتظل شهرة ابن سعد بين الأندلسيين محدودة - بعكس طبقات الواقدي - حتى إن الكلاعي مؤلف " الاكتفاء " اعتمد على ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومصعب الزبيري ولم يذكر شيئاً عن ابن سعد وطبقاته. على أنّا نجد أندلسياً متأخراً ينقل عنه وهو ابن أبي بكر (- ٧٤١) في كتابه " التمهيد والبين في مقتل الشهيد عثمان "، وهو كتاب ما يزال مخطوطاً. وأغرب من هذا أمر المشارقة وبخاصة ابن الأثير مؤلف " أسد الغابة " فإنه اكتفى في كتابه هذا

بالاعتماد على أربعة كتب هي: كتاب ابن مندة، وكتاب أبي نعيم، وكتاب ابن عبد البر، ثم تذييل الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى الأصفهاني. وواضح من هذا أن كتاب ابن سعد يدخل في " أسد الغابة " دخولاً غير مباشر، ولكن إغفال ابن الأثير له أمر يستوقف النظر.

غير أن طبقات ابن سعد، مع ذلك كله، مصدر هام عند ابن عساكر في كتابه " تاريخ دمشق " ومصدر هام في " تاريخ الإسلام " للذهبي وفي " تجريد أسماء الصحابة " و" سير أعلام النبلاء " ومعتمد في " الإصابة " و" تهذيب التهذيب " لابن حجر. وينقل عنه ابن كثير في تاريخه ويصرح ابن تغري بردي بقوله: " ونقلنا عنه كثيراً في هذا الكتاب " - أي كتاب النجوم الزاهرة - وكذلك كان مرجعاً لمن كتبوا في السيرة من المتأخرين كالمقريزي في " إمتاع الأسماع "، ولكثير من الكتب في الرجال.

ومنذ سنة ١٩٠٣ عمل في نشر هذا الكتاب جماعة من العلماء الألمان، فأشرف عليه سخاو، وأعانه فيه هوروفنز، ومنوخ، وبروكلمان وشوالي ولبرت وميسنر وسترستين، وكان اعتمادهم على مخطوطات خمس وجدوها، فجاء عملهم في حدود الإمكانات التي توفرت لهم جيداً مضبوطاً دقيقاً. فإعادة طبع هذا الكتاب اليوم عمل هام ضروري، غايته تقريبه من أيدي الدارسين وتسهيل وصوله إليهم، ففي صفحاته كنز لا ينضب من المعرفة لمن شاء أن يدرس سيرة الرسول وحياة القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، وهو المنبع الذي يمد الباحثين بموضوعات جديدة في كتابة السير والبحث عن طرق الإسناد وكيفية تدوين الحديث، ويعلمنا الشيء الكثير عن الأمور الاجتماعية المتصلة بحياة البيت والسوق وأمور الزي والطعام والشراب، وعن جوانب من الأعمال والمهن والحياة التجارية، وعن كثير من النواحي الثقافية والأحكام الفقهية، والصراع

بين السنة والأهواء، وعن عشرات من الموضوعات، كل ذلك في لغة سهلة مستوية جزلة، وفي اعتدال وقصد وموضوعية وتجرد لا يستطيعه إلا من كان مخلصاً، كابن سعد، يقدم الغاية العلمية على كل شيء آخر [١].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب الطبقات الكبرى، للمحقق إحسان عباس، طبعة دار صادر ببيروت، محمد أحمد حامد الأزوري، منهج ابن سعد في نقد الرواة من خلال الطبقات الكبرى، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٧هـ.

الإمـام الذهبـي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الذهبي

هو الشيخ الإمام الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، شيخ المحدثين، محدث العصر، وخاتمة الحفاظ، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي ثم الدمشقي، الشافعي، المقرئ.

يرجع الذهبي إلى أصول تركمانية، فهو من أسرة تركمانية الأصل، سكنت مدينة مَيَّافارقين من أشهر مدن ديار بكر،ويرجع في ولائه(١) إلى بني تميم.

ولد الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة، في مدينة دمشق، وعاش في أجواء أسرة متدينة متعلمة ميسورة الحال، الأمر الذي ساعده على التحصيل العلمي منذ نعومة أظفاره، فمن جهة والده، كان والده شهاب الدين أحمد بن عثمان قد طلب العلم، وسمع الصحيح من المقداد القيسي سنة (٦٦٦هـ)، وقد ترجم له الذهبي في معجم شيوخه، وقد توفي والده سنة (٦٩٧هـ)، وكذلك استفاد الذهبي من عمته ست الأهل بنت عثمان بن قايماز، وهي أمه من الرضاعة، وكان قد أجاز لها ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة. وسمعت من عمر بن

---

(١) المقصود بالولاء هنا:.
أ - ولاء عتق: وهو الغالب بحيث ينسب إلى من أعتقه.
ب - وإما أن يكون ولاء إسلام: وذلك بأن يسلم العجمي على يد العربي.
ج - وإما أن يكون ولاء حلف: وذلك بأن يكون الشخص حليفاً لقبيلة فينسب إليها.
انظر: المنهل الراوي من تقريب النواوي (ص١٩٩ - ٢٠٠).

القواس وغيره.

فروى الذهبي عنها، وكانت وفاتها سنة (٧٢٩هـ).

وأما من جهة والدته: فإنها ابنة علم الدين، أبو بكر سنجر بن عبد الله الموصلي، فقد كان خيراً، عاقلاً، مديراً للمناشير بديوان الجيش، مات سنة (٦٨٠هـ).

ولما كان الذهبي من أسرة متدينة متعلمة، ميسورة الحال،فقد دفعتت به إلى كتاتيب تعليم القرآن في صغره، وفرغته بعد ذلك لطلب العلم وتحصيله من ريعان شبابه، بدلاً من الانشغال في تحصيل قوته وطلب رزقه. ولم يكن يكدر صفو هذه النعمة إلا امتناع والده عن السماح له بالرحلة في طلب العلم إلا في رحلات قصيرة لا تتجاوز أربعة أشهر، وذلك لخوفه عليه وشدة تعلقه به.

والعامل الثاني الذي أثر في نشأة الذهبي، فهو بلده دمشق التي كانت تجمع في ذلك العصر شموس العلم من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ المزي وغيرهما، فقد حظي الذهبي برفقة هؤلاء والإفادة منهم، وأضف إلى ذلك اشتهار دمشق في ذلك الحين بكبريات دور الحديث، كدار الحديث الظاهرية، ودار الحديث السكرية، ودار الحديث الأشرفية، وغيرها. فقد كانت دمشق في ذلك العصر مركز إشعاع علمي وخاصة في علوم الحديث.

وقد بدأ الذهبي بدايته العلمية بحفظ كتاب الله تعالى، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وذلك على يد أحد المؤدبين، واسمه علاء الدين على ابن محمد الحلبي، المعروف بالبصبص، حيث أقام الذهبي في مَكْتَبِه أربعة أعوام.

ثم انتقل الذهبي بعدها إلى الشيخ مسعود بن عبد الله الأغزازي، فلقنه جميع القرآن، ثم قرأ عليه نحو من أربعين ختمة.

تلك هي بواكير دراسته، والتي تبعها بعد ذلك جلوسه في مجالس الشيوخ، وذلك ببلوغ سن الثامنة عشرة، حيث تعتبر هذه السن عند

الذهبي بداية مرحلة العناية بطلب العلم، وقد ركز في تلك المرحلة على علمين شريفين عظيمين هما:

علم القراءات وعلم الحديث، فلازم كبار علماء القراءات في عصره، حتى أصبح متقناً لهذا الفن وأصوله ومسائله، مما حذا بالشيخ محمد بن عبد العزيز الدمياطي - وهو من المقرئين المجودين - أن يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي، عقب مرض الشيخ، الذي توفي على إثره سنة (٦٩٣هـ).

إلا أن الذهبي لم يستمر في ذلك المنصب إلا قرابة السنة بسبب انشغاله بالرحلة إلى طلب العلم.

وأما علم الحديث، فقد كان له النصيب الأوفر عند الذهبي، حيث اعتنى به العناية الفائقة حتى أصبح هذا العلم هو شغله الشاغل طيلة حياته، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية.

ومع عناية الذهبي بعلمي القراءات والحديث في تلك المرحلة، إلا أنه لم يهمل علوم العربية والأدب والتاريخ، فقد عني بدراسة النحو، فسمع " الحاجبية " على شيخه موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء - النصيبي المتوفى سنة (٦٩٥هـ).

كما دَرَسَ على شيخ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك، الشيخ محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي المتوفى سنة (٦٩٨هـ).

" إضافة إلى سماعه لعدد كبير من مجاميع الشعر واللغة والأدب "، وقد تعاطى الشعر، ونظم اليسير منه.

" واهتم بالكتب التاريخية، فسمع عدداً كبيراً منها على شيوخه، في المغازي، والسيرة، والتاريخ العام، ومعجمات الشيوخ والمشيخات، وكتب التراجم الأخرى ".

وفي العموم فقد اعتنى الذهبي في فترة تحصيله بشتى العلوم الدينية مع ما تحتاجه تلك العلوم من علوم الآلة ونحوها من العلوم المساعدة مع أنه لم ينقطع عن التحصيل والسماع طوال حياته، يشهد لذلك معجمات

شيوخه ومؤلفاته الموسوعية التي تؤكد دراسته لعدد ضخم من المؤلفات في العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، واللغة، والأدب، وغيرها.

وقد انعكس هذا التحصيل الواسع على مؤلفاته التي تشهد له بسعة الإطلاع وغزارة الإنتاج مع القوة والتمكن في مختلف العلوم.

ومن أشهر كتبه في علوم الحديث " ميزان الاعتدال في نقد الرجال ".

وأما علم التاريخ والتراجم:

فالذهبي صاحب الموسوعات الكبار في هذا المجال، والتي أهمها " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "، و" سير أعلام النبلاء "، و" العبر "، و" دول الإسلام "، و" تذكرة الحفاظ "، وغيرها كثير، وقد أظهر الذهبي في تلك المؤلفات براعة في العرض، ودقة في التحليل والنقد، مع غزارة في المعلومات، تشهد له بالذكاء والعبقرية وقوة الحافظة، لدرجة أن ابن حجر - مع فضله وجلالة قدره - شرب ماء زمزم سائلاً الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفطنة.

وقد عول الكتاب والعلماء على مؤلفاته، وأصبحت عمدة لهم فيما كتبوا وألفوا من بعده. وقد عد الذهبي والمزي أكبر المؤرخين في القرن الثامن.

وقد عُرف الذهبي - رحمه الله - بمواقفه التي تدعو إلى التمسك بعقيدة السلف الصالح علماً واعتقاداً وعملاً ودعوة وتعليماً، ويظهر ذلك جليًّا لمن اطلع على مصنفاته سواء ما يتعلق منها بمسائل الاعتقاد مثل كتاب " العلو "، وكتاب " العرش "، وكتاب " الأربعين في صفات رب العالمين "، ورسالة " التمسك بالسنن والتحذير من البدع وغيرها "، أو كتبه الأخرى في علوم الحديث وغيرها.

فقد سطر الذهبي بيراعه معتقد السلف وأثبته في تلك الكتب،

ونافح ودافع عن عقيدة أهل السنة وأثنى على أهلها بما يستحقونه من الأوصاف، كما أبرز جهودهم العلمية والعملية في نشر السنة ونصرتها، وفي الوقت ذاته سلط قلمه على أهل البدع والأهواء، فما يمر على صاحب بدعة إلا ويشير إلى بدعته، ويبين وجه انحرافه، وقول أهل السنة فيه وفي بدعته، وإن كان في بعض الأحيان يوجد في كلامه بعض التساهل مع بعض المبتدعة لكنه قليل ومحدود.

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها والإشادة بها في هذا المقام، أن الذهبي قام رحمه الله على ثغرة عظيمة، هي علم الرجال والتراجم، فاعتنى بها واهتم بأمرها اهتماماً كبيراً، حتى أصبحت محور تفكيره وأساس كثير من كتبه، فقام بخدمة هذا الجانب خير قيام، وذلك وفق منهج أهل السنة والجماعة، على غرار ما فعل شيخه وصاحبه شيخ الإسلام ابن تيمية في خدمة مسائل الاعتقاد والرد على أصحاب المقالات، فكل من الإمامين قام على ثغرة، وقام بأكبر خدمة.

فقد شوه أصحاب البدع وأرباب المقالات حقائق التاريخ وسير العلماء بما دسوا فيها من الأكاذيب والأباطيل، كما فعلوا في مسائل الاعتقاد الأمر ذاته.

فتصدى الذهبي - رحمه الله تعالى - للجانب التاريخي فوضع الأمور في نصابها وأوضح بجلاء سير أعلام السنة على وجهها الصحيح وحلاها بأجمل الحلل وكساها أبهى العبارات.

وقام في الوقت ذاته بفضح أهل البدع والأهواء وكشف باطلهم، الأمر الذي أثار حفيظة أهل البدع والأهواء ونقمتهم على كتب الإمام الذهبي لما لها من ثقل ووزن في فنها، فهي تعد غصة في حلوق أهل الكلام والمتصوفة والرافضة ومن على شاكلتهم، لكونها كشفت عورات زعمائهم وأظهرت بطلان عقائدهم.

وكان الذهبي معروفاً في حياته بمواقفه الصلبة من العقائد المنحرفة وأهلها، كما اشتهر عنه صلته الوثيقة وموافقته لشيخ الإسلام

ابن تيمية في نصرة السنة ومحاربة البدعة، الأمر الذي جعل الأشاعرة من الشافعية بدمشق يمانعون في توليه لمشيخة أكبر دار للحديث بدمشق حينذاك، وهي دار الحديث الأشرفية، التي شغرت مشيختها بعد وفاة رفيقه المزي سنة (٧٤٢هـ)، رغم ترشيح قاضي القضاة على بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، وكان السبب في رفضهم كون الذهبي ليس بأشعري.

ومعلوم أن الصراع كان على أشده في ذلك الحين بدمشق بين أنصار المنهج السلفي وخصومهم من أهل الكلام والمتصوفة.

ولكن مع ذلك كله فاللذهبي بعض المواقف المخالفة في المسائل المتعلقة بالقبور وتعظيمها لا يُقر عليها ولا يُوافق.

واشتهر الذهبي بكثرة التصنيف حتى قال عنه ابن حجر: " كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ".

وقد اجتهد الدكتور بشار عواد في جمع أسماء مؤلفات الذهبي في كتابه " الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام "، وقد بلغ مجموع ما سمي من مؤلفاته (٢١٥) مؤلفاً. ونظراً لكثرتها فإني سوف أكتفي بذكر أسمائها:

أولا: القراءآت:

١ - التلويحات في علم القراءآت.

ثانيا: الحديث:

٢ - الأربعون البلدانية.

٣ - الثلاثون البلدانية.

٤ - طرق حديث " من كنت مولاه فعلي مولاه ".

٥ - الكلام على حديث الطير.

٦ - المستدرك على مستدرك الحاكم.

ثالثا: مصطلح الحديث وآدابه:

٧ - كتاب الزيادة المضطربة.

٨ - طريق أحاديث النزول.

٩ - العذب السلسل في الحديث المسلسل.

١٠ - منية الطالب لأعز المطالب.

١١ - الموقظة في علم مصطلح الحديث (باريس: ٤٥٧٧).

رابعا: العقائد:

١٢ - أحاديث الصفات.

٣ - الأربعين في صفات رب العالمين.

١٤ - جزء في الشفاعة.

١٥ - جزآن في صفة النار.

١٦ - الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية.

١٧ - الروع والاوجال في نبأ المسيح الدجال.

١٨ - رؤية الباري.

١٩ - العرش.

٢٠ - العلو للعلي الغفار.

٢١ - الكبائر.

٢٢ - ما بعد الموت.

٢٣ - مسألة دوام النار.

٢٤ - مسألة الغيبة.

٢٥ - مسألة الوعيد.

خامسا: أصول الفقه:

٢٦ - مسألة الاجتهاد.

٢٧ - مسألة خبر الواحد.

سادسا: الفقه:

٢٨ - تحريم أدبار النساء.

٢٩ - تشبيه الخسيس بأهل الخميس.

٣٠ - جزء في الخضاب.

٣١ - جزء من صلاة التسبيح.

٣٢ - جزء في القهقهة.

٣٣ - حقوق الجار.

٣٤ - فضائل الحج وأفعاله.

٣٥ - اللباس.

٣٦ - مسألة السماع.

٣٧ - الوتر.

سابعا: الرقائق:

٣٨ - جزء في محبة الصالحين.

٣٩ - دعاء المكروب.

٤٠ - ذكر الولدان.

٤١ - التعزية الحسنة بالأعزة.

٤٢ - كشف الكربة عند فقد الأحبة.

ثامنا: التاريخ والتراجم:

٤٣ - أخبار السد.

٤٤ - أخبار قضاة دمشق.

٤٥ - أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع.

٤٦ - الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام.

٤٧ - الإعلام بوفيات الأعلام.

٤٨ - الأمصار ذوات الآثار.
٤٩ - أهل المئة فصاعدا.
٥٠ - البيان عن اسم ابن فلان.
٥١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام.
٥٢ - التاريخ الممتع.
٥٣ - تذكرة الحفاظ.
٥٤ - تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق.
٥٥ - تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري.
٥٦ - تقييد المهمل.
٥٧ - التلويح بمن سبق ولحق.
٥٨ - جزء أربعة تعاصروا.
٥٩ - دول الإسلام.
٦٠ - ديوان الضعفاء والمتروكين.
٦١ - ذكر من اشتهر بكنيته من الاعيان.
٦٢ - ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل.
٦٣ - ذيل الاشارة إلى وفيات الاعيان.
٦٤ - ذيل دول الإسلام.
٦٥ - ذيل سير أعلام النبلاء.
٦٦ - ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين.
٦٧ - ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.
٦٨ - الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.
٦٩ - ذيل العبر في خبر من عبر.
٧٠ - الرد على ابن القطان.

٧١ - الزلازل.

٧٢ - سير أعلام النبلاء.

٧٣ - طبقات الشيوخ.

٧٤ - العباب في التاريخ.

٧٥ - العبر في خبر من عبر.

٧٦ - عنوان السير في ذكر الصحابة.

٧٧ - القبان (في أصحاب التقي ابن تيمية).

٧٨ - المجرد في أسماء رجال كتب سنن الامام أبي عبد الله بن ماجة سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين.

٦٩ - المرتجل في الكنى.

٨٠ - المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم.

٨١ - معجم الشيوخ الكبير.

٨٣ - المعجم الصغير (اللطيف).

٨٤ - المعجم المختص بمحدثي العصر.

٨٥ - معرفة آل مندة.

٨٦ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار.

٨٧ - المعين في طبقات المحدثين.

٨٨ - المغني في الضعفاء.

٨٩ - المقدمة ذات النقاط في الالقاب.

٩٠ - من تكلم فيه وهو موثق.

٩١ - الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم.

٩٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال.

٩٣ - هالة البدر في عدد أهل بدر.

تاسعا: السير والتراجم المفردة:

٩٤ - أخبار أبي مسلم الخراساني.

٩٥ - أخبار أم المؤمنين عائشة.

٩٦ - التبيان في مناقب عثمان.

٩٧ - ترجمة ابن عقدة الكوفي.

٩٨ - ترجمة أبي حنيفة.

٩٩ - ترجمة أبي يوسف القاضي.

١٠٠ - ترجمة أحمد بن حنبل.

١٠١ - ترجمة الخضر.

١٠٢ - ترجمة السلفي.

١٠٣ - ترجمة الشافعي.

١٠٤ - ترجمة الشيخ الموفق.

١٠٥ - ترجمة مالك بن أنس.

١٠٦ - ترجمة محمد بن الحسن الشيباني.

١٠٧ - توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق.

١٠٨ - الدرة اليتيمية في سيرة التيمية.

١٠٩ - الزخرف القصري (في ترجمة الحسن البصري).

١١٠ - سيرة الحلاج.

١١١ - سيرة أبي القاسم الطبراني.

١١٢ - سيرة سعيد بن المسيب.

١١٣ - سيرة عمر بن عبد العزيز.

١١٤ - السيرة النبوية (وهي في تاريخ الإسلام).

١١٥ - فتح المطالب في مناقب على بن أبي طالب.

١١٦ - قض نهارك بأخبار ابن المبارك.

١١٧ - مناقب البخاري.

١١٨ - نعم السمر في سيرة عمر.

١١٩ - نفض الجعبة في أخبار شعبة.

١٢٠ - سيرة لنفسه.

عاشرًا: المنوعات:

١٢١ - بيان زغل العلم والطلب.

١٢٢ - التمسك بالسنن.

١٢٣ - جزء في فضل آية الكرسي.

١٢٤ - الطب النبوي (وينسب لغيره أيضا).

١٢٥ - كسر وثن رتن.

أحد عشر: المختصرات والمنتقيات:

١٢٦ - أحاديث مختارة من الموضاعات من " الأباطيل " للجورقاني.

١٢٧ - بلبل الروض.

١٢٨ - تجريد أسماء الصحابة. اختصره من " أسد الغابة " لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

١٢٩ - تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

١٣٠ - ترتيب " الموضوعات " لابن الجوزي.

١٣١ - تلخيص " العلل المتناهية في الأحاديث الواهية " لابن الجوزي.

١٣٢ - تنقيح كتاب " التحقيق في أحاديث التعليق " لابن الجوزي.

١٣٣ - تهذيب تاريخ علم الدين البرزالي.

١٣٤ - ذكر الجهر بالبسملة مختصرًا. اختصره من تصنيف في هذا الموضوع للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

١٣٥ - الرخصة في الغناء والطرب بشرطه. اختصره من كتاب " السماع " للأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

١٣٦ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة. اختصره من " تهذيب الكمال " لشيخه ورفيقه المزي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ.

١٣٧ - المجرد من " تهذيب الكمال ".

١٣٨ - مختصر " إنباه الرواة على أنباه النحاة " لابن القفطي.

١٣٩ - مختصر " الأنساب " لابي سعد السمعاني.

١٤٠ - مختصر " البعث والنشور " للبيهقي.

١٤١ - مختصر " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي.

١٤٢ - مختصر " تاريخ دمشق " لابن عساكر.

١٤٣ - مختصر " تاريخ مصر " لابن يونس.

١٤٤ - مختصر " تاريخ نيسابور " لأبي عبد الله الحاكم.

١٤٥ - مختصر " تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف " للمزي.

١٤٦ - مختصر " تقويم البلدان " لابي الفدا.

١٤٧ - مختصر " التكملة لكتاب الصلة " لابن الابار.

١٤٨ - مختصر " التكملة لوفيات النقلة " للمنذري.

١٤٩ - مختصر " جامع بيان العلم وفضله " لابن عبد البر.

١٥٠ - مختصر " الجهاد " لبهاء الدين ابن عساكر.

١٥١ - مختصر " ذيل تاريخ بغداد " لأبي سعد السمعاني.

١٥٢ - مختصر " الرد على ابن طاهر " لابن المجد.

١٥٣ - مختصر " الروضتين في أخبار الدولتين " وذيله لأبي

شامة.

١٥٤ - مختصر " الزهد " للبيهقي.

١٥٥ - مختصر " سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة " لابن الإمام.

١٥٦ - مختصر " صلة التكملة لوفيات النقلة " لعز الدين الحسيني.

١٥٧ - مختصر " الضعفاء " لابن الجوزي.

١٥٨ - مختصر " الفاروق في الصفات " لشيخ الإسلام الأنصاري.

١٥٩ - مختصر " القدر " للبيهقي.

١٦٠ - المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن الدبيثي.

١٦١ - مختصر " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.

١٦٢ - مختصر " المستدرك على الصحيحين " لأبي عبد الله الحاكم.

١٦٣ - مختصر " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " للمراكشي.

١٦٤ - مختصر " مناقب سفيان الثوري " لابن الجوزي.

١٦٥ - مختصر " وفيات الاعيان " لابن خلكان.

١٦٦ - مختصر " الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الاحكام " لابن القطان.

١٦٧ - المستحلى في اختصار " المحلى " لابن حزم.

١٦٨ - معرفة التابعين من " الثقات " لابن حبان.

١٦٩ - المقتضب من " تهذيب الكمال " للمزي.

١٧٠ - المقتنى في سرد الكنى. اختصره من كتاب " الكنى " لابي أحمد الحاكم المتوفى سنة ٣٧٨).

١٧١ - المنتخب من " التاريخ المجدد لمدينة السلام " لابن النجار البغدادي.

١٧٢ - منتقى " الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، لابن عبد البر.

١٧٣ - المنتقى من تاريخ أبي الفدا.

١٧٤ - المنتقى من " تاريخ خوارزم " لابن أرسلان الخوارزمي.

١٧٥ - المنتقى من " مسند " أبي عوانة.

١٧٦ - المنتقى من " مسند " عبد بن حميد.

١٧٧ - المنتقى من " معجم شيوخ " يوسف بن خليل الدمشقي.

١٧٨ - المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المقلين لدعلج.

١٧٩ - المنتقى من " معرفة الصحابة " لابن مندة.

١٨٠ - مهذب " السنن الكبرى " للبيهقي.

١٨٢ - نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري.

١٨٣ - النبلاء في شيوخ السنة. اختصره من كتاب " المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الائمة النبل " لابن عساكر.

اثنا عشر: التخاريج:

قام الذهبي بتخريج عدد كبير من معجمات الشيوخ والمشيخات والأربعينات والأجزاء الحديثية الكبيرة والصغيرة، منها:

أ – معجمات الشيوخ:

١٨٤ - معجم شيوخ ابن البالسي المتوفى سنة ٧١١ هـ.

١٨٥ - معجم شيوخ ابن حبيب الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ.

١٨٦ - معجم شيوخ علاء الدين ابن العطار الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٤ هـ.

١٨٧ - المعجم العلي للقاضي الحنبلي (أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي المتوفى سنة ٧١٥ هـ).

ب - المشيخات:

١٨٨ - مشيخة التلي (محمد بن أحمد الصالحي الخياط المتوفى سنة ٧٤١ هـ).

١٨٩ - مشيخة الجعبري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ.

١٩٠ - مشيخة ابن الزراد الحريري المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١٩١ - مشيخة عز الدين المقدسي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ.

١٩٢ - مشيخة ابن القواس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ.

١٩٣ - مشيخة زين الدين الكحال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

ج - الأربعينات:

١٩٤ - أربعون حديثًا بلدانية من " المعجم الصغير " للطبراني.

١٩٥ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم " ابن جميع الصيداوي.

١٩٦ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم شيوخ " أبي بكر المقدسي

المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

١٩٧ - أربعون حديثًا بلدانية من " معجم شيوخ " ابن زاذان المتوفى سنة ٤٨١ هـ.

١٩٨ - أربعون حديثًا لأبي المعالي الإبرقوهي المتوفى سنة ٧٠١ هـ.

١٩٩ - أربعون حديثًا لابنه أبي هريرة عبد الرحمان المتوفى

سنة ٧٩٩ هـ.

د – الثلاثينات:

٢٠٠ - ثلاثون حديثًا من " المعجم الصغير " للطبراني.

هـ – العوالي:

٢٠١ - عوالي الشمس ابن الواسطي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ.

٢٠٢ - عوالي الطاووسي المتوفى سنة ٧٠٤ هـ.

٢٠٣ - عوالي أبي عبد الله بن اليونيني المتوفى سنة ٧٤٧ هـ.

٢٠٤ - العوالي من حديث مالك بن أنس.

٢٠٥ - العوالي المنتقاة من حديث الذهبي.

و– الاجزاء:

٢٠٦ - الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار.

٢٠٧ - جزء من حديث القزويني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ.

٢٠٨ - جزء من حديث أبي بكر المرسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

٢٠٩ - جزء من حديث ابن المحب المقدسي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

٢١٠ - جزء من حديث ابن الكويك المتوفى سنة ٧٣٤ هـ.

٢١١ - جزء من حديث أمين الدين الواني المتوفى سنة ٧٣٥ هـ.

٢١٢ - جزء من حديث ابن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٦٧ هـ.

٢١٣ - أحاديث " مختصر " ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

٢١٤ - ثلاثيات ابن ماجة.

٢١٥ - المنتقى من حديث تقي الدين ابن الشيخ شمس الدين بن المجد البعلي.

وتوفي الذهبي رحمه الله تعالى قبل منتصف ليلة الاثنين، ثالث

ذي القعدة، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكان قد بلغ من العمر حينذاك خمسة وسبعين عاماً وسبعة أشهر.

وكانت وفاته بدمشق، ودفن رحمه الله بمقبرة الباب الصغير، وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء، وكان رحمه الله قد كف بصره قبل موته بسبع سنين. قال تلميذه الحسيني: " أضر في سنة إحدى وأربعين، ومات في ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق، ودفن في مقبرة الباب الصغير رحمه الله تعالى " (١).

* * *

(١) مصادر ترجمة الإمام الذهبي: الوافي بالوفيات للصفدي (١٦٣/٢). البداية والنهاية لابن كثير (٢٢٥/١٤). شذرات الذهب لابن العماد (١٥٣/٦). طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥١٧). طبقات الشافعية الكبرى (١٠٠/٩، ترجمة رقم ١٣٠٦). الدرر الكامنة لابن حجر (٤٢٦/٣). البدر الطالع للشوكاني (١١٠/٢). غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (٧١/٢). النجوم الزاهرة (١٨٢/١٠). نكت الهميان للصفدي (ص٢٤١). ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص٣٤، ٣٤٧). الرد الوافر لابن ناصر الدين (ص٣١ - ٣٢). رونق الألفاظ لسبط ابن حجر (ق١٨٠). مقدمة سير أعلام النبلاء لبشار عواد (٧/١ - ١٤٦). الذهبي ومنهجه في كتابه التاريخ لبشار عواد.
طبقات الشافعية للإسنوي (٥٥٨/١، ترجمة رقم ٥١٤). الدارس في أخبار المدارس (٧٨/١). وفيات الأعيان (٣٧٠/٢، ترجمة رقم ٣٩١). الدليل الشافي على المنهل الصافي (٥٩١/٢، ترجمة رقم ٢٠٢٩). هدية العارفين (٢٨٩/٨). الأعلام (٢٢٢/٦). معجم المؤلفين (٢٨٩/٨).، كتاب العرش، تحقيق: محمد بن خليفة بن على التميمي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط الثانية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مقدمة كتاب سير أعلام النبلاء طبعة دار الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط. مقدمة كتاب الكبائر، تحقيق عبد المحسن قاسم البزاز، ط دار الصابوني، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

المؤرخ المقريزي

من مشاهير أعلام المسلمين

المؤرخ المقريزي [1]

هو أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم تقي الدين المقريزي، (بفتح الميم نسبة إلى مقريز - محلة من بعلبكّ) البعلي ثم المصري الفقيه المؤرخ الشافعيّ. وأصله من (بعلبك)، ثم هاجرت أسرته واستقر بها المقام في مصر.

ولد سنة (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م) بحارة برجوان، بقسم الجمالية،

(١) مصادر ترجمة المقريزي: - (هدية العارفين للبغدادي): ٥/ ١٢٧.
- (السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي): ١/ ٢٢ - ٢٣، ٣/ ٥٢ وما بعدها.
- (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر): ٢/ ٢٩١ - دار الجيل - بيروت.
- (إنباء الغمر لابن حجر): ٩/ ١٧١ - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.
- (دراسات عن المقريزي)، د. محمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال، في آخرين، هيئة الكتاب - القاهرة. - (المقريزي مؤرخًا): د. محمد كمال الدين عز الدين على، رقم (٦) من سلسلة المؤرخين، عالم الكتب - القاهرة.
- (أربعة مؤرخين، وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة): د. محمد كمال الدين عز على رقم (٥٣) من سلسلة تاريخ المصريين - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربيّ إلى نهاية العصر المملوكي): د. سهام مصطفى أبو زيد - هيئة الكتاب القاهرة.
- (البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك): أحمد عبد الرزاق أحمد، دراسة عن الرشوة - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (المقريزي وكتابه درر العقود الفريدة - في تراجم الأعيان المفيدة): دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين على - عالم الكتب - القاهرة.
- (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ) للمقريزي: المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور.
- (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي للمقريزي): المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور، هو والّذي قبله، طبع دار الاعتصام - القاهرة.

بمحافظة القاهرة، بمصر.

نشأ المقريزي في أسرة معروفة بالاشتغال بالعلم في دمشق وبعلبكّ والقاهرة. وعبر عشرين سنة - هي سنوات طفولته ومراهقته وشبابه - شهد المقريزي حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شؤون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك، ستارا رقيقا شفافا ساذجا يعملون من ورائه لتحقيق مطامعهم.

ثقافته:

وفي وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة، عكف الشاب أحمد المقريزي على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته، وهي دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ودراسة الفقه والتفسير، والحديث، وبعض العلوم الأخرى مثلي التاريخ، وتقويم البلدان، والأدب، والحساب.

مصادر ثقافته:

ترجع مصادر ثقافة المقريزي إلى:

١ - أنه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب في مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة في عصره، والدليل واضح في الكثرة الكثيرة من المراجع التي أشارت في مؤلفاته إلى أنه رجع إليها وأخذ عنها.

٢ - أنه ولى وظائف كثيرة مختلفة، مكنته من التعرف على دولاب العمل وكيف يدار، وعلى مختلف النظم الإدارية والمالية، وعلى أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية.

٣ - اشتغاله بعلمي الحديث والتاريخ، وهما علمان يعتمدان أصلا على الجرح والتعديل، والنقد والتحليل، والتثبت من كل قول، أو رواية أو حقيقة علمية.

شخصية المقريزي:

أودع المقريزي في صفحة العنوان من كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك)، شيئًا من صفاته الشخصية، حيث يقول بعد كتابة اسم الكتاب واسمه هو، وكأنما يخاطب نفسه:

(لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته، ولا جعل يدك السفلي لمن كانت عليه هي العليا، وأعاذك من عز مفقود، وعيش مجهود، وأحياك ما كانت الحياة أجمل لك، وتوفاك إذا كانت الوفاة أصلح لك، بعد عمر مديد، وسمو بعيد، وختم بالحسنى عملك، وبلغك في الأولى أملك، وسدد فيها مضطربك، وأحسن في الأخرى منقلبك، إنه سميع قريب، جواد منيب).

الوظائف التي تولاها المقريزي:

التحق المقريزي بالخدمة الحكومية، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من (أهل العلم والمعرفة) وهي التسمية المخصصة لهذه الطبقة تمييزا لها عن طبقة (أهل السيف) وهم المماليك وحدهم، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية والشامية جميعا.

وأول عهد المقريزي بالخدم الحكومية كأبيه من قبله: (ديوان الإنشاء بالقلعة)، وهو الديوان الّذي يقابله في العصر الحاضر (وزارة الخارجية)، فعمل المقريزي الشاب سنة ١٣٨٨ م موقعًا - أي كاتبًا - وهي وظيفة لا يبلغها وقتذاك سوى أصحاب الموهبة والمعرفة والتفوق في اللغة والأدب والتاريخ. ثم تعين المقريزي نائبا من نواب الحكم، أي: قاضيًا عند قاضي قضاة الشافعية بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعيّ منذ أيام دراسته، وتحوله عن مذهب الحنفية الّذي نشأ فيه، ثم صار المقريزي إمام الجامع الحاكم الفاطمي، وهي وظيفة في ذلك العصر.

وتولى المقريزي بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة

المؤيدية، وهي وظيفة يقابلها في المصطلح الجامعي في العصر الحاضر (أستاذ ذو كرسي).

- وربما كان تعيين أحمد المقريزي في تلك الوظيفة التعليمية بتوصية خاصة من أستاذه (عبد الرحمن بن خلدون) لدى صديقه (السلطان برقوق).

ثم انتقل المقريزي من التدريس إلى الحسبة حين عينه (السلطان برقوق) سنة ١٣٩٨ م محتسبًا للقاهرة والوجه البحري، فانتقل بذلك من دائرة الإدارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع، ذلك أن وظيفة المحتسب التي يقابلها في الوقت الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقت ذاك النظر في الأسعار الجارية، وأحوال النقود، وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس، ومراقبة الآداب العامة ونظافة الشوارع، وتنظيم حركة المرور، مع الإشراف على المدارس والمدرسين والطلاب، والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات، فضلا عن مراقبة أصحاب الصناعات الفنية من الأطباء، والصيادلة، والمعلمين (أي المهندسين المعماريين).

ويضاف إلى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة في اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجائلين، والمتعيشين، والشحاذين، والمتعطلين الذين كانوا خطرا دائما على الأمن.

ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسؤوليتها أن أحمد بن على المقريزي الّذي تعين عليها بأمر (السلطان برقوق)، لا بدّ أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة في الإدارة والأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية.

غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين في عامين متتالين، إذ ضاق بمسؤوليتها التي شغلت وقته ليلا ونهارا، وصرفته عن القراءة، وتطلبت منه الجلوس في دكة المحتسب - (بوابة المتولي الحالية) - للفصل في شكاوى السوق والسوقة، وتوقيع

عقوبات على المخالفين، وإصدار الأوامر إلى العرفاء والأعوان والنقباء، مع العلم بأن وظيفة (محتسب القاهرة) شملت الوجه البحري كله.

مؤلفات المقريزي:

ترك المقريزي - رحمه الله - مؤلفات عديدة، في مجال التاريخ، والأنساب، والعقائد، والفقه، والأدب، والعلوم البحتة، زادت على نحو مائتي مجلد كبار في مكتبات العالم، أو المثبت عنواناته لدى من ترجم له، أو اعتني بالفهرسة العامة للمؤلفات العربية، ويمكن إجمال مؤلفاته على النحو التالي:

١ - (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء):

أرخ فيه المقريزي للدولة الفاطمية منذ قيامها في المغرب العربيّ، وحتى سقوطها في مصر، مترجما لخلفائها، مشيرا من خلال ترجماتهم إلى الحوادث الواقعة في زمانهم، وقد انتظمتها عدة حوليات متتابعة، مقدما لترجماتهم بالحديث عن أولاد على بن أبي طالب وأعقابهم، مع تحقيق نسب الخلفاء الفاطميين، والتعريف بنشأة دولتهم في المغرب العربيّ، ومذيلاً عليها بالتعريف برسوم دولتهم في مصر، وما عابه الفقهاء والمؤرخون عليهم، فضلا عما صار إليه أمر أهليهم وذويهم، بعد سقوط دولتهم في مصر.

نشره بالقاهرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، فيما بين سنتي (١٩٦٧)، (١٩٧٣)، في ثلاثة أجزاء بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، والدكتور محمد حلمي عبد الهادي.

٢ - (أخبار قبط مصر):

وهو في تاريخ الأقباط، مستخرج من كتاب (المواعظ والاعتبار).

نشره هماكر بأمستردام سنة (١٨٢٤)، ونشره وستنفيلد بغوطا سنة (١٨٤٥).

٣ - (الإخبار عن الأعذار):

عالج المقريزي من خلاله موضوعا تاريخيا اجتماعيا، يدور حول ما يقام من ولائم في البناء (الزواج)، والختان. ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٢.

٤ - (إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء):

ذكره ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، منه نسخة في دار الكتب (فهرس الخديوية): ٧/ ٥٦٤، ونسحة بالمكتبة الوطنية بباريس.

٥ - (الإشارة والإيماء في حل لغز الماء):

وهو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي يوم الثلاثاء، لأربع عشر ليلة خلت من المحرم سنة (٨٢٣ ه، ١٤٢٠ م) على سبيل التسلية، مستعرضا من خلالها معارفه الأدبية، واللغوية والبلاغية، والفقهية، والعلمية البحتة، وهي تدور حول حل (تفسير) لغز الماء. لكن يعيب هذا المؤلف ما تخلل مادته من التسليم ببعض الخرافات ومستغربات الحدوث، مع احتوائه على بعض المعاني المستغلقة، بعيدة المرمى، تحتاج إلى إيضاح.

توجد منه عدة نسخ خطية، في مسودتين، تحتفظ بهما مكتبة جامعة القاهرة، تحت رقمي (٢٢٠٧٥) و(٢٦٢٤٧) ضمن مجموع رسائل المقريزي - رحمه الله - ومنه نسخة في دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٣/ ١٢، ونسخة في مكتبة نور العثمانية في استامبول برقم (٤٩٣٧/ ٠١٥).

٦ - (الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام):

أو تاريخ بناء الكعبة ذكره المقريزيّ - رحمه الله - في (الذهب المسبوك): ٢٦. منه نسخة خطية في دار الكتب الظاهرية بدمشق، وهي بخط المؤلف برقم (٤٨٠٥)، وليدن برقم (٩٤٣).

٧ - (إغاثة الأمة بكشف الغمة):

وهي رسالة لطيفة الحجم، فرغ المقريزيّ - رحمه الله - من تأليفها في المحرم سنة (٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ م) كما ذكره هو في (إغاثة الأمة): ٤٣، ٨٦، على أثر المجاعات والكوارث الاقتصادية، التي لحقت بمصر فيما بين عامين (٧٩٦ هـ)، (٨٠٨ هـ) عارضًا من خلالها لما حل بمصر من غلاء، وما ترتيب عليه من مجاعات أو كوارث مجيحة فيما قبل نشوء الإسلام وبعده، حتى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، محصيًا منها ستًّا وعشرين حادثة، خصّ مصر الإسلامية منها عشرين، وردت على سبيل التمثيل لا الحصر وقد أشير من خلالها إلى أن فيها ما هو أشدّ وأنكى من المحن المعاصرة، معللاً لهذه المحن بأسباب طبيعية، كقصور جري النيل في مصر، وعدم نزول المطر في الشام، والعراق، والحجاز، وما يصيب الغلال من الآفات وسمائم الرياح.

وأخرى غير طبيعية، ترجع إلى سوء تدبير ولاة الأمور، وتتحصر في أمور ثلاثة، هي:

١ - ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشاء.

٢ - غلاء إيجار الأطيان الزراعية على مبلغ ما تغله الأرض من محصول.

٣ - رواج الفلوس النحاسية.

وفي هذا العامل الأخير يكمن لب المشكلة وحلها في رأي المقريزيّ - رحمه الله - ولذا صرف جل اهتمامه إليه، مستطردا منه إلى ثلاثة موضوعات، هي:

١ - النقد الإسلامي، وتطور سك العملة، وأثره في النظام النقدي في مصر.

٢ - نشأة الفلوس المضروبة من النحاس الأحمر في مصر، وتراجع الدراهم المضروبة من الذهب لعدم ضربها، وسبكها حليا.

٣ - أسعار النقد (ذهبا وفضة)، وبعض السلع الرئيسية من المحاصيل الزراعية.

لكن شاب هذه الرسالة - كذلك - تسليم المقريزيّ - رحمه الله - من خلال مادتها بكثير مما جاء في مصادره من المبالغات، أو مستغربات الحدوث، في مصر والشام. ومن ذلك إشارته إلى نطق ثور جبة عسال - قرية من قرى دمشق بالشام -.

منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٥/ ٣٦، ونسخة خطية في مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١).

نشره في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٥٧ م، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، والدكتور جمال الدين الشيال.

٨ - (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام):

هو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي - رحمه الله - أثناء مجاورته في مكة سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥ - ١٤٣٦ م)، مرتبا لها على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة قصيرة جدا، اقتصر فيها على الصلاة والتسليم.

منه نسخ خطية في: مكتبة جامعة ليدن برقم (٩٩٢)، (٩٩٣)، مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١١)، دار الكتب المصرية برقم (٥٠٠) (فهرس الدار): (٥/ ٣٨) مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ هـ). وظهرت لهذا الكتاب طبعتان: نشره رينك، ليدن، سنة (١٧٩٠م)، نشر في القاهرة سنة (١٣١٣ هـ).

٩ - (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع):

وهو مؤلف مطول في سيرة الرسول ﷺ، جمع مادته من مصادر رئيسية ومتعددة، محررا فيه الخلاف حول كثير من الوقائع، مع العناية بتحقيق الكثير من المسائل الفقهية المتصلة بحوادث السيرة، حدّث به المقريزيّ في مكة، أثناء مجاورته فيها سنتي (٨٣٤ هـ)

(١٤٣١ م)، (٨٣٩ هـ) (١٤٣٦ م).

توجد منه نسخ خطية محتفظ بها في مكتبة كوبريللي - تركيا برقم (١٠٠٤)، كتبت في شوال سنة (٨٣٩ هـ/ ١٥٦١ م)، كوبريللي زاده محمد باشا كتابخانه سند محفوظ، صحيفة (٦٦) وهي في جزء واحد ضخم، تقع في ستة أجزاء ضخمة، ضمت (٩١٩) ورقة، مقاسها ٢٧ ٤٠ سم، ومسطرتها نحو ٣٥ سطرا، وعنها مصورتي: دار الكتب المصرية في القاهرة، برقم (٨٨٦) تاريخ، ومعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٦٣) تاريخ، لكن عدد صفحاتها (١٨٣٩) صفحة نسخة بمكتبة غوطا برقم (١٨٣٠)، وهي في ستة أجزاء، وهي ناقصة، وقد أنكر أمناء مكتبة غوطا أن تكون في ستة أجزاء، نسخة في مكتبة ليدن، برقم (٨٧١)، وهي نسخة صغيرة ناقصة جدا، كما توجد نسخة أخرى في خزانة عموجة حسين باشا في الآستانة، برقم (٣٥٤) طبع الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة (١٩٤١)، على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية. ثم طبع نفس الجزء مصورا على الأوفست في دولة قطر بإشراف الشيخ عبد الله الأنصاري. ثم طبع الجزء الأول مرة أخرى، نشرته دار الأنصار بالقاهرة (١٩٨١)، ثم أعيد نشر الكتاب كاملاً بالمقدمة والفهارس في سبعة عشر مجلدًا، نشرته دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (١٩٩٨).

١٠ – **(الأوزان والأكيال الشرعية):**

وهي رسالة في الموازين والمكاييل، منها نسخة خطية في: مكتبة ليدن، برقم (١٠١٤)، دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية): (٥/ ١٨٦).

نشرها تيكس، روستوك بألمانيا سنة (١٧٩٧ م)، (١٨٠٠ م).

١١ – **(البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد):**

منه نسختان خطيتان في ليدن، (فهرس أمين المدني) برقم ١٨٨،

وهـي بخـط المؤلـف، دار الكتـب المصـرية، (فهـرس الخديويـة): ٧/ ٥٦٥، لكــن جــاء فــي فهــرس المخطوطــات المصــورة بمعهــد المخطوطـات العربيـة بالقـاهرة، أن هـذه المخطوطـة تصـنيف أحـد علمـاء المائـة الثامنـة الهجريـة، وأن المقريـزي - رحمـه الله - ناسـخها فقط، (فهرس المخطوطات المصورة):١/ ١١٩، عمود ٢.

١٢ - (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب):

هـي رسـالة لطيفـة الحجـم، كتبهـا المقريـزي - رحمـه الله - سـنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م) مشيرًا من خلالهـا إلـى القبائـل العربيـة التـي دخلت مصر مع الفتح العربيّ، وأماكن وجودها في عصره، مقررًا أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر، وجهلت أكثر أعقابهم، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر حضرت لديه ست عشرة قبيلة، وهي ثعلبة، وجرم، وسنبس، وجذام وبني هلال، وبلـى وجهينــة، وقـريش، وكنانــة والأنصــار، وعـوف، وفـزارة، ولواتــه، ولخم، وحرام، وبني سليم، غير مرتب لها على حروف المعجم، ولا علـى أصـول الأنسـاب: (قحطانيـة وعدنانيـة)، أو بحسـب منـازلهم فـي مصـر، فأتـت أشـبه شـي ء بمذكرات كتبـت علـى عجـل، وعلـي غيـر نظام واضح.

منـه نسـخة خطيـة فـي: دار الكتـب المصـرية (فهـرس الـدار): ٥/ ٦٤، مكتبـة جامعة كمبرج، برقم (١٥٧)، مكتبـة نـور العثمانيـة، بـرقم (٤٩٣٧/ ١٠)، مكتبــة ليــدن، بــرقم (٩٧٥)، المكتبــة الوطنيــة فــي باريس، برقم (١٧٢٥)، مكتبة فينة برقم (٩١٠). ظهرت لهذا الكتاب طبعتان:

نشـره وسـتنفلد، غوطـا سـنة (١٨٤٧ م)، نشـر فـي القـاهرة سـنة (١٣٣٤ هـ)، ثـم أعـاد نشـره محققًـا الـدكتور عبـد الحميـد عابـدين، القــاهرة، عــالم الكتــب، ط ١ ســنة ١٩٦١، مــع دراســة عــن تــاريخ العروبة في وادي النيل.

١٣ - (التاريخ الكبير المقفى في تاريخ أهل مصر والواردين عليها):

هو معجم تأريخي ضخم، أتي في ست عشرة مجلدة، ترجم المقريزي - رحمه الله - فيه لمشاهير أهل مصر، فيما قبل الإسلام وبعده حتى وقته، على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، ممن استقروا فيها، أو تحولوا عنها إلى غيرها من البلدان (ميتا محنطا) أو (رأسا مقطوعة)، حيث يقول (لما دخل المعز لدين الله أبو تميم معد إلى القاهرة، كان معه توابيت آبائه: المنصور إسماعيل - هذا - والقائم أبي القاسم محمد، والمهدي عبيد الله، فدفنهم بتربة القصر من القاهرة، فلذلك ذكرته في كتابي هذا). (المقفى): كما ترجم لخلف بن جبير، أحد ثوار المغرب، وقد قتل في المغرب، وطيف برأسه في القيروان، ثم حملت إلى مصر فطيف بها في القاهرة. (المقفى)، أشار المقريزي - رحمه الله - إلى هذا الكتاب في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٢٦٦ بتحقيقنا.

منه نسخة خطية في مكتبة باريس، برقم (٢١٤٤)، بخط المؤلف - رحمه الله - ميونخ برقم (٩٥٧)، ليدن، بأرقام (١٠٣٢)، (١٨٤٧)، (١٨٥١)، تم نشره بتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، الغرب الإسلامي، ط ١، سنة ١٩٨٧.

١٤ - (تاريخ بناء الكعبة):

منه نسخة خطية في: دار الكتب الظاهرية في دمشق، وهي بخط المؤلف، ونسخة في مكتبة ليدن، برقم (٩٤٣)، نسخة بالظاهرية في دمشق، برقم (٤٨٠٥).

١٥ - (تجريد التوحيد المفيد):

هو مؤلف لطيف الحجم، يدور موضوعة حول علم التوحيد، أجمل المقريزي - رحمه الله - الإشارة إليه في مقدمته بقوله وبعد، فهذا كتاب جم الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، سميته: تجريد التوحيد المفيد، والله أسأل العون على العمل

بمنه وكرمه.

وهذا المؤلف على وجازته لم يأت مؤرخنا فيه بموضوع ديني تقليدي، وإنما أحاط فيه إلى جانب ذلك بالتعريف بكثير من الفرق الإسلامية، ذاكرا من خلالها مذاهبها وأدلتها، مناقشا لها.

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١١)، مكتبة البلدية بالإسكندرية، برقم (٩٩/ ٦) فنون، ومكتبة نور عثمانية، برقم (٥٩٣٧/ ٠٢)، مكتبة باريس برقم ٠١٢، مكتبة جامعة برنستن (مجموعة كاريت) برقم (٠١٤٩٦)، مكتبة ليدن (هوتسما)، برقم (٩٩٣).

وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة (١٣٤٣ هـ)، ثم طبع في المطبعة المنيرية بالقاهرة، سنة (١٣٧٣ هـ) بتحقيق طه الزيني.

١٦ - (التذكرة):

هو مؤلف في التاريخ - كما يوهم ملخصه - أشار إليه ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، إلى أنه كمل منه ثمانون مجلدا.

١٧ - (تراجم ملوك المغرب):

احتوى على بعض ترجمات ملوك المغرب العربيّ، وقد يكون مذكرات جمعها المقريزي - رحمه الله - من المصادر للانتفاع بها في بعض مؤلفاته، مقدمة تحقيق (اتعاظ الحنفاء): ١/ ١٤، بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. فيه أخبار أبي حمو، وأخلافه من ملوك تلمسان.

١٨ - (تلقيح العقول والآراء، في تنقيح، أخبار الجلة الوزراء):

ذكره المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ١/ ٤٤٣، ٢/ ٢٢٣.

١٩ - (جني الأزهار من الروض المعصار):

منه نسخة خطية في مكتبة برلين، برقم (٦٠٤٩)، مكتبة فينه،

برقم (١٢٦٦)، دار الكتب المصرية، (فهرس الدار): ٦/ ٢٥، مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ هـ).

٢٠ - (حصول الإنعام والمير، في سؤال خاتمة الخير):

هي رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول سؤال العبد ربه - تعالى - أن يختم له ولأخيه المؤمن بخير، مستلهما ذلك من قول يوسف - عليه السلام - مناجيا ربه: تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (يوسف: ١٠١).

٢١ - (الخبر عن البشر):

هو مؤلف ضخم، جعله المقريزي - رحمه الله - مدخلا لكتاب (إمتاع الأسماع)، مؤرخا من خلاله للخليقة حتى ظهور الإسلام، هادفا من وراء ذلك إلى التعريف بقبائل العرب، وتمييزها من سائر الأجناس، ليعرف لها حقها من المحبة والإعظام، والتجلة والإكرام لكونه ﷺ هاشميا، قرشيا، عربيا.

قال عنه المقريزي - رحمه الله -: ثم لما رأيت فضل الله على - بما علمني وفهمني - عظيما، ومنته وطوله - بما رزقني من كثرة الإشراف على مقالات الخليقة - جسيما، جعلته كتابا مستقلا، لاتساعه وكثرة فوائده، وشرف أوضاعه، وسميته: (الخبر عن البشر): ورقة ٤ أ، مخطوطة تونس.

وترجع أهمية هذا الكتاب - كذلك - إلى احتوائه - فضلاً عن ذلك - على مادة رئيسية، تكشف عن مفهوم المقريزي - رحمه الله - لموضوع (علم التاريخ)، وأقسامه، وإقراره بفوائده، وتحمسه للدفاع عنه.

ومنه/ نسخة خطية في ليدن، برقم ١٠٨٠،، ونسخة في مكتبة أياصوفيا في الآستانة، تقع في ستة أجزاء متسلسلة، أرقام (٣٣٦٢) حتى (٣٣٤١)، وتشمل الأجزاء ١، ٤، ٥، ٦ (غير متسلسلة). (دفتر كتب خانة أياصوفيا): ص ٢٠٢، (دفتر فاتح كتبخانه سي): ص

٢٤٨.

٢٢ – (خلاصة التبر في كتاب السر):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ٢/ ٦٣.

٢٣ – (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة):

هو معجم في ترجمات أعيان عصر المقريزي - رحمه الله - أشار في مقدمته إلى دافعه لتأليفه، قائلا وبعد، فإنّي ما ناهزت من سنى العمر الخمسين، حتى فقدت معظم الأصحاب والأقربين، فاشتد حزني لفقدهم، وتنغص عيشي من بعدهم، فعزيت النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوضتها عن مشاهدتهم باستماع أخبارهم، وأمليت ما حضرني من أنبائهم في هذا الكتاب وسميته (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة).

له نسخة في مكتبة غوطا، المجلد الأول منها بخط المؤلف - رحمه الله -، ونسخة في الموصل، لدى الدكتور محمود الجليلي، في جزأين، تاريخهما (٨٧٨ هـ) وعن هذه النسخة الأخيرة تم نشر (٣٠٠) ترجمة - حيث يحتوي الكتاب على (٥٥٦) ترجمة - بعالم الكتب - بيروت سنة (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م)، بتحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين على، بعد تصديره بدراسة وافية عن المؤلف والكتاب بشكل موسوعي يستحق التقدير.

٢٤ – (الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية):

منه نسخة خطية في كمبرج، برقم (٣٦٥)، أشار إليه السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٢٥ – (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك):

رسالة لطيفة الحجم يدور موضوعها حول التأريخ لمن حج من الخلفاء والملوك في خلافته أو ملكه، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تصنيفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م)، مرتبا لها

على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

- أما المقدمة، فقد أشار فيها إلى تسميته للكتاب، مهديا إياه إلى شخصية كبيرة في عصره، عزمت على الحج، لم يفصح عن اسمها.

- وأما الفصول، فقد أجمل في أولها الإشارة إلى (حجة الوداع)، لكونه ﷺ هو الّذي بين للناس معالم دينهم، مشيرًا من خلال ذلك إلى بعض شعائر الحج والعمرة، كالقران، والتمتع، والهدي.

وجعل ثانيها من حج من الخلفاء في خلافته، مترجما من خلاله بترجمات قصيرة لثلاثة عشر خليفة، مؤرخًا لحجهم.

وجعل ثالثها للترجمة لثلاثة عشر ملكًا أو سلطانًا ممن حج في ملكه أو سلطنته، منذ انقسمت الخلافة الإسلامية إلى دويلات يحكمها ملوك، وحتى عهد الأشرف شعبان - أحد سلاطين المماليك - مع التأريخ لحجهم.

- وأما الخاتمة، فقد أتت مقتضبة للغاية، تبين عن الفراغ من كتابته، وانتهاء مادته، على النحو التالي:

"... والله - سبحانه - هو أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم - والحمد لله رب العالمين.

منه له نسخة خطية في: مكتبة الاسكوريال (في إسبانيا)، برقم (١٧٧١)، مكتبة كمبرج، برقم (٤٤٢)، (٤٤٣)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٦/ ٤٩٣٧).

٢٦ - (رسالة في حرص النفوس على الذكر):

رسالة لطيفة الحجم، أنشأها المقريزي - رحمه الله - هادفا من خلالها إلى الترغيب في عمل الخير، مقدما لموضوعه بقوله:

".. وبعد فهذه مقالة لطيفة، وتحفة سنية شريفة، في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر، أسأل الله - تعالى - أن يجعل لنا

ثناء حسنا في الصالحين، وأن يحبونا بالزلفى إلى يوم الدين بمنه وكرمه.

متبعا ذلك بموضوع الكتاب، وقد أشار من خلال مادته إلى أن البقاء من أعظم وأحسن صفات الله - تعالى - في حين ليس للعبد من نفسه إلا العدم، والفاضل هو الّذي يحرص على بقاء ذكره دائما، على النحو الوارد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم - عليه السلام - {وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤} [الشعراء: ٨٤].

منه نسخة خطية في: خزانة ولي الدين في الآستانة، ضمن مجموع خطي يشمل خمس عشرة رسالة كلها للمقريزي - رحمه الله - برقم (٣١٩٥) راجع دفتر كتابخانه. ولي الدين، صحيفة (١٩٥)، مكتبة جامعة القاهرة برقم (١١/ ٢٦٢٤٧). وقد نشره في القاهرة الخانجي سنة (١٩٥٥) بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال.

منه نسخة خطية في خزانة ولي الدين في الآستانة، وقد جاء في (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان: ٣/ ١٨٧، أن اسم هذا المخطوط: (مقالة لطيفة في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر)، وأنه محفوظ في المتحف البريطاني في لندن.

٢٧ – (السلوك في معرفة دول الملوك):

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٥/ ١٢٩، المكتبة الظاهرية بدمشق، مجلد رقم (٧٣٠٤)، مكتبة كوبريللي برقم (١١٣٧)، مكتبة بني جامع (ضمن المكتبة السليمانية في استامبول)، برقم (٨٨٧)، مكتبة باتنا في الهند، برقم ١/ ١٦٦ (٢٢٢٣)، مكتبة غوطا، برقم (١٦٢٠)، (١٦٢١)، مكتبة باريس، برقم (١٧٢٦)، (١٧٢٨)، مكتبة الفاتيكان، (٥/ ٧٢٥)، مكتبة جستربتي في دبلن، (فيها المجلد الثامن منه) برقم (٤١٠٢)، مكتبة المتحف البريطاني، الذيل: (٤٨٠).

طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة في أربعة أجزاء على النحو

التالي:

- الجزء الأول في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٣٤-١٩٣٩).

- الجزء الثاني في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٤١-١٩٥٨).

- الجزء الثالث في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٠ - ١٩٧٢).

- الجزء الرابع في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٢ - ١٩٧٣).

٢٨ - (شارع النجاة):

أشار السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، إلى أنه يشتمل على جميع ما اختلفت فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها، مع أدلتها، وتوجيه الحق منها، ذكره المقريزي - رحمه الله - في (الذهب المسبوك)، ٥، ٧.

٢٩ - (شذور العقود في ذكر النقود):

رسالة لطيفة الحجم، انقسمت إلى مقدمة وخاتمة، فيما بينها ثلاثة فصول.

- أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب: " نبذة لطيفة في أمور النقود الإسلامية ". وأنه أنشأه تلبية (للأمر العالي) الّذي يرجح أن يكون شخصية كبيرة في بلاط المؤيد (شيخ المحمودي).

- وأما الفصل الأول فقد جعله للحديث عن (النقود القديمة)، التي كانت على وجه الدهر، وجعل الفصل الثاني للتعريف ب (النقود الإسلامية) - نشأتها وتطورها - وجعل الفصل الثالث للحديث عن (النقود المصرية)، وهو في هذه الفصول الثلاثة يشير إلى أنواع النقود، وأوزانها، وأعيرتها، وزيوفها، وما حدث فيها من التغيير

والتبديل، على اختلاف عصورها.

منه نسخة خطية في: مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧)، مكتبة برلين، برقم (٦٠٢٤)، مكتبة ليدن، برقم (١٠١٢)، (١٠١٣)، مكتبة كمبرج، برقم (٤٧٥)، مكتبة الأسكوريال، برقم (١٧٧١).

وقد ظهرت لهذا الكتاب طبعات مختلفة:

- نشرها تيكسن في روستك (١٧٩٧ م).

- نشرها أحمد فارس الشديقان، مطبعة الجوائب استامبول، (١٢٩٨هـ)، ضمن ثلاث رسائل.

- نشرها ماير، الإسكندرية (١٩٣٣).

- نشرها محمد آل بحر العلوم، النجف (١٩٣٨) ثم توالت طبعات لهذا الكتاب في النجف، فكانت الخامسة سنة (١٩٦٧).

- نشرها الأب أنستاس ماري الكرملي، ضمن كتابه (النقود العربية وعلم النميات، القاهرة (١٩٣٩ م).

٣٠ – (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول صحابي جليل، هو (تميم بن أوس الداريّ) - رحمه الله - وكان نصرانيًّا، جاء الرسول ﷺ، ورأى الرسول ﷺ وأسلم، وروي الرسول ﷺ عنه حديث (الجساسة والمسيخ الدجال)، فانفرد هو من دون الصحابة بذلك، وكانت روايته ﷺ من باب رواية (الفاضل عن المفضول، والمتبوع عن تابعه)، وقد استعرض المقريزي - رحمه الله - من خلال مادتها الحديث عن أنساب الناس وأنساب العرب، وقدوم وفد الداريين على رسول الله ﷺ وإسلام تميم، وتحديثه - عليه السلام - عنه، وإقطاعه إياه قريتي (جبرون وعينون)، ولم يكن فتحهما حدث بعد!! وما كان من أحوال تميم في الجاهلية والإسلام، معددا لمآثره، مؤرخا لوفاته بسنة أربعين للهجرة، مناقشا من خلال تلك الرسالة (قضية الهبة)،

مناقشة فقهية قضائية، مختتما لها بالتعريف بما آل إليه مصير (حبرون وعينون) حتى وقته.

له نسخة خطية في خزانة ولي الدين بالآستانة. تم طبع هذا المخطوط تحت اسم (ضوء الساري في خبر تميم الداريّ)، بتحقيق الأستاذ محمد أحمد عاشور، في دار الاعتصام بالقاهرة وبيروت، سئ (١٣٩٢ هـ)، اعتمادًا على نسختين خطيتين: الأولى منقولة من الخزانة الوليدية في الآستانة - لعلها نفس خزانة ولي الدين آنفة الذكر - ويدل على ذلك الرقم الّذي بينه المحقق، فهو نفس رقم المجموع الّذي منه (ضوء الساري)، والأخرى منقولة عن المكتبة الأهلية في باريس.

٣١ - (الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة):

رسالة لطيفة الحجم، استفاد المقريزي - رحمه الله - مادتها في مكة، أثناء مجاورته فيها سنة (٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م) من بعض القادمين عليه من أهل حضرموت، ابتدأها بمقدمة موجزة، أشار فيها إلى ذلك قائلا: " وبعد، فهذه جملة من اخبار وادي حضرموت، علقتها بمكة - شرفها الله تعالى - أيام مجاورتي بها في عام (تسعة وثلاثين وثمانمائة)، حدثني بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت ".

ثم أتبعها بوصف جغرافي موجز لبلاد حضرموت، وما تردد في بعض المصادر من الاختلاف في نسب (حضرموت)، وما شهرت به هذه البلاد من مزروعات أو حيوان (كالماشية والإبل)، مذيلا عليها بطائفة كبيرة من الروايات الشفهية، المتضمنة الكثير من الخرافات أو مستغربات الحدوث، مما وثق مؤرخنا به، كنحو قوله:

" وفي جبال ظفار قوم يقال لهم: القمر، أهل بادية، وقد جرت العادة في ظفار أنها تمطر ثلاثة أشهر متوالية ليلا ونهارا، مطرا غزيرا جدا فإذا أراد أحد أن يسافر في مدة المطر إلى جهة من

الجهات، طلب واحدا من القمر، ودفع له مالا ليدفع عنه المطر، ثم سار معه والمطر نازل، فيصير عن يمينه وشماله ولا يصيبه هو ولا أحماله منه قطرة واحدة، حتى يبلغ حيث يريد.

له نسخة خطية في مكتبة جستربتي - برقم (٤١١٨/ ٠٢)، مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٤)، مكتبة ليدن، برقم (٨١٠)، مكتبة كمبرج، برقم (٦٥٤)، (٦٥٥)، معهد المخطوطات العربية في الكويت، برقم (٧٧٦/ ٠٢)، المصورة عن مخطوطة (شستربتي)، ومخطوطة ولي الدين في مصورتها المحتفظ بها لدى جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧)، وقد نشرها (نوسكوى) مع ترجمة لاتينية في بون سنة (١٨٦٦).

٣٢ - (عجائب تيمور).

٣٣ - (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في صدر كتابه (اتعاظ الحنفاء):١/ ٤ بقوله: " ضمنته ما وقفت عليه، وأرشدني الله - سبحانه - إليه من أحوال مدينة الفسطاط، منذ افتتح أرض مصر أصحاب رسول الله ﷺ وصارت دار إسلام، إلى أن قدمت جيوش الإمام المعز لدين الله أبي تميم معد من بلاد المغرب، مع عبده وقائده وكاتبه، أبي الحسين جوهر القائد الصقلي، في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ونزلت في شمالي الفسطاط بالمناخ، وأسس مدينة القاهرة، وحل بها "، كما ذكره أيضا في (السلوك): ١/ ٢٨.

وقد اشتمل هذا المؤلف على فترة من تاريخ مصر الإسلامية، امتدت فيما بين الفتحين الإسلامي والفاطمي لها.

٣٤ - (قرض سيرة المؤيد لابن ناهض):

ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٣٥ - (ما شاهده وسمعه مما لم ينقل في كتاب):

يبدو أنه احتوى على كثير من النوادر التاريخية وغير التاريخية، مما عايشه المقريزي - رحمه الله - أو أخبر به، على النحو المدرك من قول السخاوي: "... ومن أعجب ما فيه أنه كان في رمضان سنة (إحدى وتسعين وسبعمائة) مارا بين القصرين، فسمع العوام يتحدثون أن الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك، واجتمع عليه الناس. قال: فضبطت ذلك اليوم فكان كذلك. (الضوء اللامع): ٢/ ٢٥ - ٢٤.

٣٦ - (مجمع الفرائد ومنبع الفوائد):

ذكره السخاوي، مشيرا إلى أنه مؤلف علمي يشتمل على العقل والنقل، المحتوي على فني الجد والهزل، بلغت مجلداته نحو المائة، بينما أشار ابن تغري بردي إلى أنه كمل منه نحو ثمانين مجلدًا كالتذكرة.

(الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨.

٣٧ - (مختصر الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة لابن عدي):

منه نسخة خطية بخط المقريزي - رحمه الله - مؤلف هذا المختصر، كتبها سنة (٧٥٩ هـ)، وهي في مكتبة مراد ملا باستامبول، برقم (٥٦٩)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٤٥٦) تاريخ. أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١١/ ٣١١.

٣٨ - (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول ما يجب لآل البيت النبوي على المسلمين من حبهم وإجلالهم، ونصرتهم ومودتهم، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تأليفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) مرتبا لها على مقدمة، أشار فيها إلى دافعه إلى تأليفها قائلا:

"... وبعد فإنّي لما رأيت أكثر الناس في حق آل البيت مقصرين، وعما لهم من الحق معرضين، ولمقدارهم مضيعين،

وبمكانتهم من الله - تعالى - جاهلين، أحببت أن أقيد في ذلك نبذة تدل على عظم مقدارهم، وترشد المتقي لله - تعالى - على جليل أقدارهم ليقف عند حده، ويصدق بما وعدهم الله ومن به عليهم من صادق وعده ".

تتبعها فصول خمسة، شارحة من خلال أقوال أئمة اللغة والتفسير لخمس آيات قرآنية، مع ما أتصل بها من الأحاديث النبويّة، عالج موضوعة من خلالها، وهي قوله تعالى:

-{إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا } [الأحزاب: ٣٣].

-{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ} [الطور: ٢١].

-{وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا} [الكهف: ٨٢].

-{جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ} [الرعد: ٢٣].

-{قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ} [الشورى: ٢٣].

مختتما لهذه الرسالة بعدد من الرؤى والحكايات الشفهية - التي أمده بها شيوخه ورفقته - وتدور كلها حول الحث على حب آل البيت النبوي وتعظيمهم.

منه نسخة خطية في فينه، برقم (٨٩٠). طبع في دار الاعتصام، ط ٢ سنة ١٩٧٣ م بالقاهرة وبيروت بتحقيق محمد أحمد عاشور.

٣٩ - (المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية):

مؤلف علمي بحت يبحث في المعادن، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلاله إلى كروية الأرض، وحركتها، وإحاطة الماء باليابسة من سائر جهاتها، والأجسام المتولدة عليها، وتكويناتها، وصفاتها، وأمكنة وجودها، والقيمة العلمية والمادية والطبية لها.

ومنه نسخة خطية في مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٩)،

ومكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤٢ ه)، مكتبة كمبرج، برقم (١٠٨٢)، مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١٠).

٤٠ - (منتخب التذكرة في التاريخ):

مؤلف في التاريخ الإسلامي العام، اقتصر فيه المقريزي - رحمه الله - على ذكر العرب والفرس، دون غيرهم من الأمم المطيفة بهم في أطراف الأرض، اختصره من مؤلف أبسط منه سماه (التذكرة)، فكان ما أودعه في هذا المؤلف اللب منه.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار): (٥/ ٣٦٨)، مكتبة باريس برقم (١٥١٤) عرب، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية، برقم (١٦٥٨)، تاريخ عن مخطوطة مكتبة باريس ذات الرقم (١٥١٤) عرب، وتقع في نحو ١٦٦ ورقة لطيفة الحجم، مزدوجة الصفحات، باستثناء أولها وآخرها، مسطرتها نحو أربعة عشر سطرا.

٤١ - (المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر):

يضم الفترة فيما بين سنتي (٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م)، (٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م)، انتقاه المقريزي - رحمه الله - في ربيع الأول للآثار الشرقية سنة (٨١٤ هـ / ١٤١١ م).

طبع في القاهرة - المعهد الفرنسي للآثار الشرقية سنة (١٩٨١) بتحقيق أيمن فؤاد سيد.

٤٢ - (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار):

وتعرف بخطط المقريزي:

منها نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية): (١/ ١٦٢)، المكتبة العمومية بدمشق، الأرقام (٣٤٣٧)، (٥٦٩٦)، (٥٦٩٧)، (٧٠٠٤)، مكتبة أياصوفيا باستامبول، الأرقام (٣٤٧١)، (٣٤٨٤)، مكتبة طوب قبو سراي باستامبول، الأرقام

(٢٩٤٧)، (٢٩٥٤)، مكتبة محمد الفاتح باستامبول برقم (٤٤٩٥)، (٤٤٩٩).. وغير ذلك.

طبع في مجلدين، بولاق (١٢٧٠ هـ)، وقد أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست، طبع في أربعة أجزاء، مطبعة النيل - القاهرة (١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ)، طبعت منه خمسة أجزاء بتحقيق المستشرق الآثاري فييت، القاهرة (١٩١١ - ١٩٢٧) ولم تتم.

وظهرت لهذا الكتاب طبعات جزئية، نذكر منها:

- أخبار قبط مصر، وقد سبقت الإشارة إليه.

- (القول الإبريزي للعلامة المقريزي)، نشره مينا إسكندر، وهو يتضمن تاريخ الأقباط وأحوالهم - نقلا عن (خطط المقريزي).

٤٣ – (نبذ تاريخية):

ليس مؤلفا مستقلا - على ما يبدو - ولكنه ملتقطات مما جمعه المقريزي - رحمه الله - من المصادر، ليضمنه بعض مؤلفاته.

منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم (٢١٢٥ د/ ٢٥٩)، تقع في (٥٢) ورقة مقاسها نحو (١٣ ١٦ سم)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة برقم (٨٤٥) تاريخ.

٤٤ – (نحل عبر النحل):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول النحل، وما يتخلف منه من عسل وشمع، مستلهما منه العبرة والعظة لبني الإنسان، وقد رتبت على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب قائلا: (... وبعد، فهذا قول وجيز في ذكر النحل، وما أودع فيه البارئ - جلت قدرته - من غرائب الحكمة وعجائب الصنع، ليعتبر أولو الأبصار، ويتذكر أرباب الاعتبار) وأما الفصول - فقد اتصلت بعلوم: الحيوان، واللغة،

والتفسير، والحديث، والفقه، والطب، والبيطرة، والنبات، والاقتصاد، والتاريخ، والأدب، فيجمل المقريزي - رحمه الله - فيها الحديث عن النحل من الناحية الحيوانية، ذاكرا أسماءه، وألوانه، وأحجامه، وصفاته، وخلاياه، وآفاته، وعلاجها، وعسله، وأنواعه وأصنافه - وجامعه، (مشتاره) وآلاته التي يستعين بها في جمعه، وما يرعاه النحل من أزهار وأنوار، وما ينتجه من شمع، مفصحا عن مركزه الاقتصادي في مصر الإسلامية، وما ورد في النحل والعسل من الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، وأقوال الحكماء، والفقهاء والمفسرين، وما اتصل بالشمع من الحوادث التاريخية، سواء بالاستصباح (الإضاءة) به لدى الخلفاء، والسلاطين، والفقهاء، أو باستخدامه في القصور، والمواكب السلطانية، وحفلات العرس والزواج، أو بالختم به على تركات الموتى من أولاد الخلفاء، مختتما بذلك بما أنشئ في (الشمع) من أشعار وأما الخاتمة فقد أشار فيها إلى انتهاء مادة الكتاب باكتماله، قائلا:

(... تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلي آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين، سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ " منه نسخة خطية في: مكتبة نور عثمانية برقم (٤٩٣٧/ ٠٣)، مكتبة كمبرج، برقم (٦٦٤)، (٩٢٣)، مكتبة جستربتي في دبلن، برقم (٤١١٨/ ٠٢)، وقد طبع في القاهرة، مكتبة الخانجي، سنة (١٩٤٦) بتحقيق د. جمال الدين الشيال.

٤٥ - (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول استئثار بني أمية وبني هاشم بالخلافة من دون (على بن أبي طالب) وبنيه، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلالها إلى ما كان من منافرة ومنافسة بين بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام وبعده.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار) ٥/ ٣٨٥، المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٣٧٣١)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧)، ومكتبة ستر اسبورج، مكتبة ليدن، برقم (٨٨٥)، مكتبة فينة، برقم (٨٨٦) وقد طبع هذا الكتاب مرتين:

الأولى في ليدن، نشره فوس، سنة (١٨٨٨)، والثانية في القاهرة سنة (١٩٢٧) ثم طبع عدة طبعات آخرها بدار المعارف - القاهرة - سنة (١٩٨٨) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس. وقد أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٥٥.

٤٦ – (النحل وما فيه من غرائب الحكمة):

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة كمبرج، راجع (تاريخ آداب اللغة العربية) جورجي زيدان، ٣/ ١٧٨، فقرة ١٢.

٤٧ – (نهاية الجمع لأخبار القراءات السبع):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٢ ولم أقف له على مصدر آخر يشير إلى نسخ منه مخطوطة أو مطبوعة.

من هذا العرض الموجز لمجهودات المقريزي - رحمه الله - في الكتابة التاريخية، نجد أنه قد ألح من خلالها على التوكيد على ثلاث صفات امتاز بها، وهي:

(مصريته) و(عروبته) و(إسلامه).

أما مصريته، فتبدو في تحمسه للتأريخ لمصر في أطوارها المختلفة، فيما قبل الإسلام وبعده، حيث أنشأ فيها مؤلفا مجملا، لتاريخها، وخططها، وعمرانها - منذ القدم وحتى وفاته - وهو:

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، ثم عمد إلى تفصيل أكثر، أجمل فيه بالتأريخ لمصر الإسلامية، منذ الفتح الإسلامي لها وإلى قبيل وفاته، في عدة مؤلفات متتابعة، وهي: (عقد جواهر

الأسفاط) و(اتعاظ الحنفاء) و(السلوك) و(المقفى) وأما عروبته، فقد كانت دافعا قويًّا لديه إلى إنشاء عدة مؤلفات، منها (الخبر عن البشر) و(البيان والإعراب) و(تراجم ملوك المغرب) و(الطرفة الغريبة).

وأما إسلامه، فيتبدى - فضلاً عن العاطفة الدينية الجياشة، المبثوثة في سائر مؤلفاته - في (إمتاع الأسماع)، وقد جعله تاريخًا مجملاً للرسول ﷺ وسيرته، و(النزاع والتخاصم) وهو مبحث في الخلافة، و(التذكرة) و(منتخبها) و(الدرر المضيئة) و(الإمام).

وقد جعل من هذه المؤلفات تاريخًا عامًّا للدولة الإسلامية في مختلف أطوارها وأمصارها. بل إن أكثر رسائله ومؤلفاته الموجزة، المفردة بالتأليف في موضوع بعينه، تنزع إلى أي من هذه الصفات الثلاث [١].

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب فضل آل البيت عليهم السلام تأليف تقي الدين أحمد بن على المقريزي ٧٦٦ هـ - ٨٤٥ هـ، تحقيق السيد على عاشور، ضيف الله بن يحيى الزهراني.
مصادر السيرة النبوية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مقدمة تحقيق كتاب إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (م ٨٤٥).
تحقيق: محمد عبد الحميد النميسى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعه: الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

المقري الأديب صاحب
كتاب نفح الطيب

من مشاهير أعلام المسلمين

المقري الأديب
صاحب كتاب نفح الطيب

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي اليعيش ابن محمد التلمساني المقَّري نسبة إلى مقَّرة من قرى تلمسان. مؤرخ أندلسي وُلِد بتلمسان بالجزائز ونشأ بها، انتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها. وكان كثير الأسفار، زار مصر والشام والحجاز أكثر من مرة. واشتهر بمؤلفه نفح الطيب. وكتابه أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض اتخذ فيه من القاضي عياض نواة حشد حولها المعلومات الأدبية والتاريخية. ولم يكتف بأخبار عصره ومصره، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله.

وكان المقري شديد الإعجاب بشخصيَّة الوزير الغرناطي العالم والأديب لسان الدين بن الخطيب، ومن ثم كان غرضه من هذا المؤلف أن يتناول شخصية ابن الخطيب في كل جوانبها.

وينقسم الكتاب قسمين، وكل قسم في ثمانية أبواب:

فالقسم الأول بأبوابه الثمانية يختص بالأندلس، فيصفها في عمرانها وعاصمتها قرطبة وجامعها والزهراء الناصرية والعامرية، ثم يفرد حديثًا عن الخلافة الأموية بالأندلس وعن قوة الإسلام وسلطانه في شبه الجزيرة الأندلسية.

ونجد في هذا القسم تعريفًا بأعلام الشخصيات الأندلسية، التي

رحلت إلى المشرق لإكمال دراستها أو تلقي العلم. وكانت الرحلة إلى المشرق من متطلبات التكوين العلمي والأدبي لأهل الأندلس، كما يذكر أولئك المشارقة الذين وفدوا على الأندلس من أعلام الأدباء والمفكرين. وهذا القسم مليء بالأخبار الطريفة والأشعار الكثيرة، كما تتنوع تراجم الشخصيات الأندلسية فيه بين ملوك وأمراء وقواد ووزراء وشعراء وكتاب وقضاة وفقهاء وزهاد وغيرهم. وأهم ما يميز هذا القسم غلبة الطابع الأدبي عليه.

أما القسم الثاني بأبوابه الثمانية فمخصص لابن الخطيب، يتحدث فيه المَقَّري عن أصله ونشأته وثقافته ومناصبه ورحلاته، كما يعرض لتلاميذه ومريديه وأصدقائه وندمائه وحاسديه وأعدائه.

وأهمية هذا القسم أنه حفظ قدرًا طيبًا من تراث ابن الخطيب النثري، كما حفظ شعره وموشحاته وأزجاله.

وتعد مقدمة الكتاب من معالم النثر الأدبي للمَقَّري. فهي أقرب ما تكون إلى ما عرف بأدب الرحلة، إذ يتحدث فيها عن رحلته من المغرب إلى مصر، برًّا وبحرًا، ويصف ماعاناه من أهوال الرحلة ثم زيارته للبيت الحرام ووصوله بعد ذلك إلى مصر. وخلال كل ذلك يصف ما اعتراه من شوق وما عاناه من وجد وهو بعيد عن بلده يصطلي بالحنين إليها.

كما تحفل المقدمة بطائفة من الشعر له ولغيره في وصف الوطن وحرقة البعد عنه، حتى أضحت المقدمة سفرًا قيمًا في أدب الرحلة وأدب الديار.

وأسلوب النفح مشرق وجذاب، وإن غلب عليه السجع، ذلك أن المقري كان يتشبه في أسلوبه بلسان الدين ابن الخطيب. كما كانت الاستطرادات، لكثرتها، مشتتة لذهن القارئ، بجانب أن بعض الأخبار تتكرر في أكثر من موضع. ومن إيجابيات الكتاب اعتماد المقري أسلوب الرواية فيما يورده من أخبار، فيرجع كل خبر إلى

أصله وكل شعر إلى مصدره. ويعد نفح الطيب من آخر الموسوعات العربية الكبرى والمتخصصة في التراث الإسلامي الأندلسي؛ لعنايته بالجانب التاريخي السياسي وبأدب الرحلة والبلدان والترجمات وذكر الحروب، كما عكس الأسى والأسف لضياع الأندلس إذ أن الكتاب كتب ومايزال الجرح نازفًا.

السبب وراء تأليف المقري لكتابه نفح الطيب:

١ - إعجابه بلسان الدين بن الخطيب، بحيث يقلده في طريقته الإنشائية ويحفظ الكثير من رسائله وشعره، كان كفيلا بدفعه إلى كتابه مؤلف عنه، وخاصة لإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحس بهما (مثله الأعلى) حينما لجأ إلى المغرب.

٢ - أن مثل هذا الكتاب كان كفيلاً بأن ينفس عنه كربه، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه، عودة نفسية وروحية.

٣ - أن المنهج للتأليف في لسان الدين كان سهلاً مفتوح المسارب أمام عينيه؛ لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض كتاباً سماه (أزهار الرياض).

٤ - أن انفصام آخر الروابط الإسلامية من الأندلس لم يكن قد مضى عليه إلا سنوات، فكانت صورة (المأساة)ما تزال تلح على مخيلة المقري، وكان الربط بين الماضي والحاضر من الأمور التي تعين على التذكر والتذكير والعبرة في آن واحد؛ وكل من قرأ (نفح الطيب) بتأمل، سيشعر بهذه الناحية، ويكفينا مثلاً على ذلك تلك الوقفة الطويلة التي وقفها المقري وهو يستعيد صورة المنصور بن أبي عامر الذي يمثل البطولة العربية بالأندلس في أوجها.

٥ - كان المقري كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي، وكان ذلك الإهمال في القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية، أما في عصر المقري فكان سببه ضعف الثقافة

عامة، وحسبك أن تجد لسان الدين - وهو من هو في المغرب والأندلس - محتاجاً إلى من يعرف المشارقة به ويحدثهم عن أخباره؛ ولهذا وجد المقري أن كتابة مؤلف جامع شامل تحقق هذا الغرض، وكان في البدء يزمع أن يقصره على لسان الدين، ثم وجد أن صورة لسان الدين لا يمكن أن تتضح إلا على محمل من التطور الأدبي والسياسي في الأندلس. وفي الوقت نفسه كان الكتاب يحقق تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب، ولهذا خصص جزءاً كبيراً من كتابه للرحلتين: رحلة المغاربة إلى الشرق ورحلة المشارقة إلى الأندلس والمغرب، وفي هذه الناحية الثانية كان المقري يحس أنه حلقة في تلك السلسلة الطويلة، وكأنه في مقدمة الكتاب وفي بعض فصوله الأخرى سجل طرفاً من رحلة، كما سجل أسلافه من قبل أخبار تنقلاتهم. وبذلك أسعفه مؤلفه هذا على أن يحقق ما قد نسميه (نزعة مغربية) وهي نزعة لا تقتصر على الرحلة وإنما كانت تشمل نقل التراث المغربي الخالص والأندلسي إلى المشارقة.

٦ - كان تأليف نفح الطيب بمثابة وعد كان المقري قد قطعه على نفسه وأنجزه، فقد حدث تلامذته فيها عن لسان الدين ومكانته السياسية والأدبية فأثار في نفوسهم حب الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه، وكان أحمد الشاهيني المدرس بالجقمقية أشدهم إلحاحاً في ذلك، ولهذا نزل المقري عند رغبته، ووعده، وكان في البداية يزمع أن يسميه (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب) فلما رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها غير اسم الكتاب وجعله (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب). وعلى هذا النحو أصبح الكتاب قسمين: قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شؤون. وفي كل قسم من هذين القسمين ثمانية فصول.

وقد طبع النفح عدة طبعات في المشرق كان أولها طبعة بولاق سنة ١٢٧٩، ثم كان آخر الطبعات المشرقية طبعة المكتبة التجارية بإشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٩).

- مؤلفات المقري

١ - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض.

٣ - إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة.

٤ - ادحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى.

٥ - أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي سماها إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس.

٦ - حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.

٧ - عرف النشق من أخبار دمشق.

٨ - شرح مقدمة ابن خلدون.

٩ - قطف المهتصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر خليل.

١٠ - فتح المتعال في مدح النعال.

١١ - وكان المقري قد ختم كتابه السابق برجز في النعال الشريفة ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي ولعله المسمى " النفحات العنبرية في نعل خير البرية ".

١٢ - وللمقري أراجيز كثيرة أخرى منها " أزهار الكمامة في شرف العمامة ".

١٣ - والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين.

١٤ - ورجز " نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط".

١٥ - البلدة والنشأة.

١٦ - الغث والسمين والرث والثمين.

١٧ - حسن الثنا في العفو عمن جنى.

١٨ - الأصفياء.

١٩ - الشفاء في بديع الاكتفاء.

٢٠ - القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية.

٢١ - النمط الأكمل في ذكر المستقبل.

٢٢ - أرجوزة في الإمامة.

٢٣ - نظم في علم الجدول.

٢٤ - وذكر في النفح أنه كان يزمع تأليف كتاب في تلمسان يسميه: (أنواء نيسان في أنباء تلمسان) ويبدو أنه لم يحقق ذلك.

٢٥ - شرح له على قصيدة (سبحان من قسم الحظوظ).

٢٦ - ونسبت له المصادر كتاب (الجمان من مختصر أخبار الزمان).

٢٧ - رسالة (إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة).

٢٨ - وأخيراً كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) موضوع الاختصار.

وفيما كان يزمع الهجرة من مصر ليستوطن الشام، وافته منيته في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ.

* * *

الإمام الطبري

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الطبري

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها.. مدينة (آمُل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في دولة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حجَّة العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد بن جرير الطبري)سنة ٢٢٤هـ، ولُقب بالطبري لأن أهل طبرستان جميعًا يُنْسَبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم: طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر).

لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعلم حتى عهد به والده إلى علماء (آمُل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافزًا لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاءل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مِخلاة مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ ببيروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَرْش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى،

وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر بقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي الهمة،عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً جاءه يسأله في العَرُوض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر) ولم يكن الطبري له إلمام كبير بهذا العلم فقال له: على قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فتعالَ إلى، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عَرُوضي، وأصبحت عروضيًّا.

وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عامًا يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصدًا بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفًا في ظاهره وباطنه، ظريفًا، حسن العشرة، مهذبًا في جميع أحواله.

مؤلفات الطبري:

كان الطبري من أكثر علماء عصره نشاطا في التأليف، أشهر مؤلفاته تفسيره المعروف (بتفسير الطبري)، وكتاب " تاريخ الأمم والملوك " روي عنه أنه قال: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني [١].

قال الحاكم: وسمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير، قلت: بلى كتبته عنه إملاء. قال: كله؟ قلت: نعم. قال: في أي سنة؟ قلت: من

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٩٥.

سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين ومائتين. قال: فاستعاره مني أبو بكر ثم رده بعد سنين، ثم قال: لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير (١).

قال أبو محمد الفرغاني: تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل (٢).

وتم من كتبه " كتاب التاريخ " إلى عصره وتم أيضا كتاب " تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم " وتم له كتاب " لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام " وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له، وهو ثلاثة وثمانون كتابا وتم له كتاب " القراءات والتنزيل والعدد " وتم له كتاب " اختلاف علماء الأمصار " وتم له كتاب " الخفيف في أحكام شرائع الإسلام " وهو مختصر لطيف وتم له كتاب " التبصير " وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين، وابتدأ بتصنيف كتاب " تهذيب الآثار " وهو من عجائب كتبه ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس فمات قبل تمامه. قلت هذا لو تم لكان يجيء في مائة مجلد، قال وابتدأ بكتابه " البسيط " فخرج منه كتاب الطهارة فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول وخرج منه أيضا أكثر كتاب الصلاة وخرج منه آداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات و" كتاب ترتيب العلماء " وهو من كتبه النفيسة ابتدأه بآداب النفوس وأقوال الصوفية

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.

ولم يتمه وكتاب " المناسك " وكتاب " شرح السنة " وهو لطيف بين فيه مذهبه واعتقاده وكتابه " المسند المخرج " يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم ولم يتمه ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب " الفضائل " فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر وتكلم على تصحيح حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ولم يتم الكتاب.

وقال بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا.

أسلوبه في التأليف:

يقول أحمد بن خلكان: " لأبي جعفر في تأليفه عبارة وبلاغة فمما قاله في كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه، قال: إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والقعود له رصدا بطرق ربه المستقيمة صادا له عنها كما قال لربه عز ذكره؛ إذ جعله من المنظرين{لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [الأعراف: ١٦ - ١٧] طمعا منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه:{لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢] فحق على كل ذي حجى أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخييبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره فكلام أبي جعفر من هذا النمط وهو كثير مفيد ".

وروي عن أبي سعيد الدينوري مستملي ابن جرير " أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بعقيدته فمن ذلك وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها

لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبدا" [١].

ثناء العلماء عليه :

قال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل آمل كتب بمصر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين، عارفا بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علما وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله.

مواقف من حياته :

قيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفا تجتمع عليه أقاويل العلماء فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابا لذلك فأخرجت له جائزة فامتنع من قبولها فقيل له: لا بد من قضاء حاجة قال: اسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحاف السجستاني، سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٥/١١.

القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب ففتحوا، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه ثم قال: وأيكم محمد ابن جرير، فأعطاه خمسين دينارا، وكذلك للروياني وابن خزيمة ثم قال: إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم فأنفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إلى أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري قال: حدثني أبو على هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال: نعم فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأل استلافه رزق شهر ففعل وأدخل في حجرة التأديب وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال قد شرطت على شيء فلا آخذ سواه فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه وسأله فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافا لعظم مروءته. وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها وقناعته رحمه الله بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له

أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ::: وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ::: ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت بماء وجهي ::: لكنت إلى العلى سهل الطريق

وله خلقان لا أرضى فعالهما ::: بطر الغنى ومذلة الفقر

فإذا غنيت فلا تكن بطرا ::: وإذا افتقرت فتِهْ على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله ماتت الهمم فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوا من ذلك ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ(١).

وكان الطبري لا يقبل المناصب خوفا أن تشغله عن العلم من ناحية، ولأن من عادة العلماء البعد عن السلطان من ناحية أخرى، فقد روى المراغي قال: لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء فامتنع، فعرض عليه المظالم، فأبى فعاتبه أصحابه، وقالوا: لك في هذا ثواب، وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم، فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك، فانتهرهم، وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه قال فانصرفنا خجلين.

وفاته:

قال أبو محمد الفرغاني: حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه فقيل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٩٤ - ٢٩٧.

العصر، فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم: أبو بكر بن كامل، فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا، فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلامًا هذا معناه، وأكثر من التشهد، وذكر الله عز وجل، ومسح يده على وجهه، وغمض بصره بيده، وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل: توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال: ولم يغير شيبة، وكان السواد فيه كثيرا، وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين، نحيف الجسم، طويلا، فصيحا، وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

حقيقة تشيع الطبري!!

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن على السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان: إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. وقبل أن نتحدث عن معطيات وأسباب هذا الاتهام أود أن نثبت رأي علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت ٨٤١هـ:

" محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالاة لاتضر أقذع أحمد بن على السليماني الحافظ فقال: كان

يضع للروافض " [١].

وقال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ:

" محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة، ثقة صادق، فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ، فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب، بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولايحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير " [٢].

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليماني على جلالة قدره لابن جرير الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

" فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني " [٣].

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، فيقول عن الطبري: " محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاث مائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لاتضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ، فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من

---

(١) أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ٢٢١/١.

(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.

الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير مثل السليماني، فلعل السليماني أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت، والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل، والله أعلم.

وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليماني فقال في الكلام على الصراط في أوائل تفسيره وقال: أبو جعفر الطبري وهو إمام من أئمة الإمامية. ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في آلاف(١) وبعده فلم يصفوه بذلك، وإنما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه " (٢).

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن على أبي بكر الخطيب البغدادي ت٤٦٣هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

قال الشيخ أبو بكر " استوطن الطبري بغداد، وأقام بها الى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الآلاف، وكان حافظًا لكتاب الله عارفًا بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تارخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي

(١) الألاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب.
(٢) ابن حجر العسقلاني، لسان الميززان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٠٠/٥.

المعروف بالسمسماني.

يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وبلغني عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال: لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا، أو كلاما هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال: ثنا على بن أحمد بن الصناع عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم " (١).

في ضوء ماسبق نستطيع أن نخلص بالنتائج التالية :

- لا نستطيع أن نجزم اتهام الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

- قد يكون الحافظ السليماني اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أبا جعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبو جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

- أما الرجل الآخر الذي يتفق اسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السني يقول عنه الحافظ ابن حجر: " محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت، رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى، وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام، فقال: هو

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦٢/٢ وما بعدها.

الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضا عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولا وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليماني الى آخره وكأنه لم يعلم بان في الرافضة من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكي عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبهم " (١).

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالاة لأهل البيت لا تضر.. لايعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الإنحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون علياً رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي: إنه شيعي، بمجرد الموالاة لعلي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة، فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى رافضي، وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصار مصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة، ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم

(١) لسان الميزان، ١٠٣/٥.

هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي علياً رضي الله عنه وآل البيت؛ لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الاصطلاحي قديماً.

حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم.

مما لا شك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة ٣٠٢هـ.

الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب بن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد بن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهري وابن إسحاق وشرحبيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.

السادس: أما مصادره في معركتي الجمل ٣٦هـ، وصفين ٣٧هـ فعلى مرويات أبي مخنف، ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي، وسيف بن عمر.

السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويان أحمد بن أبي خيثمة وابن ززهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.

نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط، بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح. لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين؛ لأن هناك تزويراً وتلفيقاً وسباً يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً، ويسب بعضهم بعضاً، وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزام علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت١٥٧هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: " إخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه، فنض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء " (١).

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٢٧٢هـ: " قرئ على العباس بن محمد الدوري، قال سمعت يحيى بن معين يقول: أبو مخنف ليس بثقة، نا عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: متروك " (٢).

وقال الحافظ أبو أحممد عبد الله بن عدي ت٢٦٥هـ: " معروف بكنيته، واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولايبعد

(١) لسان الميزان، ٤/٤٩٣.
(٢) عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، ١٨٢/٧.

منه أن يتناولهم، وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم " [١].

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت١٤٦هـ:

يقول الذهبي: " العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر، وكان أيضا رأسا في الأنساب، إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة " [٢].

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

" وقال يزيد بن زريع، وكان سبئيا قال أبو معاوية: قال الأعمش: اتق هذه السبئية، فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي): سبئيا من أولئك الذين يقولون: إن عليًّا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً، وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب وقال الدارقطني وجماعة: متروك. وقال ابن حبان مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه " [٣].

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: " محمد بن السائب أبو النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض " [٤].

أما هشام بن السائب الكلبي ت٢٠٤هـ:

يقول عنه ابن حجر: " هشام بن محمد بن أبو المنذر الإخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة، قال أحمد بن حنبل. إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن

---

(١) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، ٩٣/٦.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤٨/٦.
(٣) ميزان الاعتدال، ١٦١/٦.
(٤) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، ٤٧٩/١.

أحداً يحدث عنه، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة " (١).

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسقده قائلاً: " حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: سمعت أبى يقول: هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر، وما ظننت أن أحداً يحدث عنه، بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين، وقيل: سنة ست ومائتين"(٢).

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: " هشام بن محمد ابن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت بن حماد يقول: حدثني عبد الله سمعت أبى يقول: هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة، وما ظننت ان أحدا يحدث عنه، وهذا كما قال أحمد هشام الغالب عليه الأخبار والأسمار والنسبة ولا أعرف له شيئا من المسند " (٣).

صفوة القول:

إن أبا مخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع، وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين رغم تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة حين يقول:

" فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في

---

(١) لسان الميزان، ١٩٦/٦.

(٢) تاريخ بغداد، ٤٥/١٤.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال، ١١٠/٧.

الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"[١].

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي؛ لأنه يعلم أنه بمجرد ذكراسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها، لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواة المجروحين، فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديما الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم، وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ما شجر بين الصحابة مسلم به؛ لأنه مروي عن ابن جرير؛ لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو مخنف وابنا الكلبي [٢].

ونريد أن نقول أن إتهام الطبري بالتشيع لم يثبت، وإن كانت كتاباته كانت نقلا (في أحيان كثيرة) عمن أتهم ليس بالتشيع فقط، بل بالرفض والوضع والتشنيع على الصحابة الأطهار الأخيار وأهل السنة الأبرار؛ لذا وجب التنويه على القارئ والباحث في كتابات الطبري توخي الحذر من مروياته لاسيما في الجوانب الخلافية بين الصحابة وأهل السنة، والجماعة والشيعة.

* * *

(١) ابن جريرالطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٥/١.

(٢) هاني السباعي، مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن، من مصادر السيرة النبوية، كتب التاريخ العام.

المؤرخ ابن خلكان

من مشاهير أعلام المسلمين

المؤرخ "ابـن خلكان" صاحب كتاب "وفيات الأعيان"

ابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس البرمكي الإربلي الشافعي، ولد بإربل سنة ثمان وستمائة وسمع بها " صحيح البخاري " من أبي محمد بن هبة الله ابن مكرم الصوفي وأجاز له المؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وزينب الشعرية. روى عنه المزي والبرزالي والطبقة، وكان فاضلاً بارعاً متفنناً عارفاً بالمذهب حسن الفتاوي جيد القريحة بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة وافر الحرمة، فيه رياسة كبيرة، له كتاب " وفيات الأعيان " وقد اشتهر كثيراً وله مجاميع أدبية. قدم الشام في شبيبته وقد تفقه بالموصل على كمال الدين بن يونس وأخذ بحلب عن القاضي بهاء الدين بن شداد وغيرهما. ودخل مصر وسكنها مدة وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري ثم قدم الشام على القضاء في ذي الحجة سنة تسع وخمسين منفرداً بالأمر ثم أقيم معه في القضاء ثلاثة سنة أربع وستين وكان ذلك في جمادى الأولى جاء من مصر ثلاثة تقاليد لشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي ولزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي ولشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر الحنبلي فلم يقبل المالكي ووافق الحنفي والحنبلي، وكان الحنفي قبل ذلك نائبا للشافعي، ثم إن الأمر من مصر ورد بإلزام المالكي وامتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية وقالا نحن في كفاية. قال شهاب الدين أبو شامة: ومن العجيب اجتماع ثلاثة من قضاة القضاة لقب كل واحد منهم

شمس الدين في زمن واحد. واتفق أن الشافعي استناب نائباً لقبه شمس الدين فقال بعض الأدباء الظرفاء:

أهـــل دمشـــق اســـترابوا ::: مـــن كثـــرة الحكـــام
إذ هـــم جميعـــاً شمـــوس ::: وحـــالهم في الظـــلام

وقال أيضاً:

بدمشـــق آيـــة قـــد ::: ظهـــرت للنـــاس عامـــا
كلمـــا ازدادوا شموســـا ::: زادت الـــدنيا ظلامهـــا

ثم عزل عن القضاء سنة تسع وستين بالقاضي عز الدين ابن الصائغ، ثم عزل ابن الصائغ بعد سبع سنين به، وقدم من مصر فدخل دخولا لم يدخل غيره مثله من الاحتفال والزحمة وأصحاب البغال والشهود وكان يوما مشهودا وجلس في منصب حكمه وتكلم الشعراء. ولما قدم ابن خلكان إلى دمشق ثانياً وكان لثامن سنة قال رشيد الدين الفارقي في ذلك:

أنت في الشام مثل يوسف في مصـ ::: ـر وعنـــدي أن الكـــرام جنـــاس
ولكل سبع شـــداد وبعـــد الـــ ::: ـسبع عـــام يغـــاث فيـــه النـــاس

وقال سعد الدين الفارقي:

أذقت الشام سبع سـنين جـدبًا ::: غـــداة هجرتـــه هجـــرًا جمـــيلا
فلمـــا زرتـــه مـــن أرض مصـــر ::: مددت عليه مـــن كفيـــك نـــيلا

وكان كريمًا جوادًا ممدوحًا فيه ستر وحلم وعفو، وحكايته في ذلك مشهورة. ثم عزل بابن الصائغ ودرس بالأمينية إلى أن مات عشية نهار السبت سادس عشرين شهر رجب سنة إحدى وثمانين بالنجيبية النورية وشيعة الخلائق.

أنشدني من لفظه لنفسه شهاب الدين أحمد بن غانم كاتب الإنشاء يرثي قاضي القضاة شمس الدين:

يا شمس علوم في الثرى قد غابـت ::: كم نبت عن الشمس وهي ما إن نابت
لم تـــأت بمثلـــك الليـــالي أبـــدًا ::: إما قصرت عنـــه وإمـــا هابـــت

وكان وجيه الدين محمد بن سويد صاحبه وكان يسومه قضاء أشغال كثيرة ويقضيها، فحضر في بعض الأيام ورام منه أمراً متعذرا فاعتذر، فقال: ما يكون الصاحب صاحباً حتى يعرق جبينه مع صاحبه في جهنم، فقال القاضي: بلى يا وجيه الدين، صرنا معك قشلمشا وما ترضى. ويقال: إنه عمل تاريخا للملك الظاهر ووصل نسبه بجنكزخان، فلما وقف عليه قال: هذا يصلح أن يكون وزيراً، اطلبوه، فطلب وبلغ الخبر الصاحب بهاء الدين ابن حنا فسعى في القضية إلى أن أبطل ذلك، وناسى السلطان عليه، فبقى في القاهرة يركب كل يوم ويقف في باب القرافة ويمشي قدام الصاحب إلى أن يوصله بيته، وافتقر حتى لم يكن له غير البغلة لركوبه، وكان له عبد يعمل بابا ويطعمه، والشيخ بهاء الدين ابن النحاس يؤثره، ومع ذلك فلا يحنو عليه الصاحب ولا يحن إلى الإحسان إليه، حتى فاوضه الدوادار وقال له: إلى متى يبقى هذا على هذه الحالة فجهز إلى مكانه بدمشق على القضاء. وحضر إليه وهو بالقاهرة عز الدين محمد بن شداد بكتب فقارس من الغور وانتقالها إلى الظاهر وقد ثبتت عليه بالشام وطلب منه الإشهاد عليه بما فيها لتثبت بمصر، قال: كيف اشهد على قال: يأذن لك قاضي القضاة ابن رزين. فقال: لو كنت مولياً ما كنت آذن له، أفأكون مولى من جهته هذا لا يكون أبداً. واطلع الظاهر على ذلك فعظم عنده وتحقق شرف نفسه. وأمر له بدر الدين بيليك الخزندار تلك الأيام بألفي درهم ومائة إردب قمح فأبى من قبولها وتلطف معه مع القاصد، فقال: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، ولم يقبل وأصر على الامتناع مع الفاقة الشديدة. وكان له ميل إلى بعض أولاد الملوك وله فيه الأشعار الرائقة، يقال إنه أول يوم جاء إليه بسط له الطرحة وقال: ما عندي أعز من هذه، طأ عليها، ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه من الركوب فقال:

يا سادتي إني قنعت وحقكم ::: في حبكم منكم بأيسر مطلب
إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ::: ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى ::: يوم الخميس جمالكم في الموكب

لو كنت تعلم يا حبيبي ما الـــذي ::: ألقــــاه مــــن ألمٍ إذا لم تركـــب
لرحمتني ورثيـــت لي مـــن حالـــةٍ ::: لولاك لم يك حملها مـــن مـــذهبي
قسماً بوجهك وهو بـــدر طـــالع ::: وبليل طرتـــك الـــتي كالغيهـــب
وبقامةٍ لك كالقضيب ركبـــت في ::: أخطارها في الحب أصعب مركـــب
وبطيب مبسمك الشهي البادر الـــ ::: عذب النمير اللؤلـــؤي الأشـــنب
لو لم أكن في رتبة أرعى لهـــا الـــ ::: عهد القـــديم صـــيانة للمنصـــب
لهتكت ستري في هـــواك ولـــذ لي ::: خلـــع العـــذار ولـــو ألح مـــؤنبي
لكن خشيت بأن تقـــول عـــواذلي ::: قد جن هذا الشيخ في هذا الصـــبي
فارحم فديتك حرقة قـــد قاربـــت ::: كشف القناع بحق ذيـــاك الـــنبي
لا تفضحن محبك الصـــب الـــذي ::: جرعته في الحب أكـــدر مشـــرب

أخبرني من لفظه القاضي جمال الدين عبد القاهر التبريزي قال: كان الذي يهواه القاضي شمس الدين هو الملك المسعود وكان قد تيمه حبه فكنت أنام عنده في العادلية فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن راح الناس من عنده فقال لي: نم أنت، وألقي على فروة، وقام يدور حول البركة في بيت العادلية، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبح وتوضأ. والبيتان المذكوران:

أنـــــــا والله هالـــــــــك ::: آيـــــس مـــــن ســــلامتي
أو أرى القامـــــــة الـــــتي ::: قـــــد أقامـــــت قيـــــامتي

ويقال: إنه سأل بعض أصحابه عما يقوله أهل دمشق عنه فاستعفاه، فألح عليه فقال: يقولون إنك تكذب في نسبك، وتأكل الحشيشة، وتحب الغلمان. فقال: أما النسب والكذب فيه فإذا كان ولا بد منه فكنت أنتسب إلى العباس أو إلى على بن أبي طالب، أو إلى أحد الصحابة، وأما النسب إلى قوم لم يبق لهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة. وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم، وإذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر لأنه ألذ. وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك عن هذه المسألة. قال قطب الدين البونيني: سمعت من يذكر إنما خرج له النسب إلى البرامكة أبو شامة، وليس كذلك. ووقفت على مجلدة من " تاريخ إربل " لوزيرها شرف

الدين وقد ذكر وفاة ابن عم قاضي القضاة وقد نسبه إلى البرامكة ولعل ذلك قبل خروجه من إربل. وذكره الصاحب كمال الدين في " تاريخ حلب " ونسبه إلى البرامكة.

ومن شعره:

وسرب ظباء في غدير تخالعوا ::: بدور بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول عذولي والغرام مصاحبي ::: أما لك عن هذي الصبابة مذهب
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى ::: فقلت له: ذرهم يخوضوا ويلعبوا

ومنه مضمناً:

كم قلت لما أطلعت وجناته ::: حول الشقيق الغض دوحة آس
لعذاره الساري العجول بخده ::: ما في وقوفك ساعة من باس

ومنه:

لما بدا العارض في خده ::: بشرت قلبي بالنعيم المقيم
وقلت هذا عارض ممطر ::: فجاءني فيه العذاب الأليم

ومنه على ما قيل:

انظر إلى عارضه فوقه ::: لحاظه ترسل منها الحتوف
تشاهد الجنة في وجهه ::: لكنها تحت ظلال السيوف

ومنه:

ولما أن تفرقنا ::: وحالت نوب الدهر
رأيت الشهد لا يحلو ::: فما ظنك بالصبر

ومنه:

وما سر قلبي منذ شطت بم النوى ::: نعيم ولا لهو ولا متصرف
ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته ::: سوى ذلك الماء الذي كنت أعرف
ولم أشهد اللذات إلا تكلفا ::: وأي سرور يقتضيه التكلف

ومنه:

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم ::: من الصبابة ما لا قيت في ظعني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبساً ::: والبر من أدمعي ينشق بالسفن

ومنه:

تمثلـــتم لي وبـــالبلاد بعيـــدة ::: فخيل لي أن الفؤاد لكـــم مغـــنى
وناجاكم قلبي على البعد والنـــوى ::: فأوحشتم لفظاً وآنســـتم معـــنى

وقال في ملاح أربعة يلقب أحدهم بالسيف:

مـــلاك بلـــدتنا بالحســـن أربعـــة ::: بحسنهم في جميع الخلق قد فتكـــوا
تملكوا منهج العشـــاق وافتتحـــوا ::: بالسيف قلبي ولولا السيف ما ملكوا

ومنه:

أي ليـــل علـــى المحـــب أطالـــه ::: ســـائق الظعـــن يـــوم زم جمالـــه
يزجر العيس طاويـــاً يقطـــع المـــه ::: مـــه عســـفاً وســـهوله ورمالـــه
أيهـــا الســـائق المجـــد ترفـــق ::: بالمطايـــا فقـــد ســـئمن الرحالـــه
وأنخهـــا هنيهـــة وأرحهـــا ::: قد براها السرى وفرط الكلالـــه
لا تطل سيرها العنيف فقـــد بـــر ::: ح بالصـــب في ســـراها الإطالـــه
وتركتم وراءهـــم حلـــف وجـــد ::: نادبـــاً في محلكـــم أطلالـــه
يسأل الربع عـــن ظبـــاء المصـــلى ::: ما على الربع لو أجـــاب ســـؤاله
ومحـــال مـــن المحيـــل جـــواب ::: غير أن الوقـــوف فيهـــا غلالـــه
هـــذه ســـنة المحـــبين يبكـــو ::: ن علـــى كـــل مـــنزل لا محالـــه
يا ديار الأحبـــاب لا زالـــت الأد ::: مع في تـــرب ســـاحتيك مذالـــه
وتمشـــى النســـيم وهـــو عليـــل ::: في مغانيـــك ســـاحباً أذيالـــه
أين عيش مضى لنا فيك ما أســـ ::: رع عنـــا ذهابـــه وزوالـــه
حيث وجه الشباب طلـــق نضـــير ::: والتصـــابي غصـــونه ميالـــه
ولنا فيك طيـــب أوقـــات أنـــس ::: ليتنـــا في المنـــام نلقـــي مثالـــه
وبأرجاء جوك الرحـــب ســـرب ::: كل عـــين تـــراه تهـــوى جمالـــه
من فتـــاة بديعـــة الحســـن ترنـــو ::: مـــن جفـــون لحاظهـــا مغتالـــه
ورخـــيم الـــدلال حلـــو المعـــاني ::: تتـــثنى أعطافـــه مختالـــه
ذي قوام تود كل غصـــون الـــ ::: بان لـــو أنهـــا تحـــاكي اعتدالـــه
ووجهـــه في الظـــلام بـــدر تمـــام ::: وعـــذاراه حولـــه كالهالـــه

ومن ذلك:

كأنني يوم بان الحي عـــن إضـــم ::: والقلب من سطوات البين مذعور

ورقاء ظلت لفقد الإلف ساجعة ::: تبكي عليه اشتياقاً وهو مأسور
يا جيرة الحي هل من عودة فعسى ::: يفيق من نشوات الشوق مخمور
إذا ظفرت من الدنيا بقربكم ::: فكل ذنب جناه الدهر مغفور

وله في الدوبيت شيء كثير من أحسنه قوله:

في هامش خدك البديع القاني ::: أسرار هوى لكل صب عان
قد خرجها الباري فما أحسنها ::: من حاشية بالقلم الريحاني

وقوله:

روحي بك يا معذبي قد شقيت ::: في جنب رضاك في الهوى ما لقيت
لا تعجل بالله عليها فعسى ::: أن تدركها برحمة إن بقيت

وقوله:

يا سعد عساك تطرق الحي عساك ::: قصداً فإذا رأيت من حل هناك
قل صبك ما زال به الوجد إلى ::: أن مات غراماً أحسن الله عزاك

وكتب إليه السراج الوراق لغزاً في مئذنة:

يا إماماً له ضياء ذكاء ::: يتلاشى له ضياء ذكاء
ما مسمى بالرفع يعرب والنصـ ::: ـب وإن كان مستقر البناء
علم مفرد فإن رفعوه ::: رفعوه عمداً لأجل النداء
أنثوه ومنه قد عرف التذكيـ ::: ـر فانظر تناقض الأشياء
وهو ظرف فأين من فيه ظرف ::: ليجلي من هذه العمياء

فأجاب: قال شمس الدين أحمد بن المنير في قاضي القضاة المذكور:

ليس شمس الضحى كأوصاف شمس الديـ ::: ـن قاضي القضاة حاشا وكلا
تلك مهما علت محلا تنت ظـ ::: ـلا وهذا مهما علا مد ظلا

وكتاب " وَفَيَات الأعيان وأَنباءُ أبناءِ الزَّمان " من أشهر كتب التراجم العامّة وأوفاها. ألّفه أبو العبّاس، أحمد بن محمد بن خلِّكَان (ت٦٨١هـ، ١٢٨٢م) المؤرّخ الحجة والأديب الماهر، المولود في إربل بالقرب من الموصل.

أبان ابن خلكان عن طبيعة تأليفه في مقدمته التي صدَّر بها

الكتاب فقال فيها: " ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الشعراء... بل كل من له شهرة بين الناس ". ومع ذلك فإن ابن خلكان لم يعمد إلى ذكر كافة الأعلام المشاهير، فقد أغفل تراجم معظم الصحابة والخلفاء ومن في حكمهم وركّز على أعلام زمنه. ولعلنا نجد له مخرجًا لأن هؤلاء المشاهير قد استوفاهم كثير ممن ألّف في التراجم، لذا جعل عمدته مشاهير عصره ومن يقع السؤال عنهم في زمانه فأضاف إلى تراث التراجم مادة أصيلة لا غنى للباحثين عنها.

ومع أن المؤلف قصد إلى الاختصار وجعله رائده في ذلك، إلاّ أنك كثيرًا ماتجده يطيل في بعض التراجم ويسهب في ذكر الروايات التاريخية والأشعار حتى وصل في بعض التراجم إلى عشرين صفحة أو نحوها. ورغم ذلك فقد حوى الكتاب قرابة ألف ترجمة.

وقد بدأ ابن خلكان كتابه مفضلاً مبدأ السنين في ترتيب التراجم، ثم وجده عسيرًا فعدل عنه إلى الترتيب الهجائي، وهو المنهج السائد لدى كثيرين ممن صنفوا في التراجم، وقد عرض لذلك في مقدمة الكتاب فقال: " ورأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخّر وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ".

وتميّز الكتاب على سائر كتب التراجم بعناية مؤلفه بإثبات سنة الولادة والوفاة متى تيسّر له ذلك، وبلغ من عنايته بذلك أنه كان يسقط الترجمة كلها إذا لم يوفق في الوقوف على سنة الوفاة ويعتذر عن ذلك بقوله عن بعض التراجم: " ولم أظفر بوفاته حتى أفرد له ترجمة ".

وهذه الحفاوة بذكر التواريخ، بالإضافة إلى غزارة المادة وسداد المنهج وسهولة التناول، جعلت الكتاب في صدارة كتب التراجم

العامة؛ لذلك حظي الكتاب باهتمام الباحثين منذ القدم فأكمل ابن شاكر الكتبي بعض نواقصه بكتابه المسمَّى فوات الوفيات، كما ألف صلاح الدين الصفدي كتابًا يُعدُّ ملحقًا له سمّاه الوافي بالوفيات. أما في العصر الحديث فقد بلغ من عناية الناس به أنه طبع نحو سبع طبعات.

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغنى عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفِّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته،وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارئُ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدُّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية. فقد قال بعض الصحابة: اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وما وجدتَ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى

فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الفهـرس

من مشاهير أعلام المسلمين

الفهــرس

* * *

المؤلف في سطور

الدكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

- ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).
- حصل على ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام ١٩٩٦ م.
- حصل على دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام ١٩٩٧م.
- نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام ٢٠٠١ م.
- نال درجة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام ٢٠٠٦ م.

* * *

أهم أعمال المؤلف

١	تاريخ دولة المماليك	دار الإيمان بالمنصورة
٢	تاريخ الدولة الايوبية	دار الإيمان بالمنصورة
٣	الشيعة... التاريخ الكامل	دار الإيمان بالمنصورة
٤	تاريخ المغول	دار الإيمان بالمنصورة
٥	تاريخ الإسلام في الاندلس	دار الإيمان بالمنصورة
٦	الفتح الإسلامي لبلاد القوقاز	دار العلم والإيمان
٧	الفتح الإسلامي لادربيجان	دار العلم والإيمان
٨	معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي	دار الإيمان بالمنصورة
٩	سلاح المؤمن (الذكر والدعاء)	دار الإيمان بالمنصورة
١٠	شهداء العلماء	دار الإيمان بالمنصورة
١١	فاعتبروا يا اولي الابصار	دار الإيمان بالمنصورة
١٢	الظالمون في الدنيا وكيف كان نهايتهم	دار الإيمان بالمنصورة
١٣	ماذا يعني حب النبي ﷺ؟	دار العلم والإيمان
١٤	مطالب الظالمين في الاخرة	دار الإيمان بالإسكندرية
١٥	مختصر سير اعلام النبلاء	دار الإيمان بالمنصورة
١٦	مختصر تاريخ الإسلام للدهبي	دار الإيمان بالمنصورة
١٧	مختصر المنتظم لابن الجوزي	دار الإيمان بالمنصورة
١٨	مختصر الطبقات الكبرى لابن سعد	دار الإيمان بالمنصورة
١٩	مختصر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	دار الإيمان بالمنصورة
٢٠	مختصر السلوك في معرفة دول الملوك	دار الإيمان بالمنصورة
٢١	مختصر نفح الطيب للمقري	دار الإيمان بالمنصورة
٢٢	الف حكمة وحكمة من حكم الحكماء ومواعظ الصالحين	دار الإيمان بالمنصورة
٢٣	١٠٠٠ قصة من حياة الائمة الاربعة	دار الإيمان بالإسكندرية
٢٤	قصص ونوادر الانام في الرؤى والاحلام	دار الإيمان بالمنصورة
٢٥	قصص ونوادر من حياة الطفيليين والبلاغيين والنحاة	دار الإيمان بالمنصورة
٢٦	قصص ونوادر من حياة البخلاء	دار الإيمان بالإسكندرية (تحت الطبع)
٢٧	مختصر تاريخ الطبري	دار الإيمان بالمنصورة
٢٨	مختصر وفيات الاعيات لابن خلكان	دار الإيمان بالمنصورة
٢٩	من مشاهير اعلام المسلمين	دار الإيمان بالمنصورة